مينيكه شيبر

تلال الفردوس

تاريخ الجسد الأنثوي بين السلطة والعجز

ترجمة: عبدالرحيم يوسف

مكتبة



تلال الفردوس

تاريخ الجسد الأنثوي بين السلطة والعجز

عبد الرحيم يوسف/ من مواليد الإسكندرية في 1975. تخرج من قسم اللغة الإنجليزية بكلية التربية جامعة الإسكندرية عام 1997. يعمل مُدرّسًا ومترجمًا حرًا. شارك كمحرر مساعد للترجمة في مجلة ميننا من عام 2005 إلى 2009. نشر ترجمات في جريدة أخبار الأدب المصرية وموقع مدى مصر ويرأس تحرير موقع (ترى البحر). ترجم عددا من التقارير كمترجم حر لمنظمة هيومن رايتس ووتش واليونسكو ومنظمة الأمم المتحدة للسكان. نشر سبعة دواوين بالعامية المصرية وأحد عشر كتابا مترجما في دور نشر مختلفة، وفاز عن ترجمته لكتاب (ثلاث دراسات حول الأخلاق والفضيلة) لبرنارد ماندفيل والصادر عن دار صفصافة بجائزة الدولة التشجيعية للآداب فرع ترجمة الأعمال الفكرية لعام 2016.

تلال الفردوس

طبعة 2020

رقم الإيـــــداع: 2020/2599

الترقيم الدولي: 9-142-821-977-978

الناشر

محمد البعلي

إخراج فني

علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

This is a full translation for the book: Hills of Paradise, A history of power and powerlessness © MINEKE SCHIPPER 2018

This publication has been made possible with financial support from the Dutch Foundation for Literature.

تمت ترجمة هذا العمل بدعم من المؤسسة الهولندية للآداب

Nederlands letterenfonds
dutch foundation
for literature



دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات

5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

مينيكه شيبر

تلال الفردوس

تاريخ الجسد الأنثوي بين السلطة والعجز

ترجمة

عبد الرحيم يوسف





بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

شيبر، مينيكه
تلال الفردوس: تاريخ الجسد الأنثوي بين السلطة والعجز/ مينيكه شيبر، ترجمة: عبد الرحيم يوسف
الجيزة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠٢٠
٢٥٢ ص، ٢٤ سم
تدمك ٩-١٤٢-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨
١ - المرأة
أ- يوسف، عبد الرحيم (مترجم)
ب- العنوان
٣٠١,٤١٢

رقم الإيداع: ٢٥٩٩ / ٢٠٢٠

المحتويـات

مدخل ـ بيت الحكايات المبني من جديد

العين لا تشبع من النظـر،

والأذن لا تمتلئ من السمع.[1]

برغم الاختلافات الثقافية الكبرى، ثمة تشابهات مذهلة بين الناس: فنحن نتشارك نفس الأجساد والوظائف الجسدية – باستثناء الأجزاء القليلة التي تميز جسديا بين النساء والرجال. وعبر تاريخ الإنسانية يجري تيار سلطة وعجز كلا الجنسين، رغم أنه قليلا ما كان لدى النساء تأثير واضح على التراث المكتوب. وقد لعبت الأساطير بطريقة ماكرة دورا رئيسيا في تاريخنا، دور بديهي للغاية عادةً لدرجة أنه نادرًا ما تجري مسائلة هذه الأساطير.

في القرن العشرين، بدأت النساء في شغل وظائف كان من المتعذر عليهن فيما سبق الوصول إليها. هذا التطور الحديث نسبيا اقترن في كل مكان بالقلق والارتباك والإزعاج والإحباط والعنف. فتقاسُم الامتيازات لا يأتي بسهولة.

يلقي هذا الكتاب نظرة واسعة المدى على البيت الكوكبي المليء بالقصص والأفكار عن أجزاء الجسد التي منحتها الطبيعة للنساء فقط. من وقت لآخر كانت بعض الحجارة الاجتماعية والثقافية تُزال من الأسوار، ومع الوقت جرت إعادة بناء بعض المساحات على نحو راديكالي. لكننا مازلنا واقعين في أسر تقاليد انتقلت عبر العصور، تقاليد تربطنا بأسلافنا على نحو أوثق مما قد ندرك. ولكي نصل إلى معنى من الحاضر، نحن بحاجة إلى فهم الماضي.

1- سفر الجامعة الإصحاح الأول الآية 8.

منذ زمن سحيق، وعلى أساس الاختلافات بين الجنسين؛ تأسس نظام مازال يحدد بقوة نصيب الرجال والنساء من السراء والضراء. إن السلطة تُولِّد الخوف – الخوف من فقد سلطة المرء المكتسبة. وتتجلى السلطة والخوف كلاهما في تيار لا يمكن إيقافه من التعليقات الذكورية على أجزاء الجسد الأنثوي الجامحة وغير الخاضعة للسيطرة، بينما جرى كنس الأفكار الأنثوية حول هذه الأجزاء من الجسد ومداراتها تحت سجادة الأبدية. لقد كانت المعلومات المستقاة من النساء حول جنسهن نفسه نادرة حتى القرن الأسبق. لا شك أنه كانت لديهن أفكار عن أجسادهن (وعن أجساد الرجال)، لكن حتى وقت قريب كان لآرائهن تأثير ضعيف على العلاقات الاجتماعية. وكانت المعرفة التي لديهن إما تتم مصادرتها في صمت من قِبل الجنس الآخر أو تقديمها كمعرفة غير احترافية.

ثمة مثال أوروبي هو إقصاء الطبيبات والقابلات ذوات الخبرة من عملية تأسيس الطب كمهنة علمية. حتى القرنين الثالث عشر والرابع عشر كان مصطلح *medica* يشير إلى الطبيبة الأنثى إلى جوار مصطلح *medicus* للطبيب الذكر. ولم تحصر الطبيبات الإناث أنفسهن في طب النساء أو المرضى من الإناث. وكتبت بعض النساء نصوصا طبية معتمدة باللغة اللاتينية؛ مثل هيلدجارد ڤون بينجين Hildegard von Bingen رئيسة دير للراهبات في القرن الثاني عشر.

ومع ذلك كانت النساء بالفعل مستبعدات من التعليم الثانوي ودراسة الطب، وبالتالي من الوصول إلى صيغ من الممارسة الطبية أكثر احتراما. ونتيجة لهذا نادرا ما جرى حفظ المعرفة الطبية لدى النساء في الكتب. ثمة استثناء هو كتيب طبي مستند على خبرة ثرية بالجسد الأنثوي – وهو مُؤلَّف لصاحبته جين شارب Jane Sharp بعنوان «كتاب القابلات أو الكشف عن الفن الكامل للتوليد» (1671). ولا توجد تقريبا أي معلومات متاحة عنها. لم تكن هناك أي نقابات أو طوائف للطبيبات ولا للقابلات. وفي كتيباتهم الطبية كان الأطباء الذكور يميلون إلى وصف الزميلات الإناث بأنهن غير كفؤات. وقرب نهاية القرن السادس عشر كانت أغلب الممارسات الطبية محجوزة حصريا بالفعل لأعضاء الطائفة الطبية التي لم تكن للنساء أي فرصة

للوصول إليها.[2] من الواضح أن «رجال العلم [...] لا يعيشون في فراغ؛ بل على العكس، تتحدد اتجاهات اهتماماتهم دائما ببنية العالم الذي يعيشون فيه.»[3]

إن أغلب ما قيل وكُتب عن الجسد الأنثوي يعود في الأصل إلى مصادر ذكورية أو تلوَّن بوجهات نظر ذكورية. وطوال قرون كانت الأبحاث حول المجتمع البشري أبحاثا ذكورية. أما الأبحاث من وجهة النظر الأنثوية على المستويات المحلية والوطنية والعالمية فهي حديثة نسبيا: نحن لا نعرف ماذا كانت تقول النساء أو يعتقدن فيما بينهن، فقد كتبوا القليل نسبيا ولم تجذب تقاليدهن الشفهية الانتباه إلا منذ سبعينيات القرن العشرين. قبل هذا الوقت كان هناك عادةً اهتمام أقل بالإسهامات الأنثوية مقارنة بإسهامات الذكور في المجتمع، غالبا لأن معظم الأنثروبولوجيين كانوا رجالا متحيزين ضمنيا لفكرة أن أمر النساء ليس مثيرا للاهتمام بالفعل. علاوة على ذلك فقد كانت لديهم غالبا فرصة أقل في الوصول إلى النساء في الثقافات التي كانوا يقومون فيها بأبحاثهم الميدانية. هكذا جرى اختزال النساء إلى *جماعات صامتة*. يعود هذا المصطلح إلى إدوين آردنر Edwin Ardener الذي خلص إلى أنه في العلوم الاجتماعية هناك تباين هائل في المعرفة عن الرجال والنساء: «هناك اختلال توازن حقيقي. نحن، لأغراض عملية، في عالم ذكوري. ودراسة النساء على مستوى ما أعلى قليلا من دراسة البط والدواجن التي يمتلكنها عادةً – مجرد مراقبة للطيور في الحقيقة.»[4]

بالطبع لا يعني هذا أن النساء كن يوافقن دائما على خضوعهن لوجهات النظر الموروثة. فبدون المقاومة الأنثوية لم تكن لتغدو هناك حاجة إلى الخوف الذكوري من التشريح الأنثوي وحاجته للتحكم فيه. وقد نتج عن ذلك الخوف في كل مكان آليتان مازالتا حيتين وحيويتين: التقليل من النساء بقدر المستطاع، وتحذير الرجال من القوة الأنثوية المدمرة. وبالرغم من أن هاتين الرسالتين تناقض إحداهما الأخرى -إذ لماذا ينبغي أن تخاف من شخص غير مهم تماما؟- إلا أنهما تعكسان وجهين لعملة قديمة صيغت من خليط عاطفي من السلطة والخوف وانعدام الأمن.

2- Margaret R. Miles, *A Complex Delight*, 2008, ch. 4.

3- Needham, *A History of Embryology*, 1934:xvi.

4- Edwin Ardener in: *Perceiving Women*, (Shirley Ardener ed.), 1977:1- 2.

تسير الأفكار المتعلقة بحقوق وواجبات الرجال والنساء متوازية مع التطورات السياسية والاقتصادية. وقد بدأ الشعراء والحكاؤون والفنانون ورجال الدين والباحثون والأزواج الذكور في تحديد الاختلافات المرغوبة بين الجنسين بناء على إجاباتهم المرغوبة على أسئلة جوهرية مثل: من الفاعل ومن المفعول به؛ من الناظر ومن المنظور إليه؛ من يتكلم ومن ينبغي أن يستمع؟

أتى عنوان هذا الكتاب من أغنية طالب من العصور الوسطى باللغة اللاتينية، أغنية تستكشف مشهدا طبيعيا أنثويا متموجا:

"صدرها العذري يضيء بنعومة

والنهدان يرتفعان برقة

مثل تلال الفردوس.

آه من متع هذا الامتلاك! [...]

ومن نهديها اللينين تنحدر

في خط منحن بالتدريج

خاصرتان كتقوس البجع بيضاوتان وجميلتان [...]

وتحت الوسط تنحو بطنها

نحو الامتلاء، حيث أسفلها

في حديقة الحب تهب الزنابق.

آه من متع هذا الامتلاك! [...]"[5]

تمتدح الأغنية جمال الفتاة لكنها بطريقة عابرة أيضا تعلن جسدها العاري كملكية

5- Flora, in: *Wine, Women, and Song. Mediaeval Latin Students' Songs*. 1840:112-113.

خاصة بالرجل الناظر إليه، اللامس له، الواصف له، المادح له.

في القرن الواحد والعشرين مازال الطلاب ومغنو الراب الذكور يغنون عن الفتيات كملكية خاصة، لكن في الثقافة الغربية تغيرت بعض الأغنيات بشكل كبير وبعضها عنيف بشكل مذهل. في العصور الوسطى لم تكن الفتيات يدرسن بعد والآن هن يدرسن – هل يفسر هذا الاختلاف في النبرة؟ إن التفاخر بفحولة المرء يخفي الخوف من أدائه في أغنية «Too blotto to sing/أكثر سُكرًا من أن أغني"؛ وهي أغنية حديثة شائعة وسط أفراد اتحاد طلابي خاص بطلبة علوم الأرض: "مطرقتي هي رِجلي الثالثة / وهي تدق الصخور فتحيلها قطعا / لكني أفضل أن أطعن بها كهفك". والفتاة الخاضعة لهذا الدَّق تجد الأمر «غريبا بعض الشيء»؛ لأنها في الرابعة عشر من عمرها فقط. كلما زاد قلق الذكر، كلما بحث عن فتيات أصغر وأقل خبرة. ثمة اتحاد طلابي آخر، *ألماناك أوف فينديكات*، يتناقش أعضاؤه حول أجمل الفتيات ويعبرون عن الأمنية التالية الصادرة من القلب: «أن تُجذب فروج الفتيات القذرات فوق البندقية.»

الغريب أن الطالبات الإناث نادرا ما يعترضن علانية على مثل هذا النوع من اللغة المذلة. ثمة احتجاج عام حديث صدر عن الآباء الغاضبين. فقد احتجوا على أغنية بعنوان *Viva Vagina*/*يحيا المهبل*، وكتبوا على لوحة ملاحظات الاتحاد: «التمييز على أساس الجنس، وكراهية النساء، وخيالات الاغتصاب أمور مقيتة وغير مقبولة»، لكنهم لم يرغبوا في نشر أسمائهم في إحدى الصحف[6]، ربما لمنع حدوث مشاكل لبناتهم.

ربما تدع الطالبات الإناث مثل هذا العنف اللفظي يمر لأنه ينتمي إلى طريقة تفكير شائعة إلى حد كبير فيما يتعلق باللحم ضعيف الإرادة للبشر ذوي الأعضاء الجسدية الأنثوية. في عام 2017 جذبت روزان هرتزبرجرRosanne Hertzberger الانتباه إلى هذا الإرث في الحلقة المائة من استطلاع رأي على موقع دومبرت يختزل النساء إلى مجرد لحم. في استطلاعهم ذاك كان السؤال القياسي هو إذا ما كان (البلبل) أحس بالرغبة في دخول لحم أنثوي معين. حقق هذا الاستطلاع نجاحا هائلا مع وجود

6- https://www.nrc.nl/nieuws/2018/01/09/seksistisch- zo- had- de- studieclub- het- niet- bekeken- a1587722.

حوالي ثمانية مليون مشارك في الشهر:

"إذلال النساء تجارة كبيرة. ولحسن الحظ تقدم الرأسمالية حلا جميلا لهذه الأنواع من المواقف. فالحقيقة هي أن النساء لسن مجرد أثداء وبطون وأرداف؛ بل هن أيضا أهم المستهلكين في أمريكا. هن من يقررن أي نوع من السيارات سيُشترى، ويقررن إلى أي مكان سيتم الذهاب في الأجازة، ويقمن بالتسوق. لذلك عندما بدأت كل هؤلاء النساء في شركة فوكس في الشكوى الجماعية من رؤسائهن، قل عدد المعلنين الراغبين في ربط أسمائهم بالعرض."[7]

إن الوعي بأنك لست الوحيد، بل هناك آخرون أيضا يحق أن يحظوا بالاحترام يمكن أن يجمع الناس سويا. ومطالبة المعلنين بالتفكير في محتويات البرامج التي يقدمون لها الرعاية هي فكرة ممتازة، خاصة الآن مع ذلك التعبير شديد الصراحة عن الرغبة الملحة في التقليل من الشأن على مثل هذا النطاق الواسع. إن الحاجة المحزنة لإذلال النساء لا تقدم لأحد طريقة لجعل الحاضر محتملا. ولن تنتهي هذه الحاجة إلا عندما نجرؤ على النظر إلى تاريخنا المشترك من الخوف والارتياب في عينيه.

في مهد نظام راسخ

بالرغم من أن كلا الجنسين ضروريان من أجل التناسل، إلا أنه منذ العصور القديمة في أغلب المجتمعات حظي جنس واحد بمعاملة تفضيلية. وكان هذا يعني أن عائلة واحدة فقط من العائلتين المعنيتين كانت هي التي تقرر المكان الذي سيعيش فيه العروسان الجديدان: مع عائلة العريس (إقامة أبوية) أو مع عائلة العروس (إقامة أمومية). في الثقافات التي جرى فيها استبدال الصيد وجمع الثمار بالزراعة واسعة النطاق، وعندما أصبح للرجال سيطرة أكبر على عملية الزرع بفضل اختراع المحراث؛ بدأت العلاقات العائلية تنتقل من الإقامة الأمومية إلى الإقامة الأبوية، وصار على

7- https://www.nrc.nl/nieuws/201721/04//vrouwen- vernederen- big- business- voor- geenstijlwiebetaaltdumpertreeten- 8355536- a1555513.

الشابات من النساء أن يتعاملن بشكل أكبر وأكبر مع عائلة الرجل بدلا من عائلاتهن.[8] وكان الأمر ينتهي بالنساء الشابات في محيط غريب عنهن، تحت إشراف «الآخرين» وخاضعات لقواعدهم، بينما كان يظل الزوج مقيما بارتياح مع عشيرته في أرض العائلة.

الأصهار ليسوا أقارب مباشرين وفي الخيال التقليدي يجري تقديم الحموات والكِنَّات عادةً كمرتابات أو حتى عدائيات ضد بعضهن البعض. في الكونغو حيث عشت لفترة، تحذر الأمهات أبناءهن الذين يريدون الزواج: «أن تأكل مع امرأة معناه أن تأكل مع ساحرة.» وإذا كنتم تتساءلون ماذا يعني هذا، فالإجابة هي أن زوجة الابن تأتي من الخارج وتجلب «دما غريبا» إلى الأسرة. وبالنسبة لأسرة الفتاة يعني هذا المسار من الأحداث أن مصيرها هو أن ترحل إلى أسرة غريبة وأن أطفالها سينتمون أيضا إلى «آخرين».

في ثقافات كثيرة تُعتبر الفتيات «في مرحلة انتقالية» في بيوت عائلاتهن. وبالفعل تُعتبر الفتيات، المكتوب عليهن الرحيل، «ماء مسكوبا» (في الصين) أو «رماد سجائر» (في الثقافة العربية). أما الأطفال فينتمون عادةً إلى عشيرة الزوج، بينما لا تنتمي أمهاتهم كلية أبدا إلى أي مكان. أو بتعبير مَثَل من شعب لوبا بالكونغو: «الابنة مثل قطرة المطر، ستخصب حقول الآخرين.» ويوضح المتخصصون في علم نفس التطور أنه في المجتمعات أبوية الإقامة تتعرض الزوجات لخطر العنف على هيئة تحرش وإيذاء واغتصاب واستغلال أكثر مما يوجد في سياقات الأسرة أمومية الإقامة.[9]

كثيرا ما جرى اعتبار النساء ملكية خاصة بالذكور. لذلك لم يكن يُنظر إلى الاغتصاب كتعدٍ على سلامة المرأة، لكن كانتهاك لملكية المالك. وبدفع تعويض «للمالك» الأصلي كان الأمر ينتهي بالضحية في يديّ المغتصب؛ «مالكها» الجديد. في الكتاب المقدس العبري جرت الإشارة إلى هذا الترتيب في سفر التثنية (22:28-29)، وفي مجتمعات كثيرة مازال هذا هو مسار الأحداث المعتاد، رغم أن هناك مزيدا من الاحتجاجات ضد

8- Ruth H. Munroe, Robert L. Carol R. Ember en Melvin Ember, The conditions favoring matrilocal versus patrilocal residence. *American Anthropologist* 73 (1971): 571- 594.

9- Vandermassen, *Darwin voor dames*, 2005:189. والمزيد عن العنف في الفصل العاشر

هذا حاليا. والتبرير الشائع هو أن المالك لديه سلطة على ملكيته: يمكنه أن يبادلها أو يتصرف فيها كما يشاء. والعطب أو الإضرار يعطيه الحق في تعويض معقول.

في جميع الثقافات يُعد تبادل الهدايا إحدى أهم الطرق لإمالة التوازن الدقيق بين الحب والكراهية في العلاقات البشرية نحو الجانب الإيجابي. يخلق العطاء والأخذ روابط تمنع الجماعة من الانقسام. وبفضل منع الزواج من المحارم لم يكن من الممكن للفتاة أن تتزوج من أبيها أو أخيها. وكلما أراد رجل امرأة، كان لا بد أن يتم التنازل عنها من قِبل رجل آخر، عادة أبوها أو أخوها – كما شرح بجلاء كلود ليفي ستراوس. هذا المبدأ العالمي تقريبا قائم على مفهوم التبادلية الأكثر اتساعا: أن البشر ككائنات اجتماعية لا بد أن يتبادلوا الممتلكات مع الآخرين.

إن تبادل أغلى الممتلكات – النساء – قد خلق هذه التبادلية من الأخذ والعطاء شديدة الضرورة بين الجماعات. هذا الشكل من تجارة المقايضة جعل الرجال يرون أنفسهم كمديرين للمجتمع، ويرون نساء"هم" كملكية عائلية تجارية. وأدى تبادل هذه السلع الحية إلى زيادة حالة استقلالية الرجال وحوَّل النساء تقريبا إلى «أصول منقولة». فلم يعد يُنظر إلى من تجري مبادلتهن كبشر على قدم المساواة مع من يقومون بالمبادلة.

وقد انتظمت المجتمعات الأبوية بنفس الطريقة التي انبنى عليها النموذج العائلي والذي يمارس فيه الآباء السلطة على عائلاتهم. ويتكون مصطلح بطريريكي *patriarchy* من الكلمتين اليونانيتين باتر *pater* (أب) وآركي *archè* (البادئ أو المبدأ الحاكم). أما ترسيخ العلاقات الأبوية فكان عملية طويلة حدثت في لحظات مختلفة في أجزاء مختلفة من العالم. في الشرق الأوسط حدث هذا التطور منذ حوالي 2500 عام (حوالي 600-3100 قبل الميلاد). وجرى نقش أقدم القوانين المعروفة على ألواح من الطين في بلاد الرافدين (العراق الآن). وتوضح النقوش بالأحرف المسمارية أن النشاط الجنسي وقدرة الإناث على الإنجاب تحت سيطرة الرجال في وقت مبكر للغاية، كما أوضحت جيردا ليرنر Gerda Lerner في كتابها خلق *المجتمع الأبوي* *The Creation of Patriarchy*.

إن وجود المجتمع الأمومي، وهو مجتمع كان للنساء فيه موقع مهيمن، كان تفكيرا مأمولا لدى نسويات معينات. ولم يتم العثور قط على دليل مقنع على ذلك، رغم أن

هناك الكثير من القصص (أغلبها سلبي) عن مجتمعات كانت يوما ما في الماضي تتكون من نساء فقط أو كانت النساء فيها هن من يحكمن.[10]

ثمة مجتمعات قليلة جرى وصفها وكانت النساء فيها يتقاسمن السلطة مع الرجال في نواحٍ عديدة، مثلا في جاتال هويوك في الأناضول؛ وقد كانت مستعمرة حضرية أمومية الإقامة في أواخر العصر الحجري (واستمرت ستة أو سبعة آلاف سنة) وعاش فيها ما يقرب من 6000 إلى 8000 شخص.[11]

في أوقات الأزمات، عندما كان بقاء الجماعة عرضة للخطر بسبب ظروف بيئية أو ديموغرافية، كانت هناك حاجة كبيرة للمزيد من القدرة على الإنجاب وبالتالي إلى مزيد من النساء. وبفضل الزراعة بقي مزيد من الناس أحياء وأينما زاد تعداد السكان وكانت المساحة محدودة، كان لا بد من تكثيف الزراعة أو توسيع الأرض. ونتج عن هذا توترات وصراعات بين العشائر المتجاورة: إذ كان لا بد من الدفاع عن الأرض الزراعية الغالية ضد الأعداء. وعندما كان التوسع يؤدي إلى الحرب، كان يجري تدمير البنية التحتية للعشيرة العدائية. وكان يتم القضاء على الرجال بقدر المستطاع، بينما كانت تقاد النساء والأطفال إلى العبودية كغنائم حرب من أجل توفير المزيد من الإنجاب والأيدي العاملة. بالتأكيد شكَّل العبيد فئة أدنى من النساء وتدريجيا أفسحت العلاقات العشائرية الطريق للمجتمعات الطبقية.

تطورت المجتمعات الزراعية إلى مراكز حضرية وفي حوالي 4000 قبل الميلاد بُنيت أول المدن في بلاد الرافدين ومصر. وظهرت الدول الأولى إلى الوجود، أولا في آسيا ومنطقة وسط أمريكا، ولاحقا أيضا في إفريقيا وشمالي أوروبا وأجزاء أخرى من العالم. وفي الأماكن التي زاد فيها الأمن، نمت ثقة الناس وتدريجيا اتحدت السلطة الإلهية والدنيوية في شخص حاكم واحد ذكر.

بفضل النقوش الموجودة على ألواح الطين من أقدم فترة معروفة (± 3000 عام قبل الميلاد) نعرف أن النساء شاركن بفعالية في الحياة الاقتصادية والدينية والسياسية،

10- كما هو مبين في كتاب سابق لي بعنوان *In het begin was er niemand* (في البدء لم يكن هناك أحد) 2010: 171 - 175.

11- Lerner, ibid 30- 31.

لكن حتى عندئذ بالفعل، ومن أجل وضعهن في المجتمع كانت النساء يعتمدن على رجل. وأينما ترسخت هيمنة الذكر، كان يُنظر إلى النساء بطريقة جديدة. كانت هناك قاعدة حديدية تفيد بأن النساء اللاتي لم يعدن قادرات على الإمتاع، يفقدن سلطتهن. بفضل سلسالهم العائلي، كان الرجال يمتلكون بيوتهم الخاصة، بينما كانت النساء ينتمين إلى الرجال الذين اكتسبوا حقوقا عليهن، وفقا لقواعد التراث المحلي. وكانت مكانة النساء في هذه التراتبية تتحدد وفق مكانة الرجال الذين كن يعتمدن عليهم؛ آباؤهن وإخوانهن وأزواجهن:

"كان على كل النساء أن يقبلن كأمر مسلَّم به التحكم في نشاطهن الجنسي وعملياتهن التناسلية من قِبل مؤسسات يهيمن عليها الرجال أو الذكور.»[12]

وانطبق هذا بشكل أكبر على النساء اللاتي جرى سلبهن أو شراؤهن: لأن الاستغلال الاقتصادي لهن تضمن الاستغلال الجنسي. وقد سايرت النساء في الغالب هذه الأفكار المهيمنة، لأنهن بالكاد كن يملكن الخيار. والأرجح أن هذه الأفكار جرى استبطانها في مرحلة مبكرة لتصبح القاعدة المقبولة بل والبديهية على نحو متزايد.

في المجتمعات المبكرة كان العنف متواجدا بالفعل في كل تجمع تقريبا وكان هذا أحد الأسباب بالنسبة للنساء كي يكن مجبرات على «نظم التربية».[13] كانت حياة الأطفال لأم دون حامٍ ذكر عرضة لخطر كبير حتى أن الأم ببساطة لم يكن بمقدورها الاعتراض. وكان مثلُ هذا الحامي يريد أن يتأكد من أمر ذريته هو. وكانت المعارك مع المنافسين ينتج عنها الامتلاك الذكوري لأجساد النساء والسيطرة عليها من أجل الاستخدام الشخصي.

وقد رسم الرجال خريطة تاريخ المجتمع من وجهة نظرهم وخبرتهم. وحتى الآن في أغلب المجتمعات يتم تقدير الذكورة أكثر من الأنوثة، ويمتلك الرجال سلطة سياسية أكبر ويتم تقدير «عمل الرجال» بشكل أكبر من «عمل النساء».

12- Ibid. 100.

13- هذا المصطلح يخص سارة بلافر هردي Sarah Blaffer Hrdy في كتابها *Mother Nature*، 1999:258.

في كتابه الذي حقق أعلى المبيعات: *Sapiens: A Brief History of Humankind* / *العاقل: تاريخ مختصر للجنس البشري*، يخلص يوفال نوح هاراري Yuval Noah Harari إلى أن البيولوجيا تجعل كثيرا من الأشياء ممكنة، لكن الثقافة عندئذ تقيد أو تُحرِّم. ويقول إن تطوير الهيمنة الذكورية لنفسها عالميا تقريبا لا يمكن أن يكون من قبيل المصادفة، لكنه غير قادر على تفسير السبب في بقاء هذه التراتبية مازالت فاعلة بكل هذا الانتشار:

> "ربما لا يتسم ذكور نوع الهومو سابين (الإنسان العاقل) بالقوة الجسدية والعدوانية والتنافسية، لكن بمهارات اجتماعية أعلى وميل أكبر إلى التعاون. نحن فقط لا نعرف."[14]

شيء محبط بالفعل. فبرغم العنوان الرنان لكتابه: *تاريخ مختصر للجنس البشري*، يعاني المؤلف من ضعف نظر تجاه الضوء الكاشف الذي تلقيه الأساطير والثقافة الشعبية على أصل عدم المساواة الجنسية. ثمة موضوعان أساسيان في أصل وخلق الأساطير هما الأدوار المتغيرة للإلهات والآلهة، وتفوق الرجل الأول على المرأة الأولى؛ الأمر الذي يؤدي إلى تاريخ برر بالتدريج عدم المساواة على أساس الاختلافات الجنسية. بفضل نجاح الأساطير المشتركة، بدأت مجموعات أكبر من الناس في العمل معا، أولا في عشائر وتجمعات حضرية، ولاحقا كأمم أو مجتمعات دولية وأديان تغطي العالم. يصر مؤلف كتاب *Sapiens* عن حق على أهمية هذه القصص كرابط لتسيير المجتمعات[15]، لكن مثله مثل ليفي ستراوس، لديه ضعف نظر تجاه الضوء الكاشف الذي تلقيه الأساطير والثقافة الشعبية على أصل عدم المساواة الجنسية.

تتعامل الأساطير مع موضوعات حاسمة تؤثر على المجتمع كله. وتضع الأسس للوجود الإنساني وتتناقلها الأجيال جيلا بعد جيل. وطالما أن الناس تؤمن بقصصها الخاصة، يدوم النظام الراسخ الموصوف في هذه القصص. أما إذا تغير مجتمع ما بشكل جوهري أو تحرك في اتجاه جديد، يعاد بناء بيت القصص.

14- Yuval Noah Harari, *Sapiens*, 2011:178.

15- Harari, 30, 36.

تكتسب الآلهة حتما سمات بشرية ومع الوقت يستولي الآلهة الذكور في كثير من الأحيان وبشكل ملحوظ على الوظائف الأساسية في الخلق ومنح الحياة التي تملكها الإلهات الأسطوريات. ثمة قصص كثيرة يعاد توزيع الأدوار فيها بحيث يجري إعلاء جنس فوق الآخر، مستوليا لنفسه على معظم السلطة ومفوضا لها أغلب الفرص. وفي بعض القصص يبيد القائد الإلهي الجديد على نحو راديكالي أمه الأولى في معركة درامية.

تبرر الأساطير هذا التحول في الأحداث بتوضيح أنه لا بد من كبح السلطة الأنثوية لأن النساء متقلبات وظالمات ومتطلبات. ثمة قصة من شعب جيكويو قيلت لي في كينيا وتصف كيف كانت النساء صاحبات السلطة في زمن قديم. كن قاسيات ولا يعرفن الرحمة، وحكمن مثل الطغاة. وكان الرجال يفعلون كل شيء من أجلهن: كانوا يصيدون ويفلحون الأرض ويطبخون ويرعون الأطفال (وفي بعض التنويعات كانوا حتى يُرضعون الصغار) ويحمون عائلاتهم من الأعداء. كانت النساء فقط يصدرن الأوامر ولا يفعلن شيئا. ومهما بذل الرجال أقصى جهدهم بحماسة لتلبية طلبات النساء، كانوا يُستغلون كالعبيد. ولم ترض الحاكمات الإناث أبدا. لا عجب أن لجأ الرجال إلى حيلة: فقد اتفقوا فيما بينهم على تخصيب جميع النساء في نفس الوقت. وبينما كانت النساء يقمن بالولادة، جرت الإطاحة بحكمهن الظالم. «أنشأ الرجال نظاما جديدا وأحكموا قبضتهم على المجتمع. ومنذ هذا الوقت ساد العدل والسلام في مجتمع جيكويو.»

تعطي هذه القصة الانطباع بأن السلطة الأبوية حلت محل السلطة الأمومية، لكن، كما أشرنا من قبل؛ لم يوجد المجتمع الأمومي بالفعل كنظام مجتمعي. أما سرقة الرجال لسلطة النساء، والتي تُدعى أيضا «سرقة سر النساء»، فهي موضوع ملفت في أجزاء عديدة من العالم. ويتعامل الفصل العاشر مع هذا بمزيد من التفصيل.

تكرس الأساطير قدرا كبيرا من الاهتمام للجسد وتربط الرسائل عن التراتبية الجنسية في مجتمع محلي ما بقصص عن الناس الأوائل. والأمثال التي تقول «كيف ينبغي أن تكون الأمور» في العلاقات الجنسية، يمكن العثور عليها في كل مكان حولنا؛ مثلا في الاستعارة الشائعة للحصان وراكبه: «الذي يمتطي الآخر هو القائد».

لكن الحقيقة التي لا مهرب منها بأن الرجال معتمدون على النساء من أجل أبنائهم المرغوبين بشدة، لا بد وأنها أخلت بالتوازن بين الجنسين منذ البداية ذاتها. وقد أثر هذا الشكل من عدم التوازن بلا شك على العلاقات وخلق رغبة ذكورية قوية للتعويض: الحاجة للسلطة والسيطرة على خصوبة النساء والميل إلى إعلان مناطق هامة محظورة على النساء.

كما تعقدت الصلة بين الجنسين نتيجة الخوف الذكوري من الفرج الذي تكمن فيه الرغبة في الالتهام – كما توحي بذلك قصص تهديدية في ثقافات كثيرة. هذا الخوف ليس منعكسا فقط في القصص، بل كذلك في محظورات غريبة. لا بد أن قوة هذه البوابة الأساسية هامة (ومازالت). من أي مكان غير ذلك كان يمكن أن يأتي ذلك الوهم القائل بأن الرجل الذي ينظر إلى أعضاء الأنثى التناسلية يعاقَب بأطفال يولدون عميانا؟[16]

أصبحت القدرة الأنثوية على إنتاج الحياة مرتبطة بطبيعة حرون لا بد من ترويضها. حاولت أساطير كثيرة أن تكمم هذه القوة الحياتية المخيفة بتقديم إله أعلى ذكر مطمئن أو جد أكبر كخالق للحياة كلها. في قصة مصرية، تكون القوة البدائية في هيئة المحيط الأزلي نون مازالت تضم إله الشمس آتوم، لكن هذا الخالق الذكر عندئذ يجامع يده، كما هو مشروح في نص بمقبرة مصرية قديمة: يستمني ويضع المنيّ في فمه. وعندما يبصقه يخلق طفليه شو وتفنوت. وفي نص المقبرة يعلن نفسه كمنجب مستقل:

"قبل أن تأتي السماء إلى الوجود
قبل أن تأتي الأرض إلى الوجود
قبل أن يُخلق الأديم والزواحف هنا
كنت العظيم الذي جئت إلى الوجود من نفسي،
وحدي تماما حققت رغباتي
تأملت في قلبي وخططت في رأسي

16- Satlow, *Jewish Constructions of Nakedness*, 441- 442.

كيف سأشكل وأخلق الأشكال اللانهائية.

لذا كنت أنا من بصق شو وتقيأ تفنوت.

حدث هذا عندما كنت مازلت وحيدا...

استمنيت بقبضتي، ضاجعت يدي،

وبصقت من فمي، من نفسي."[17]

في تقاليد كثيرة، آجلا أو عاجلا يبدأ إله ذكر في خلق الناس بنطقه كلمة قوية أو بخلق الحياة بيديه من الطين أو التراب أو مواد أخرى. أو بخلاف ذلك، ودون تدخل أنثوي، يتقيأ من أعماق جسده كائنات حية تبدأ في استيطان الأرض. وهكذا يجري تحويل الافتقار إلى قوة الإنجاب لدى الذكر إلى قصص نجاح عن نظام إلهي أو رجولي يتغلب على الفوضى الأنثوية وينظمها.

وأصبحت العفة الأنثوية قبل الزواج وأثناءه متطلبا بديهيا للتحكم في هذه الفوضى المخيفة والمفترضة؛ لأن فضيلة النساء كانت تحدد مكانة العائلة ونسلها. وفي عالم لم يكن فيه اختبار الدي إن إيه، كانت الأمومة أمرا لا جدال فيه، بينما كان اسم الأب هو سر الأم.

إن الأساطير والنصوص الأخرى المنقولة يتخللها الخوف والشك الذكوريان المكبوتان. ويتضح صغر الخطوة من الارتياب إلى العدوانية من خلال الدعوات التي لا حصر لها إلى العنف ضد النساء: كلما ضربتهن أكثر، كلما أحببنك أكثر. تلك نصيحة مسموعة على نطاق واسع (وهناك المزيد حول هذا في الفصل التاسع).

نتيجة للرسائل الذامّة الكثيرة حول طبيعته ومظهره الخارجي، كان الجنس الأنثوي ومازال مُعذّبا بالخوف والارتياب بما لا يقل عن نظيره الذكر. وأدى الانشغال القهري بالمظهر إلى حلقة مفرغة: حيث تتنافس النساء مع أجسادهن لجذب انتباه الرجال. لقد اختزلت النساء أنفسهن، من أجل الحفاظ على الذات، إلى أشياء، حيث لا توجد تقريبا أي خيارات لتحسين مصيرهن غير أن يبدين جذابات جنسيا ويجدن زوجا.

17- ترجمة حرة من أوراق بردي بريمنر- ريند 26، 21 - 27، 1 ببليوتيكا إجيبتيكا 3، بروكسل 1933: 59 - 61 ونصوص سحرية أخرى من المقابر تشير إلى الأساطير. مع الشكر لعالم المصريات جاكو ديليمان Jacco Dieleman على المعلومات الشخصية.

وبمجرد تحقيق هذا، لا يبقى في الحياة شيء صغير يحرزنه إلا أن يلدن نسلا يُفضَّل أن يكون من الذكور.

إن الجرعات الزائدة بطول قرون من التعليقات المستخفة قد أثارت لدى كثير من النساء حساسية مفرطة تجاه النقد الهدام. لا عجب أن صناعة الإعلانات اليوم حريصة على الاستفادة من الحاجة الأنثوية القديمة لنظرات الاستحسان، وهي حاجة مازالت الأمهات القلقات يمررنها ضمنيا إلى بناتهن.

تقدم الأساطير نظاما اجتماعيا مرغوبا وتُبقي الناس في القبضة المحكمة لحكاياتها. وتشكل خصوصية صارمة تدوم طالما لا يوجد أي بديل جذاب. أغلب الأساطير تؤكد نظاما يكون الرجال فيه هم القادة، بالرغم من أنهم ظلوا معتمدين على النساء من أجل النسل. لم يؤد هذا الاعتماد فقط إلى السيطرة على نشاط الأنثى الجنسي، بل كذلك إلى حاجة ذكورية بالغة للتعويض في الأمور السياسية والثقافية والدينية. وإلى ميل بارز إلى **المناطقية** (أي السلوك الحيواني الخاص بتحديد منطقة خاصة ومنع الآخرين من دخولها – المترجم)؛ بإقصاء النساء من المناصب التي لم تكن الاختلافات النوعية فيها غير ملائمة كليا. لم تقم الميثولوجيا والثقافة الشعبية وحدهما بذلك، بل قام الفلاسفة واللاهوتيون أيضا بالتحذير من أن جسد الأنثى يمكنه أن يخل بالنظام المنصوص عليه ويسبب الكوارث.

وقد حظيت أحادية المنظور الذكوري بحماية إضافية في المجتمعات التي لم يكن مسموحا فيها للنساء حتى بالتلاوة أو التعليق علانية على أنواع ذات سلطة – النصوص المقدسة، الأساطير، الملاحم، وأحيانا حتى الأمثال. مثل هذه القواعد زادت في تقليص الإسهام الأنثوي في تشكيل التقاليد. ففي بعض الثقافات والأديان مازال غير مسموح للنساء بتلاوة، ناهيك عن تأويل، النصوص المقدسة أو عالية المكانة أو قيادة الطقوس الدينية.

على مدار القرن العشرين، اكتسبت النساء حريات لم يكن بمقدور أمهاتهن إلا أن يحلمن بها. ولم تعد الخبرات الأنثوية بأجسادهن وأجساد الجنس الآخر كتابا مغلقا. والخبر الطيب هو أن الحدود التي كانت فيما مضى مرسومة بصرامة بين الرجال والنساء بادئة في الاختفاء. العلاقات بين الجنسين تتغير ومساحات التحول بينهما

تصبح أكثر ازدحاما.

إن الاختلافات الجنسية، في بعض الأماكن، تغدو ذات حمولة اجتماعية أقل. وأينما كان هذا صحيحا، لا يعود الناس مضطرين إلى التظاهر بأنهم فائزون عنيدون أو خاسرون غاضبون من جنس أو الآخر. تتخذ العلاقات أشكالا جديدة وتُولّد الحاجة إلى اللقاء على قدم المساواة انفتاحا متبادلا.

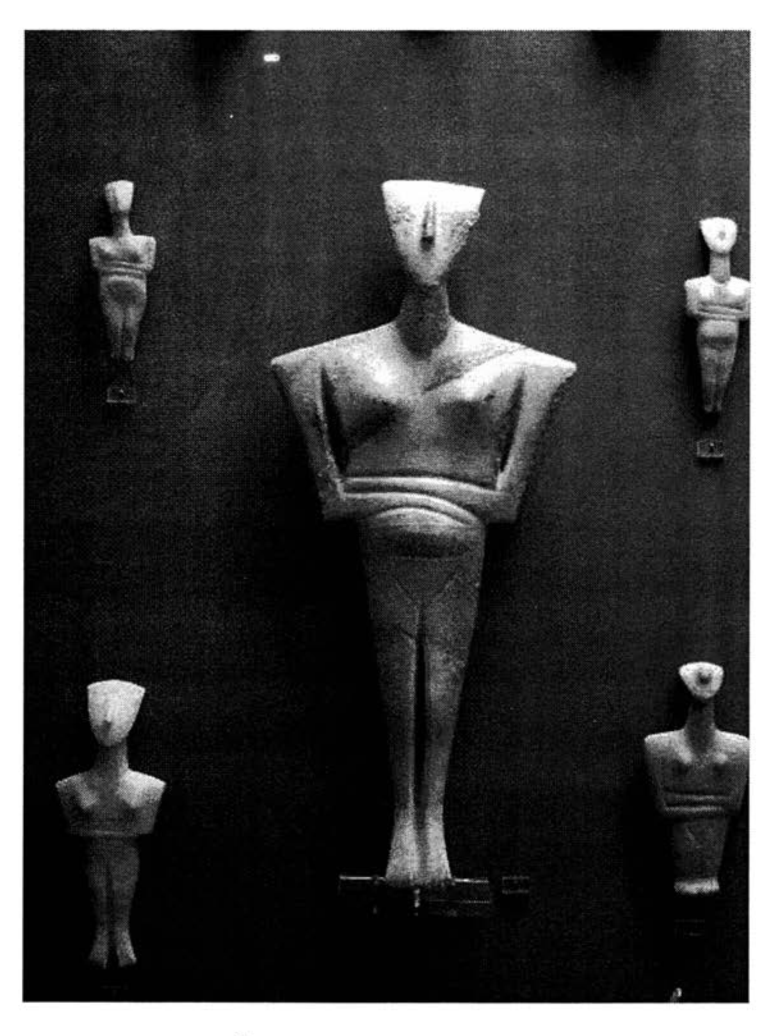
في القرن العشرين بدأ الفنانون في الرد بسخرية على الإرث المثقل بالقيم القديمة، مثلما فعلت نيكي دي سان فال Niki de Saint Phalle في ستوكهولم بعملها Hon en Katedral – (هي كاتدرائية، 1966). هذه المنحوتة العملاقة (6 × 23.5 × 10 أمتار) لامرأة مستلقية وساقاها مفتوحتان على اتساعهما داعية الزائرين إلى القدوم والنظر إلى جسدها من الداخل. ثمة مهبل هائل كان هو المدخل إلى مساحة داخلية مبهجة مليئة بمصادر الجذب، تضم سينما ذات 12 مقعدا، وقبة سماوية، وحوض أحياء بحرية، وبارا يقدم حليبا ووجبات خفيفة في مكان تجويف الثدي، بل ومكتبة. لا عجب أن الرجال والنساء والأطفال اصطفوا كي يدخلوا.

تلك تغيرات جماعية جديدة نسبيا سبقتها ألفية كان فيها نصف البشرية مقيدا باستمرار على أساس امتلاكه أجزاء «منحرفة» في الجسد، وكثيرا ما وُصف هذا الجنس بأنه «مصدر كل الشرور». لقد أثارت الاختلافات الجنسية مواقف مشوهة مازال كثير من الناس يعتبرونها «عادية».

وقد لعبت أجزاء الجسد الفريدة لدى النساء دورا حاسما في هذا الإرث. وكانت الحاجة الذكورية للأجزاء التي تفصل النساء جسديا عن الرجال دائما عظيمة ولا يوجد أي نقص في تعليقات الذكور عليها. ويفيض المدح الذكوري للنساء بمشاعر مختلطة تتراوح بين السلطة المطلقة والعجز المطلق، بين البهجة وبين انعدام الأمن وانعدام الثقة والخوف. وهذا الكتاب هو عن هذه المشاعر الملتبسة نحو أجزاء الجسد الأنثوي الحيوية والمرغوبة والمحسودة والمفترى عليها.

الجزء الأول

من الخالقات إلى الخالقين



تماثيل نساء من الرخام من الحضارة الكيكلادية، المرأة التي في المنتصف حامل.

الأصل: جزيرة سيروس اليونانية. المتحف الأثري، أثينا، 2800-2300 قبل الميلاد.

1

أمهات الحياة كلها

إلى أم الآلهة

إلهية هي مراتب شرفك، يا أم الآلهة ومُربية الجميع،

شدي نير عرَبتك السريعة التي تجرها الأسود قاتلة الثيران

وأنت، أيتها الربة القادرة التي تجعل الأشياء تحدث، انضمي إلى صلواتنا.

دعاك الكثيرون وبجلوك، أنت يا ملكة السماء،

لأنه في الكون عرشك هو العرش الأوسط، لأن

الأرض لك وأنت تمنحين طيب الطعام للبشر الفانين

والآلهة والبشر مولودون منك.[18]

قبل أن تُدوَّن أقدم الصلوات، كانت هناك بالفعل تماثيل للنساء، وصور منقوشة في الحجر أو العظم أو العاج، ذات أثداء وبطون وفروج بارزة. ويبلغ عمر هذه الأشكال حوالي 10.000 إلى 20.000 عام وقد عُثر عليها في أماكن كثيرة – من أوروبا إلى شرق آسيا. في عام 2008 تم اكتشاف تمثال صغير من العاج مكسور إلى ست قطع في تجويف صخري في جنوب غرب ألمانيا، تمثال صغير له ثديان كبيران على نحو ملفت وفرج ملحوظ، منحوت من ناب ماموث خشن. هذا التمثال المسمى «فينوس» من هول فيلس – بارتفاع حوالي 6 سم وعمر يتراوح ما بين 35.000 إلى 40.000 عام – هو حتى الآن الأقدم من بين سلسلة من تماثيل الأمهات التي يدعوها الأثريون بفينوس. والتالي في القِدم هو تمثال فينوس من ولندورف.

18- 'To the Mother of the gods,' in: *Orphic Hymns*: text and translation by Apostolos N. Athanassakis:
https://allaboutheaven.org/observations/orphic- hymn- to- the- mother- of- the- gods- 007316/221 .

على اليسار: فينوس من هول فيلس. متحف بلاوبويرن، ألمانيا، + -35.000 40.000 عام. على اليمين: فينوس من ولندورف، متحف التاريخ الطبيعي، فيينا، النمسا، + 30.000 عام.

والتسمية بفينوس هنا مفارقة تاريخية إشكالية؛ لأن فينوس، ربة الحب، جاءت بعد زمن طويل جدا، فهي مجرد واحدة من الربات الرومانيات الكثيرات، ممن لهن إله أب حاكم ذو مكانة سامية وأعلى بكثير. لذا فإن التسمية بـ «تمثال الأم الحامية» أو «رمز الخصوبة» يبدو أكثر مناسبة هنا:

"بالنظر إلى الوراء بعد آلاف كثيرة من السنين إلى هذه التماثيل الأقدم، يبدو كما لو أن صورة البشرية الأولى عن الحياة كانت هي الأم. [...]. حيث تظهر صور الولادة والإرضاع من الثدي واستقبال الموتى مرة أخرى داخل الرحم من أجل إعادة الولادة في العصر الحجري القديم كما تظهر بعد 10.000 عام في العصر الحجري الحديث وبعد ذلك بـ 5000 عام في العصر البرونزي والعصر الحديدي – وفي الحقيقة هي حاضرة إلى يومنا هذا في الثقافة الغربية من خلال الطقوس المحيطة بمريم العذراء. وليس من المدهش أن تظهر هذه الصور للربات طوال التاريخ البشري؛ لأنها جميعا تعبر عن رؤية متشابهة للحياة على الأرض، رؤية يجري فيها تصور المصدر الخلاق للحياة على صورة أم وحيث تشعر البشرية أنها وبقية الخلق أطفال لهذه الأم."[19]

19- Anne Baring and Jules Cashford. *The Myth of the Goddess*, 1993:9- 10.

في كل مكان على الأرض نُصبت قواعد تماثيل للأمهات. وكما يقول مثل إنجليزي: «لم يستطع الرب أن يكون في كل مكان، لذلك خلق الأمهات». ويجري التغني بمديح الأم في كل مكان وأحيانا يبدو الأمر كما لو أنها كانت ومازالت تمثل الحضور الإلهي في حد ذاتها. لطالما كان الحنين البشري إلى الأمهات الإلهيات هائلا وربما تكون الأثداء الإلهية لا تُقاوم بشكل أكبر بالنسبة لهؤلاء الذين لا يمتلكونها. لذلك جرى تقدير وإعزاز أثداء الأمهات الأرضيات، وإن كان بشكل أقل قليلا من الأثداء الإلهية. ثمة مثل إسباني واثق بشكل مطلق من أن «وطني هو ثدي أمي» وثمة أغنية صينية معاصرة تتنهد قائلة:

"أمي، يا أمي
ضميني بقوة في حضنك الدافئ
لأن الليل المظلم وشيك."[20]



إن التصدير المقتبس في بداية هذا الفصل من الترنيمة الأورفية اليونانية القديمة تتأكد في صلوات إلى الأرض الأم في كل أنحاء العالم: «الأرض، أمنا، تطعمنا، تسقينا وتكسونا» – تلك مقولة روسية. وقد أدى الاحتياج البشري إلى تقدير وإعزاز الأمهات أحيانا إلى تكبير أثداء الربات القادرات بشكل هائل في القصص والأيقونات. ومثلما تميل بعض القصص البدائية إلى إطالة القضيب الأول إلى أبعاد بالغة التطرف تصل إلى أن يضطر صاحبه إلى لفه حول وسطه كي يتمكن من السير بطريقة طبيعية، تنمو أثداء الربات إلى أبعاد غير محتملة وتكتسب كذلك قوى خاصة.

مثلا ترك ثديا الربة اليونانية هيرا القويان آثارهما حتى على مجرتنا. هكذا حدث هذا: كان زوج هيرا، زيوس كبير الأرباب، مغرما جدا بهرقل؛ ابنه الفاني من معشوقة أرضية؛ حتى أنه أراد أن يخلد المولود الجديد. لذلك وضعه بحذر قرب الثديين السحريين لزوجته النائمة، لكن الصغير رضع حلمتي هيرا بقوة لدرجة أيقظتها. وبمجرد أن أدركت أنه ليس طفلها، دفعته بغضب بعيدا عنها؛ حتى أن لبنها المقدس

20- اقتبسها الشاعر والوزير جيدي ماجيا، في مؤتمر حضرته في شينينغ، غرب الصين.

تناثر بعيدا في الهواء. وتظل آثاره ساطعة في درب اللبانة، وألهمت هذه الحادثة رسامين مرموقين مثل روبنز بعد قرون عديدة.

وتحكي بعض القصص عن الربة العربية العُزّى من مرحلة ما قبل الإسلام أن ثدييها كانا ضخمين للغاية حتى أنها كلما رغبت كانت تلقيهما بلامبالاة فوق كتفيها وتدعهما متدليين على ظهرها.[21] أي ثدي بشري جاف كان يُنظر إليه كلعنة، لكن الربات الأمهات أنعمن على الجماعة البشرية التقية بأثدائهن المغدقة بالغذاء:

> "الأم المرضعة هي (آلما ماتر) (باللاتينية – المترجم)؛ وهي (أم الذرة) في اليونان القديمة وآسيا والأمريكتين، وهي (المرأة القديمة للفقمات) في بلاد الإسكيمو حيث كانت الزراعة غير معروفة، وهي (أم فقمات الأفظاظ) لشعب تشوكشي.»[22]

وفي ألواح الطين البابلية منذ آلاف السنين اسمها هو «الأم ذات الثدي الوفيّ» أو «هي التي لم يخب ثدياها قط» ولم يجفا أبدا. هذا الجزء المدلل للغاية من الجسد كان يُصوَّر أحيانا على هيئة حلزونات منمنمة أو دوائر، وأحيانا كان يتم تضخيمه أو مضاعفته بشكل ملفت، كما في حالة آرتيميس؛ المشار إليها أيضا باسم ديانا من أوفسوس. تحكي القصص كيف كان يتدفق اللبن أو العسل، الدم أو النبيذ من حلماتها. أو يتقطر السمك منها، كما في قصة لشعب إنويت في بلاد الإسكيمو.[23]

الربات الخالقات

الربة الشامانية شيوانجمو (الملكة الأم للغرب) واحدة من أقدم الربات الصينيات. أول نقش يشير إليها يعود تاريخه إلى عظمة من العظام التي كان يستخدمها العرافون لقراءة الطالع عمرها 33.000 عام. يشار إلى الجانب الصيني من الهيمالايا باسم جبال كونلون، الجنة التي يعيش فيها البشر الفانون. ذلك هو مسكن الأم شيوانجمو: لا أحد يعرف بدايتها ولا أحد يعرف نهايتها؛ وفقا للكاتب الطاوي الشهير زوانج زي في

21- Aicha Rahmouni, *Storytelling in Chefchaouen Northern Morocco*, 2015:60.

22- Wolfgang Lederer, *Fear of Women*, 1968:122.

23- Ibid. 14ff

القرن الرابع قبل الميلاد. قام الشعراء بتمجيد جمالها المبهر، ووفقا للتراث المحلي؛ كانت هي الملكة التي يشير إليها الكتاب المقدس باسم ملكة سبأ التي ذهبت لزيارة الملك سليمان. وقد أنجبت (له؟) سليمان الابن الذي تنازلت له عن عرش مملكتها الأرضية. في جبال كونلون حظيت شيوانجمو بدرجة عالية من التنوير الروحي، ومن هناك الآن تسيطر على القوى الكونية بفضل شجرة الخوخ الخاصة بها؛ وهي شجرة تشكل المحور ما بين السماء والأرض، وتحمل ثمار الخلود. والآلهة مغرمون بهذه الخوخات التي تنضج مرة واحدة فقط كل ألف سنة، ومن وقت للآخر يستمتعون معها بوليمة خوخ في السماء.

إذا نجح كائن بشري في أكل واحدة من هذه الخوخات، فسيحظى أو تحظى بطول عمر مدهش. وفقا للبعض، ترتدي الربة الأم دائما ثوبا بألوان قوس قزح له أكمام مجنحة؛ وهي تساعد وتحمي وتعطي نصائح ممتازة وتعتني بجوهر حياة البشرية. عبر القرون، كانت شيوانجمو معروفة بالأم التي تمنح طول العمر لأبنائها المفضلين. وهي مازالت تحظى بعبادة شعائرية، كما اكتشفتُ منذ بضعة أعوام عند حضور مهرجان لعيد الأم في الريف قرب مدينة شيننيغ حيث تجمع عدد كبير من الناس تكريما لهذه الإلهة الأم المحبوبة.[24]

دون أي صلة بينها ابتدعت الثقافات قصصا ظهرت فيها ربة قوية أو الأرض الأم متجلية في كل الأحياء: على الأرض وفي الماء وفي الهواء. كانت الأرض جسدها، راقدا ممتدا حتى الأفق، وكل ما هو موجود كان يخصها. أنجبت وأطعمت الحياة كلها دون أي تدخل أو مساهمة من إله رجل. ليس فقط النباتات والأشجار والحيوانات هي التي خرجت من قنوات ولادتها، بل الكائنات البشرية الضئيلة أيضا: «زحف الناس الصغار خارجين في الظلام مثل الجنادب، وأجسادهم عارية وطرية. كانت عيونهم مغلقة؛ لم يكونوا قد فتحوها بعد.» (أكوما بويبلو، نيو مكسيكو)[25]

تؤكد أقدم القصص أن كل شيء خرج من جسد هذه الأم (الجدة) الكريم:

"أُم أغانينا، أُم بذورنا، حملتنا في أول الأشياء وهي أم كافة أنواع البشر، أم

24- Https://www.suppressedhistories.net/goddess/xjwangmu.html.

25- Weigle, *Creation and Procreation*, 1982: 46.

كل الأمم. هي أم الرعد، وأم الجداول، وأم الأشجار وكل الأشياء. هي أم العالم وأم الإخوة الكبار، ناس الحجر. هي أم ثمار الأرض وكل الأشياء. وهي أم إخوتنا الأصغر، الفرنسيون والغرباء. هي الأم الوحيدة التي نملكها. (كاجابا، كولومبيا)[26]

في نهاية الحياة أخذت هذه الشخصية الأمومية القادرة كل وأي شيء مرة أخرى إلى داخل رحمها الكريم. ومع ذلك، فقد خضعت تدريجيا لتحولات، في روايات متغيرة تحجرت، ولم تعد تنجز مهامها الخلاقة، تغير جنسها، أو اختطف أحد ما قواها الخلاقة:

"لم يعد بمقدورنا أن نراها بالطريقة التي يمكننا بها رؤية أي شخص، رغم أن لديها ساقين وذراعين ورأسا وقلبا ولحما وعظاما ودما. فلحمها هو التربة الآن، وقد أصبح شعرها الأشجار والنبات، وعظامها هي الصخور، وأنفاسها هي الرياح. وبينما ترقد هناك متمددة، نعيش عليها. وعندما تتحرك، يحدث زلزال.»[27]

تشهد قصة الأرض الأم جالبة كل شيء منعطفا واضحا عندما تدخل فجأة، على سبيل المثال، شخصية جديدة باسم (الرجل العجوز). في بعض التنويعات يجلس على جسد الأم، ودون مزيد من التعليقات، يبدأ في تحويلها: يجذب أجزاء صغيرة من لحمها ويلفها في كرات ضئيلة. وتبدو الكرات الأخيرة «مختلفة عن أيٍّ من الكرات السابقة. يدعوها بالرجال وتبدو أشبه بالهنود، وعندما ينفخ فيهم، يصبحون أحياء.»[28]

في المراحل الانتقالية من قصص البدايات يكون الأمر غير واضح أحيانا إن كان الخالق ذكرا أم أنثى، لكن في النهاية يجري قطع خلق الحياة في كل مكان تقريبا

26- Konrad Preuss in Weigle, *Spiders & Spinsters. Women and Mythology*, 1982:45- 46.

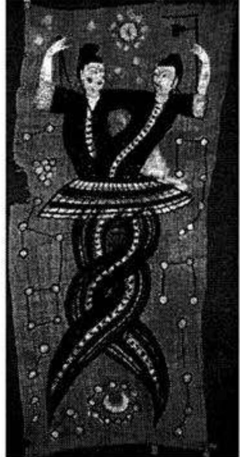
27- Boas, Franz, James Alexander Teit, Livingston Farrand, Marian K. Gould, Herbert Joseph Spinden. *Folk-Tales of Salishan and Sahaptin Tribes*, 1969:80.

28- Ibid.

عن الإلهة الأم الخالقة المستقلة سابقا والمنجبة والمطعمة.[29] في القصص الصينية قامت الربة نُووَا في الأصل بخلق الناس الأوائل بيديها، دون أي تدخل ذكوري:

"هذا ما يحكيه الناس: عندما خُلقت السماء والأرض، لم يكن هناك بشر بعد. تمشت الربة الأولى نُووَا في أرجاء العالم الهادئ وملأ الصمت جسدها بالوحشة. وقرب نبع وجدت تربة صفراء، فالتقطت بعضها وبدأت في تشكيل مخلوق على شاكلتها. وعندما وضعتها إلى جوار النبع بدأ المخلوق في الضحك. استمتعت نُووَا بصوت الضحك كثيرا حتى أنها صنعت مخلوقا آخر، وبعده مخلوقا آخر، وآخرين كثيرين، مشكلة كل واحد منهم بحرص وجمال بيديها. [...] ووضعتهم على الأرض. ضحكوا جميعا ورقصوا واستمتعوا بوقتهم، وأسمتهم نُووَا أبناءها وبناتها. (الهان، الصين)[30]

في روايات لاحقة فقدت نُووَا استقلالها الإبداعي لتصبح أختا و/أو زوجة لفوشي – وجرى تمثيلهما معا بجسد نصفه العلوي بشري ونصفه السفلي على هيئة ثعبانين متشابكين.



نُووَا وفوشي، رسم على حرير. متحف شينجيانج ويغور، منتصف القرن الثامن.

29- E.g. Baring and Cashford, 1991; Lerner, 1986; Graves and Patai, *Hebrew Myths*, 1964:26; David Leeming,
Myth. A Biography of Belief, 2002:41, 79.

30- Lihui Yang and Deming An 2005: 170- 172; Yuan Ke 1993: 4; Mathieu 1989: 63.

في اللغة الصينية كان المفهوم الأساسي «الإله» يعني في الأصل «القدرة على الحمل بالأطفال». وفي سياق التاريخ اختفت تماما فكرة «الولادة» من المعنى القديم، وفي الأساطير الصينية – بما لا يقل عما هو موجود في بقية أنحاء العالم – انتهى الأمر بالإلهة الأم إلى دور خاضع كشريكة لإله ذكر أو تغيرت هي نفسها لتغدو شخصية ذكر. ومع ذلك مازال من الممكن ملاحظة آثار من استقلاليتها السابقة في روايات قديمة.[31]

السقف الزجاجي لزواج مقدس

في الحكايات تحول الإنجاب – أي خلق الحياة بالولادة – إلى ابتداع: أي خلق من اللاشيء بواسطة كلمة أو إيماءة، أو من مواد مختلفة بواسطة العمل اليدوي الخلاق. في هذه العملية من التحول أخذ الإله السماء الخالق زمام المبادرة من الإلهة الأرض أو الأم الأسبق التي شرعت في كل شيء قبل ذلك وحدها. انهارت سلطتها وأحيانا كانت تؤمر بالانكماش حرفيا:

> "كانت الأرض أكبر من أن يضمها السماء بين ذراعيه. فقال: "رغم أنك زوجتي فإنك أكبر مني. كيف يمكنني أن أنالك؟ اجعلي نفسك أصغر." أذعنت الأرض وبفضل قدرتها على التكيف جاءت إلى الوجود الجبال والوديان. أصبحت الأرض صغيرة وتمكن السماء من ممارسة الحب معها. وسن ممارستهما للحب جاءت إلى الوجود كل أنواع الشجر والعشب وكل المخلوقات الحية.» (هروسو، الهند)[32]

كان على الأرض الأم أن تفسح الطريق لإله السماء الأب القادر، وهي فكرة صارت واسعة الانتشار. في عالم البشر يتطلع الصغير بإعجاب إلى الأكبر منه، وعلى الأصغر أن يحترم الأكبر، وعلى الأضعف أن ينحني للأقوى أو الأقدر. في يومنا هذا يلتزم الرجال بهذا المنطق عينه عندما يتعلق الأمر بالعثور على زوجة، مطيعين بوعي أو

31- Cf. Ye Shuxian, 2011; Bret Hinsch, 2004:77. Robert H. Lowie, *Primitive Religion*, 1925:275.

32- Elwin, 1958: 15- 16.

بطريقة لا شعورية الأمثال التقليدية التي تنبه هؤلاء الذين ينوون المغازلة أن يبحثوا عن امرأة «أقل» في المكانة والعمر والتعليم، باختصار شخص أقل بريقا منه هو، زوجها (المستقبلي). «امرأة بدون مواهب تبلي بالفعل بلاء طيبا» كانت (ومازالت) مقولة شهيرة في الصين.

تتردد أصداء هذه الرسالة مجازيا من إفريقيا إلى آسيا والأمريكتين في التحذير القائل: «إياك والزواج من امرأة قدماها أكبر من قدميك». من الواضح أن هذه الرسالة معترف بها دوليا لدرجة أن كتابي *Never Marry a Woman with Big Feet* / *إياك والزواج من كبيرة القدمين* (2004) الذي استند إلى تحليل لأكثر من خمسة عشر ألف مَثَل تتعلق بالنساء حول العالم، قد تُرجم في كل أنحاء العالم وهناك المزيد من الترجمات قادمة.[33]

يميل الباحثون إلى الاتفاق على أن الزراعة الأولى كانت من اختراع النساء اللاتي كانت مهمتهن جمع البذور والثمار والبيض، بينما كان الرجال يصيدون. لاحظن أن البذور أو أجزاء من الدرنات المنثورة على الأرض نبتت وأينعت وحدها. لذلك بدأن في زراعة البذور والخضراوات الجذرية حول الكهف أو الكوخ الذي كن يعشن فيه. وإلى جوار البذر وحصد الذرة، نُسب خَبز الخبز وصنع قدور الصلصال من أجل الاستخدام الطقسي والمنزلي، ونسج وتلوين الثياب، واستخدام الأعشاب المداوية إلى النساء اللاتي كن ينقلن قدراتهن إلى بعضهن البعض.[34]

بفضل الزراعة، اكتسب الناس رؤية جديدة لموقفهم. بقدر ما كان الصيد نشاطا مقدسا، أُحيطت الزراعة بالأسرار المقدسة. نظر الناس بخشية دينية إلى القوى الخفية للأرض التي تحتوي وتُخرج كل المخلوقات والنباتات والحيوانات والبشر كما لو في رحم حيّ. لا بد أن أغلب الأنشطة الزراعية كانت محاطة أو مسقطة على القوى الخاصة بإلهة ما، ومتحققة بالخشية الدينية والاعتقاد بضرورة القرابين. وكانت الأرض كأم مغذية للحياة تُعتبر مليئة بقوة السحر، وجسدت العلاقة بين النظامين

33- Cf. http://www.womeninproverbsworldwide.com/the- book/editions/. The complete data of more than 15.000 proverbs can be consulted at http://www.womeninproverbsworldwide.com/.

34- Sierksma, 1962, chapter 9.

المرئي وغير المرئي.

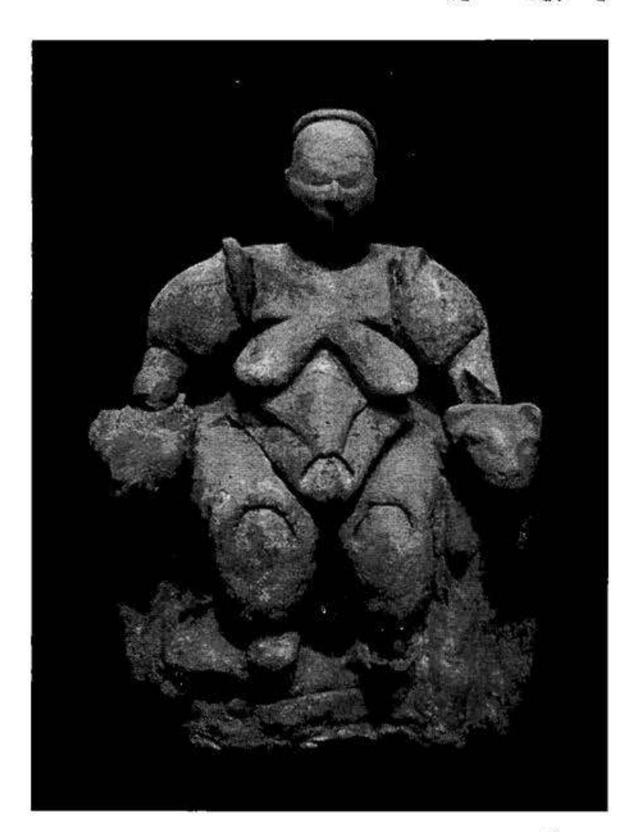
كانت الآلهة والبشر والحيوانات والنباتات جزءا من نفس الطبيعة وشكلوا كلاً عضويا. ولضمان حصاد ناجح، قُدمت القرابين: عادةً كانت أول بشائر الذرة تُترك واقفة في الحقل وأول الثمار تُترك على الأشجار – كإشارة إلى إرجاع الحق إلى أهله. كانت هناك قرابين من الحيوانات أو البشر، من أجل إعادة تدوير الطاقة المقدسة، من خلال رؤية كلية للواقع.

أصبح النشاط الجنسي متصلا على نحو أكبر وأكبر بالقوى الإلهية التي كانت تخصب الأرض. في ميثولوجيا العصر الحجري الحديث أصبح يُنظر إلى الحصاد كثمرة لزواج مقدس. وحَّد المطر جنسيا بين السماء والأرض. كانت الأرض أنثى، وبذرة السماء ذكرا. وفي بعض الثقافات كان الناس يمارسون جنسا طقسيا عند زراعة محاصيلهم. أما الاعتقاد بأن الموت والعودة إلى الحياة من جديد متصلان على نحو غير قابل للانفصال، فقد تطور إلى منطق ذي عواقب درامية: ففي دائرة الأبدية ستحدث كوارث من المستحيل تداركها إذا لم يُسفك دم قربانيّ. والربة الأم، رغم أنها كانت مازالت تُعتبر محبة وكريمة، بدأت في التغير إلى شخصية متقلبة بعض الشيء أو حتى قاسية، بسبب كل القرابين التي اعتُقد أنها تتطلبها من أطفالها.

(سيبيلي)، وهي ربة خصب تحظى بعبادة منتشرة، مثال جيد. الأرجح أن جدتها الأولى كانت ربة أم محلية من الأناضول، أقرب لسلفة لها في المستوطنات الأقدم لمنطقة جاتال هويوك، حيث جرى استخراج العديد من أيقونات النساء الممتلئات الجسم. إن الإنجاب المادي هو الموضوع القوي لهياكل ومزارات مستعمرات جاتال هويوك في الأناضول (تقريبا 7500–5700 قبل الميلاد). وقد وجد الأثريون نقوشا حجرية ضخمة لأشكال أنثوية ملفتة ذات أثداء وبطون وأفخاذ هائلة؛ وعلى يسار ويمين الحجر تستقر أذرعهن على حيوان شبيه بالقط، فهد أو لبؤة. واصطفت على جانبي صورة المرأة حيوانات أو قرون ثيران أو جماجم خنازير برية – كآثار لصيد ناجح. هذه الصور من العصر الحجري ربما تكون قد تطورت لاحقا إلى الربة الأناضولية سيبيلي والربتين الإغريقيتين آرتيميس وديميتر.

كان الصيد نشاطا ذكوريا، لكن إله الصيد كان غالبا شخصية أنثوية وكانت آلهة

الزراعة في الأصل إناثا أيضا. كانت آرتيميس هي (سيدة الحيوانات) وكذلك (مصدر الحياة). وكان الصيادون الذين يخاطرون بحياتهم لكي يُبقوا زوجاتهم وأطفالهم أحياء، يفهمون أن النساء هن مصدر الحياة. كن هن من يضمنّ استمرار الجماعة، بينما كان الرجال قابلين للاستبدال.[35] بتصويرها مع أسد في حِجرها أو على عربة تجرها الأسود والفهود، تذكرنا سيبيلي ربة الأناضول العظيمة بالنقوش الحجرية في العصر الحجري الحديث الأقدم بكثير والتي عُثر عليها في جاتال هويوك، بالنتاج الظاهر لولادة حديثة بين ساقيها.



ربة أناضولية، مع وليد حديث الولادة، وعلى جانبيها لبؤتان.
استُخرجت في جاتال هويوك، متحف أنقرة، ± 6000-5500 قبل الميلاد.

لقرون أصرت قصص عديدة على أن (أتيس)، عشيق سيبيلي، كان أيضا ابنها.

35- Karen Armstrong, *A Short History of Myth*. Edinburg/New York/Melbourne: Canongate 2005, hoofdstuk 2.

ووفقا لقصص أخرى، قادته سيبيلي إلى الجنون بسبب الغيرة، بينما مازالت تنويعات أخرى تقول إن سبب قتله لنفسه كان أنها لم تعد تبادله حبه. أيا كان الأمر، فإن أتيس، سواء كان راعي غنم أو إلها للخصوبة؛ قد خصى نفسه ونزف حتى الموت، ومن دمه نبتت أول زهور البنفسج. ومنذ موته التراجيدي، كان يؤدَّى في بعض الأماكن طقس على شرفه، تعيده سيبيلي خلاله إلى الحياة. وقد انتشرت عبادة سيبيلي من الأناضول إلى اليونان وروما وأماكن أخرى كثيرة.

بوحي من مثال أتيس، كان كل هؤلاء الذين خدموا سيبيلي ككهنة، خصيانا. في روما، حيث كان يُطلَق عليهم (جالي/Galli)، كانوا يرتدون ثياب النساء، "غالبا صفراء اللون، ونوعا من العمامة، مع قلادات وحلقان، وكانوا أيضا يطيلون شعورهم ويبيضونها، ويضعون زينة ثقيلة."[36] بعد احتفال ربيعي قاصف في يوم «عيد الدم»، كانوا يقيمون الحداد خلاله على أتيس، كان الكهنة يخصون أنفسهم. وبعد ذلك يجرون في كل مكان، مشعثين ومضطربين، ويلقون خصياتهم بشكل عشوائي في أحد البيوت التي يمرون بها، وهي علامة كان يقدرها سكان هذا البيت كبركة خاصة.

كانت هذه العبادة للربة الأم ذات الابن/العاشق شائعة بين مؤمنين كثيرين في المنطقة، من القرن السادس قبل الميلاد وحتى نهاية القرن الخامس الميلادي – نهاية الإمبراطورية الرومانية. مثلها مثل بقية الربات العظيمات، كانت سيبيلي تحمي الخصوبة والموتى، بقدر ما كانت تحمي الطبيعة غير المروضة والحيوانات. بالنسبة للكاتب لوكريتيوس (99 ق. م إلى 55 ق. م): «ترمز الأم العظيمة Magna Mater إلى "نظام العالم". وتدل صورتها على الأرض. هي أم الجميع، والأسود المشدودة إلى نير عربتها كي تجرها تبين واجب الطاعة من الأبناء للآباء. أما هي نفسها فلم تُخلق، وبالتالي هي منفصلة بشكل أساسي ومستقلة عن خلقها.»[37]

تدريجيا تخلل العنف الأساطير: اعتقد المؤمنون أن الربة توفر لهم الطعام، لكنهم أحسوا أن الحصاد لن يؤدي إلى شيء إن لم تجر التضحية بذكر للربة الأم. كان هؤلاء

36- https://en.wikipedia.org/wiki/Galli

37- Ibid. and https://en.wikipedia.org/wiki/Cybele#Roman_Cybele.

كتب المؤرخ اليوناني سترابو (± 64 ق.م - ± 23 م) عن الآثار الجنسية لتبجيل سيبيلي.

الأقران بتعبير وكلمات كارين آرمسترونج: «يُمزَّقون، وتُقطَّع أوصالهم، ويُشوهون بوحشية، ويُقتلون قبل أن يتمكنوا من القيام مرة أخرى، مع المحاصيل، إلى حياة جديدة.»[38]

خلسةً تحولت الربة القوية المحبة إلى ربة متطلبة تحتاج، لنفسها فقط، سفكا لا ينتهي للدم وقرابين من الرجال والحيوانات. لاءمت تلك الصورة الفكرة القائلة بأن النساء هن مصدر الحياة وأن الرجال مجرد أشياء للاستعمال مرة واحدة. من الاعتقاد القلق بأن الربة ستعاقب الأتباع الذين لن يمتثلوا إلى الأضحيات المطلوبة، أصبحت مفردات مثل متطلبة وعنيدة ومنتقمة أكثر انطباقا على هذه الربة من الحب الأمومي الراعي. لا شك، ألهمت هذه المعتقدات قصصا عن رجال يسرقون سر النساء.

بعد اختراعهن للزراعة بدأت النساء في زرع الطعام قرب بيوتهن. وبفضل توفيرهن الجوهري المتزايد للحاجة اليومية المشتركة للطعام ازدادت هيبة الإناث؛ خاصة عندما كان رجال الصيد يعودون إلى البيت بأيادٍ فارغة – وهو الموقف الذي لا شك كان يؤدي إلى توترات. وفي الأماكن التي بدأت فيها المكانة الاجتماعية للنساء تهيمن على الحياة الاجتماعية، طور الرجال مجتمعات سرية من أجل تحسين وضعهم في مواجهة النساء. في ثلاث قارات سببت هذه التوترات تنافرا كبيرا في المناطق المحيطة بخط الاستواء حتى أنه ألهم قصصا أسطورية عن رجال ينتزعون السلطة عن طريق سرقة سر النساء. (المزيد في الفصل العاشر).

باختصار: في الأصل كان يجري تمثيل الإلهة الأم كشخصية مستقلة وكمصدر مانح للحياة دون تدخل ذكوري. تطورت هذه الصورة إلى شكل من التعاون الجنسي: أولا كان على إله السماء أن يمطر بذوره المخصبة، قبل أن تتمكن الأرض من إنتاج أي شيء. وفي النهاية تلاشت الأرض الخالقة والمنتجة تدريجيا من الصورة، وأصبحت عملية الخلق مسؤولية كاملة لزوجها المقدس أو تم الاستيلاء عليها من قِبل إله ذكر مستقل من السماء دون أي قرينة أنثى.

يمكن رؤية القوة العظمى للإلهات في الصور والأساطير المبكرة التي تبجل

38- Armstrong, *A Short History of Myth*, 2005:47ev; Baring and Cashford, 82ev

الخصوبة الأنثوية بطرق شتى؛ من ربة الثعابين إلى ربة البحر أو ربة القمر أو ربة العذارى أو ربة تصنع البشر من الطين. كان المفتاح الأصلي للغز الحياة هو الأنوثة، قبل أن ينتج الحياة خالق ذكر مستمنٍ وحده تماما أو يخلق الحياة بفضل أنشطة تناسلية/خلقية أخرى.

في الأصل كان لدى الأرض الأم كافة الإمكانيات للصعود إلى مرتبة (الربة الأعلى)، لكن مسارها أعيق عند السقف الزجاجي لزواجها المقدس من السماء. أصبح لا سبيل لتجاوز هذا السقف الزجاجي بشكل أكبر بفضل التطورات التي أشار إليها ميرتشيا إلياده *Mircea Eliade* بأنها استمناء *spermatoïzation* تدريجي للمجتمع.[39]

أدى اختراع الذكور للمحراث وترويض الثيران وغيرها من الحيوانات لجرّه عبر التربة إلى توازن جديد بين الإسهامات الذكورية والأنثوية: بلغة الاقتصاد كانت زراعة المحراث الذكوري متفوقة على ثقافات الذرة والدرنات الأقدم التي اخترعتها النساء، بفضل الحصاد الأكبر بكثير. بقي مزيد من الناس أحياء لوقت أطول، ووُلد المزيد من الأطفال ونمت قرى صغيرة لتغدو قرى كبيرة.[40]

ومنذ حوالي عام 4000 قبل الميلاد بدأ الناس في بناء مدن ذات أسوار محصنة للشعور بمزيد من الأمان. وقد أوحت الثقة الذكورية المتزايدة في النفس بأساطير كان يتم فيها نقل الدور الخلاق للربات إلى آلهة ذكور وأجداد أوائل من الذكور: وعملت هذه القصص الجديدة كرابط جديد لربط المجتمع ببعضه. وظل خلق الحياة موضوعا هاما في كل مجتمع، لكن فحوى القصص تغير. مع توابع مذهلة بالنسبة للطرق التي كان يتم بها تمثيل خلق الحياة.

في أساطير كثيرة عن خلق البشر، يقوم إله ذكر بخلق الرجل الأول قبل المرأة الأولى. وغالبا ما تُخلق المرأة من مادة أقل جودة. وها هي ثلاثة أمثلة:

"أخذ هينيجبا بعض التراب وصنع الرجل منه. ثم أخذ مزيدا من التراب وصنع المرأة منه. الرجل أقوى جسديا من المرأة لأنه خُلق أولا، وهذا قبل أن تهن قوة الأرض

39- Mircea Eliade, *Patterns in Comparative religion*, 1958:261- 262.

40- Sierksma 1962:152.

بخلق كائن بشري منها أولا." (كووتو، نيجيريا)[41]

"قرر (سيد السماء) أن يصنع أولا عشرة رجال ثم عشر سيدات من لحم وعظام الدواجن. وبمجرد أن بدأ العمل على النساء نفدت منه المواد، واضطر إلى أخذ الطين بدلا منها. ونتيجة لهذا لم تكن لدى النساء المخلوقات أي قوة وكن أشد ضعفا من القيام بالعمل الشاق. عندئذ قام (سيد السماء) بسكب القوة في أجسادهن. لكن النساء أصبحن الآن قويات للغاية حتى أن الرجال صاروا غير أكفاء لهن. وعندما رأى (السيد) أن هذا غير لائق، استرد نصف قوتهن.» (أوروكين، الصين)[42]

"واعيا بوحدة آدم خلق الرب المرأة الأولى من التراب. وكان اسمها ليليث. لكنه لم يستخدم ترابا نقيا بل قذارة ورواسب بدلا من ذلك." (أبوكريفا يهودية)[43]

في حالات كثيرة يخلق كائن علوي ذكر رجلا كاملا أولا، وبعد ذلك يخلق أنثى من جزء غير هام من جسد ذلك الرجل الأول، مثلا إصبع قدم أو ضلع أو إبهام. أو ينعم على الرجل الأول بأن يصنع لنفسه زوجة من بوله أو منيه أو قلفته، أو من قطعة لحم من فخذه. تفاصيل صغيرة كثيرة جدا تتضمن رسائل من التراتبية الجنسية لدرجة أنه يصبح من الصعب اعتبارها جميعا محض مصادفة.[44]

يمكن للمرء بالطبع المجادلة بأن كونك خُلقت لاحقا لا يعني بالضرورة أن تكون أقل مرتبة – على العكس: قد يتبين جيدا أن جهدا إبداعيا ثانيا أكثر اكتمالا من الجهد الأول بفضل الجهد الأسبق. ومع ذلك، أصبح الظهور في المركز الثاني معادلا للأقل «قيمة». يعكس هذا بالإضافة إلى عناصر أخرى في قصص الخلق والأصل استجابات ذكورية للقدرة الأنثوية على الإنجاب – والتي من الواضح أنها كانت تُعتبر اختلالا في التوازن بين الجنسين.

41- Kwotto: J.R. Wilson. «Ethnological Notes on the Kwottos of Toto (Panda) District, Keffi Division, Benue Province, Northern Nigeria.» *Journal of the African Society* XXXVII (1927- 1928), p.145.

42- أوجه الشكر إلى يي شوجسيان Ye Shuxian الذي شاركني بكرم مجموعته غير المنشورة من الأساطير، ص 6: الراوي: مينج شنجقوان: تم التسجيل بواسطة مينج شوزن.

43- Louis Ginzburg, *The Legends of the Jews*. Trans Henrietta Szold. 7 vols. Philadelphia: 1967- 1969. Vol. I: 65

44- مزيد من التفاصيل في كتابي *In het begin was er niemand* (في البدء لم يكن هناك أحد)، الفصل السادس.

قصة الزوجين الجدين الأولين في اليهودية والمسيحية والإسلام هي واحدة من أشهر أساطير البدايات. وقد انتشرت تنويعات لفظية وبصرية لقصة آدم وحواء هذه في العالم كله – من الدول الإسكندنافية إلى جنوب إفريقيا، ومن المكسيك إلى جنوب شرق آسيا. في الكتاب المقدس يُخلق البشري الأول على صورة الرب ومثاله، ذكرا وأنثى. في الأصل هو مجرد «مخلوق من طين»، تشكل من (ها–آدامه) أي التراب، كقطعة من الفخار. فقط انفصالهما هو ما يحول الجزئين إلى بشر لهم نوعان مختلفان. وقد جادل بعض الباحثين أن اسم حواء (بالعبرية هاڤاه) قريب من اسم الرب (يَهوِه): "إمكانية الإنجاب تبرر هذا القرب. [...] لم تولد حواء من الرجل الأول، لكنها انفصلت عن المخلوق الأول، ثنائي الجنس، كما يقول الجزء الأول من القصة: لقد خلق البشر على صورته ومثاله – رجلا وامرأة خلقهما (جمعا).»[45] علاوة على ذلك توصف حواء بأنها «أم كل حي"، وهو اسم ملفت.

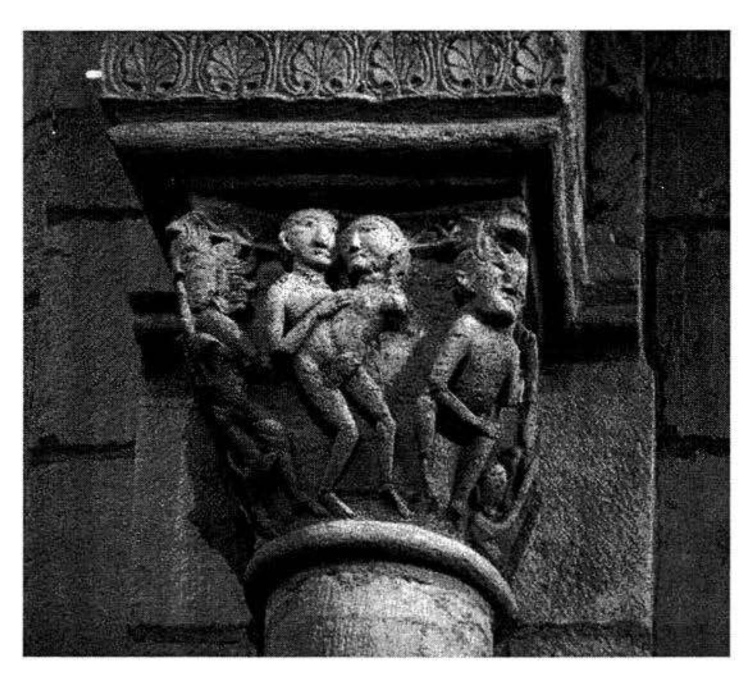
في الإصحاح الأول من الكتاب المقدس يخلق الرب أول البشر على صورته/ـا، ذكرا وأنثى، كشريكين متساويين، وفي أكثر الترجمات انتشارا وتأويلا للجزء التالي من القصة (سفر التكوين الإصحاح الثاني) يكون خلق الرب لحواء من ضلع من جسم آدم، وينتهي الأمر بحواء أن تكون «مُعينا» لائقا لآدم الرجل، الأمر الذي «يثبت» بحدة وعلى نحو خاطئ دونية حواء التي انتقلت آليا إلى كل النساء من بعدها؛ لتعمل كمبرر لممارسات التراتبية الجنسية في اليهودية والمسيحية والإسلام.

أكثر من هذا، ذكر بعض الباحثين أن ترجمة «ضلع» لم تكن صحيحة في هذا السياق. فالعظمة التي صُنعت منها حواء لم تكن ضلعا، بل *الجذيل* أو عظمة القضيب؛ وهي جزء مازال موجودا لدى بعض الحيوانات (مثل الأسود وقرود الشمبانزي والغوريلات) في القضيب. وبما أن آدم اضطر إلى التضحية بها من أجل «خلق» حواء، صار على الرجال (من ساعتها) أن يعيشوا دون هذه الدعامة الصغيرة المعينة.[46]

45- تعليق شخصي من Mieke Bal.

46- Ziony Zevit, http://www.biblicalarchaeology.org/daily/biblical- topics/bible-interpretation/the- adam- and- evestory- eve- came- from- where/.

يفسر بعض الحاخامات خلق الرب لذكر وأنثى بشريين بأنه خلق لكائنين منفصلين. ويقترح آخرون أن آدم في الأصل كان يتكون من ذكر وأنثى في جسد واحد. لكن هذا الخلق الذي نما سويا لم يكن مريحا جدا في الحركة، ولا كانت وضعية الظهر في الظهر عملية من أجل إجراء حوار طيب. وكان هذا هو السبب في أن الرب فصلهما ومنح كليهما ظهرا خاصا بكل واحد منهما. وبعد انفصالهما وضعهما في جنة عدن.[47]



آدم وحواء الكائن ثنائي الجنس: يتشاركان ساقين ولدى كل واحد منهما ذارع واحد.
تاج عمود في كنيسة آنزي-لو-دوك، بورجوندي، القرن الحادي عشر

في أوروبا تنامى عدد الإبداعات الفنية القروسطية لحواء بشكل هائل في القرن التاسع. في بعضها، يُخلق البشريان الأوليان منفصلين «على صورة الرب ذاته»، وفي بعضها الآخر يجري تصورهما كمخلوق خنثوي متحد، أو يأخذ الرب ضلعا من جسم آدم ويشرع في صنع حواء من ذلك الضلع.[48]

47- Ginzberg 66. Genesis Rabba in: Graves and Patai 66; Kvam, Schearing and Ziegler 77- 78; Elaine Pagels 1976: 298.

48- Englard 24.

في منتصف القرن الحادي عشر تصل المشاهد المتوالية إلى الذروة في انقلاب هام: حيث جرى تقديم خلق حواء كولادة لها من آدم. فهي تبرز بمرونة من الجانب الأيمن لآدم النائم، ويداها مرفوعتان في خشوع، كما هو منعكس في الفن الأوروبي. كقابلة بارعة، يجري تمثيل الرب في هيئة رجل ذي لحية – ويده اليسرى تجذب حواء من جسم آدم، بينما تؤدي يده اليمنى إيماءة المباركة.

في أوروبا المسيحية كانت صورة آدم وهو يلد موضوعا بصريا شائعا ما بين القرنين الثاني عشر والسادس عشر، ومازال يمكن رؤية هذا في الكنائس والكاتدرائيات والمتاحف. إن تمثيل حواء مولودة من جسم آدم قلب الأدوار الطبيعية للرجال والنساء رأسا على عقب، وبالتالي قلل من منزلة اسم حواء الملفت في الكتاب المقدس (سفر التكوين 3:20) باعتبارها «أم كل حيّ». بالحديث من منطلق إنساني: إذا كان الطرف الذي يلد أسمى من الذي لا يلد، ورئيسا للطرف المولود؛ فإن الكنيسة في مشكلة. وبالتأكيد على أن آدم هو الوالد لحواء، تم حل المسألة مباشرة. وجاءت صور حواء وهي تخرج من جنب آدم أو من حقويه كنايةً عن أعضائه التناسلية لتوضح لجموع المؤمنين الأميين أن على الرجل أن يسيطر على الزوجة: فقد جاء أولا وجاءت هي منه ولذلك، منطقيا، كان عليها أن تصير تابعته، وليس العكس. نتج عن هذا المنطق الرسالة الهيراركية القائلة بأنه "من النظام الطبيعي للأمور" أن تخدم الزوجات أزواجهن، والأطفال والديهم، والخدم أربابهم وأسيادهم. برر هذا المنطق وضع الرجل كرئيس للعائلة، وسلطته الدائمة على زوجته وأطفاله، وهو منطق مازال مقدرا في سياقات كثيرة.

تأكد انقلاب الأدوار في منطق النصوص التربوية، مثلا بنص كلمات الإيطالي باولو دي تشيرتالدو (Paolo de Certaldo (1320-1370: "الابن الصالح يحب أباه، ويحترمه ويطيعه؛ لأنه أنجبه، حتى لو أن أمه قدمت مساعدة عملية"[49] وهكذا فإن فكرة أن الرجل والمرأة قد خُلقا كشريكين متساويين «على صورة الرب» قد تراجعت أكثر وأكثر إلى خلفية المشهد.

49- Paolo da Certaldo, *Livre des bons usages*, qtd in Zapperi 31.

إن التمثيل المسيحي لحواء مولودة من آدم استند إلى تفكير حريص على علاقات الزواج التراتبية، وهو تمثيل ذهب عكس قصة الخلق التوراتية وكذلك عكس صيغتها الموجودة في القرآن (سورة النساء الآية 1) حيث لا يُذكر أي ضلع. ومع ذلك انتشرت الروايات الإسلامية عن قصة الضلع في التراث الإسلامي بنفس الحرية التي انتشرت بها في التراث المسيحي.

ارتبطت شخصية المرأة بالضلع الذي من المفترض أن أمها الأولى حواء خُلقت منه، وفقا لمعتقد إسلامي مازال شائعا إلى حد كبير، ولذلك لا بد أن يتعلم الرجل كيف يعيش مع «الاعوجاج» الأنثوي: فآراء النساء المعوجة وسلوكهن غير المنطقي نتيجة للضلع الأعوج الذي نشأن منه. باختصار، لا يمكن للمرأة تجنب هذا ولا بد أن يحاول الرجال الاستفادة القصوى من هذا، وفقا للشيخ الإسلامي الجليل البخاري (870-810) في حديث للنبي محمد شائع الاقتباس:

"إنما المرأة كالضلع؛ إن تُقمها، تكسرها، وإن تستمتع بها تستمتع وفيها عوج."[50]

هذا النص من الأحاديث الإسلامية، وهي أكثر الشروح والتعليقات على القرآن تبجيلا. في مسائل الخلق والذكاء والدين، تقدم هذه النصوص المقدسة الرجل ككائن متفوق على المرأة؛ وبالتالي هو أكثر ملاءمة لدور القاضي ولقيادة الطقوس الدينية. وشهادته قيمتها قدر شهادتين لامرأتين. وهذا هو السبب في أن مسؤوليات أكبر قد منحت له وبالتالي مميزات أكبر. في الحقيقة، المرأة ناقصة عقل، وشهوتها بالغة الشدة، ولو امتلكت مالا أكثر من اللازم سينتهي بها الأمر إلى الفساد.

تصر العديد من النصوص الإسلامية القديمة على أن مكانة الرجل أعلى بكثير من مكانة المرأة لدرجة أن الاثنين لن يكونا دائما وأبدا على قدم المساواة. في عام 1985 اقتبس الكاتب المسلم أحمد زكي تفاحة، بجدية ووقار، النص التالي:

"لو أن امرأة وضعت أحد ثدييها طبيخة والآخر مشوية ما أدّت حق زوجها، ولو أنّها عصت مع ذلك زوجها طرفة عين أُلقيت في الدرك الأسفل من النار إلاّ أن تتوب وترجع.»[51]

50- صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب المداراة مع النساء، الحديث رقم 4889.

51- 'Men's Superiority and Women's Deficiency' in: http://www.answering-islam.org/authors/newton.html.

إن نصوص الأحاديث المتصلة بالعلاقات بين الرجال والنساء تعكس بوضوح الحاجة الملحة للتأكيد على تفوق الرجال. ويؤكد الكتاب الإسلامي (كتاب الألف سؤال)، وهو نوع من ملخصات التعاليم الإسلامية في صيغة س وج، على هذا المنطق الخاص بالتفوق الذكوري على أساس عناصر قصة الخلق:

س: هل أُخذ آدم من السيدة حواء أم أُخذت السيدة حواء من آدم؟

ج: أُخذت السيدة حواء من آدم. لو كان آدم قد أُخذ من السيدة حواء، لكان كل الرجال بالتأكيد خاضعين للنساء. لذلك، من الواضح أن السيدة حواء قد أُخذت من آدم.

س: هل خرجت السيدة حواء من جسم آدم أم من شيء خارج جسمه؟

ج: خرجت السيدة حواء من جسم آدم. لو كانت السيدة حواء قد خرجت من شيء خارج جسم آدم، لمضت كل النساء في هذا العالم بالتأكيد عاريات ولم يشعرن بالخجل أمام الرجال.

س: هل خرجت السيدة حواء من الجانب الأيسر أم الأيمن لآدم؟

ج: خرجت السيدة حواء من الجانب الأيسر لآدم. لو كانت السيدة حواء قد خرجت من جانبه الأيمن، لورثت كل النساء سهمين. خرجت السيدة حواء من الجانب الأيسر من آدم ولذلك لا ترث كل النساء إلا ثلث الميراث، وفقا لكلام الله عز وجل في القرآن.»[52]

وتتلقى أم كل حيّ رسائل قاسية في عدد من التعليقات: هي التي أخلت بتناغم الفردوس وأثقلت البشر بمحدودية الحياة. وقد تركت قصص وصور آدم وحواء ندوبا عميقة في تفكير المؤمنين وغير المؤمنين، ومازالت تفعل هذا حتى اليوم. في الديانات التوحيدية الثلاث حرص كثير من اللاهوتيين على نشر خطيئة حواء كوسيلة سهلة لإسقاط خصال سلبية على الجنس الأنثوي.

في أساطير أقدم جاءت من بلاد الرافدين ومصر واليونان، كانت الأم العظيمة مازالت تعتني بأمر الحياة والموت. في القصة التوراتية تفسح الصور المؤكدة للحياة – الجنة، الأنهار الأربعة، شجرة الحياة، الحية ووالدا العالم – الطريق للخوف والإحساس بالذنب.[53] في عدد من التأويلات يقع اللوم في مسألة الموت بالأساس على حواء؛ لأنه لم يكن موجودا

52- Quoted in Steenbrink, *Adam revivus*, 1998:55. القرآن سورة النساء الآية الأولى

53- مزيد من التفاصيل حول تأويلات قصة حواء في Baring en Cashford، الفصل الثالث.

قبل عصيانها.

زعم أوغسطين (القرن الرابع)، وهو واحد من أكثر آباء الكنيسة المسيحية تأثيرا، أنه «حتى قبل خطيئتها خُلقت المرأة كي تكون محكومة من زوجها وتكون منقادة وخاضعة له.»[54]

في قصة سفر التكوين التوراتية يُنسب دور خالق الحياة إلى الرب الآب، لكن تدريجيا أوضحت الصورة البصرية الأكثر انتشارا أن حواء، أول مخلوقة أنثى، خرجت من جسم أول رجل وعُدت مسؤولة عن خضوع كل البشر للموت.[55]

ببطء لكن بثقة أعيد بناء حجرة الأرض الأم في بيت حكايات البدء لتتحول إلى فضاء استولى فيه الآلهة الذكور تدريجيا على أنشطتها المانحة للحياة. لا بد أن الدافع لاختلاس نصيب الأنثى في إنتاج النسل كان مُلحا. أو بتعبير إريك فروم، في منتصف القرن العشرين، في كتابه *لغات منسية/Forgotten Languages*:

> "هناك أسباب جيدة لافتراض أنه حتى قبل ترسيخ التفوق الذكوري كان هناك (حسد الحمل) لدى الذكور، والذي يمكن العثور عليه حتى اليوم في حالات كثيرة. ومن أجل قهر الأم، لا بد أن يثبت الذكر أنه ليس أقل منها، أن لديه موهبة ينتجها. وبما أنه لا يمكنه الإنتاج عن طريق الرحم، لا بد أن ينتج بطريقة أخرى؛ أن ينتج بفمه، بكلمته، بفكرته."[56]

في قصص البدايات لا يبدو أن هذه «الطريقة الأخرى» تعوض ذلك النقص تماما.

تحيط بنا الألغاز، وحدودنا البشرية تحاول أن تختزل الورع الغامض إلى نسب بشرية. في صور وقصص الآلهة، تتسرب الرغبات البشرية، مزودة الآلهة بملامح بشرية على نحو غريب: آلهة يُعتقد أنها تريد أن تملك وأن تحقق كل شيء.

54- Augustine, *The Literal Meaning of Genesis*, Book XI:37.

55- Baring enand Cashford 494

56- Fromm, 1956:233. المزيد من الأمثلة عن «حسد الحمل» في الفصل الحادي عشر



موتشيلي وا نتهودي، بومبا، خالق كوبا الكونغولية،
وهو يتقيأ الناس من جوفه. نحت خشبي، 1979.

2

الخالقون الذكور

في البدء لم يكن هناك إلا الظلام ولم يوجد أي شيء على الأرض غير الماء. وفوق هذا الهيولي، كان بومبا الإله يحكم وحده. كان لبومبا شكل رجل، لكن بحجم هائل [...]. وذات يوم أحس بألم فظيع في بطنه وعلى الفور بدأ يتقيأ.[57]

لا تشير القصص المتعلقة بالأرض الأم قط إلى توقها لوجود قضيب في جسدها، برغم أنها كانت تستطيع بسهولة تحقيق هذا الطلب. لاحقا تلقت ربات الزراعة عروضا واسعة من الخارج: قُدم الشباب كقرابين إليهن وعلى مزاراتهن المقدسة كانت الأعضاء الذكرية جاهزة للاستخدام.[58]

خلق الحياة برحم وبدون رحم

باستثناء بعض الأساطير أمومية المنشأ، فإن الخالق رفيع المستوى للحياة عادة ما يُمثَّل ككائن مقدس ذكر. لا يُقدَّم الآلهة الذكور فقط كخالقين للحياة كلها، لكنهم كثيرا ما يُمنحوا شيئا تشريحيا إضافيا على هيئة أرحام أو أثداء. عندما يخلقون من «اللاشيء»، تكفي كلمة أو حلم أو نَفَس أو ظل أو إشارة. وعندما يخلقون من مادة، فهم يحققون نتائج مذهلة لا تقل عن الإلهة الأم.

بومبا، إله شعب كوبا الكونغولي، يتقيأ الخلق بأكمله من جوفه:

57- Torday and Joyce, *Notes ethnographiques*, 1910: 20- 21.

58- Lederer 216.

"يتقيأ الشمس أولا، ثم القمر وأخيرا النجوم: وهكذا صار هناك ضوء. [...] وبدأ بومبا يتقيأ مرة أخرى وهذه المرة غُص حلقه بالترتيب التالي: الفهد، النسر المتوج، التمساح، سمكة صغيرة، السلحفاة، الرعد والبرق، البلشون الأبيض، الخنفساء، الماعز. وبعد ذلك تقيأ عددا كبيرا من الناس."[59]

هكذا أنتج بومبا العالم والبشرية بسهولة دون زوجة كما تمكنت بعض الخالقات الإناث المنجبات من فعل ذلك دون زوج في أمثلة أسبق. باستثناء الرعد والبرق اللذين سرعان ما بدآ يعيثان فسادا، كان عمل إله كوبا المانح للحياة نموذجيا تماما.

يمكن العثور على أمثلة شبيهة في الميثولوجيا الهندوسية حيث لا تمثل الآلهة مزدوجة الجنس أي استثناء. فكثيرا ما يجري تمثيل شيـڤا وشريكته بارڤاتي كشخص واحد: نصفه ذكر والنصف الآخر أنثى – حيث يكون الذكر شيـڤا عادةً هو النصف الأيمن.[60]



شيـڤا مزدوج الجنس، نصفه الأيمن ذكر ونصفه الأيسر أنثى.
خاجوراهو، مجمع معابد في ماديا براديش، الهند، القرن العاشر.

59- Torday and Joyce, ibid.

60- https://commons.wikimedia.org/wiki/File:Khajuraho_Ardharnareshvar.jpg

تعني كلمة براجاباتي «سيد الذرية» ولذلك يرتبط هذا اللقب ببراهما نفسه. فهو يأتي إلى الوجود «بالخلق البيولوجي» وأحيانا يُنظر إليه على أنه «الذكر الأمومي» أو يشار إليه باعتباره إله الولادة الأسطوري: «بنيته وأفعاله ومشاعره كلها مناظرة لعملية التناسل البشرية، حتى شعوره بالتعب بعد الخلق، وحاجته إلى إعادة التخصيب مناسبان لهذا النموذج.» وكي يخلق العالم من جوفه، يبدأ بالأمنية الطقسية الإنجابية: «فلأتكاثر أنا نفسي.» ثم كخالق يزود نفسه بعضو يشبه الرحم (براجانانا) ومن هذا العضو يبدأ في قذف المخلوقات «الذرية والحيوانات».[61]

لافتقارهم إلى الرحم يبحث الآلهة الذكور عن حلول مختلفة، وحتى في القصص المتعلقة بنفس الإله، يجري البحث عن طرق مختلفة للإنجاب. أحيانا يجري تمثيل براجاباتي ككائن إلهي ثنائي الجنس على شكل رجل وامرأة متشابكين في عناق حميمي، كائن قادر على الانقسام إلى نصفين حتى يضاجع نفسه:

> «أصبح براجاباتي حاملا وخلق الأجيال القادمة من رحمه الأيمن، كرة الشبكة، وأعضاء أخرى دون الاستفادة من الأمهات. لكنه أصبح غير راض عن خلقه، ولذلك قسم جسمه نصفين وجعل نصفا منهما امرأة. وحاول أن يمارس الحب معها، ورغم أنها وأخاها كانا مصدومين من هذا الفعل السفاحي، إلا أنه في النهاية تزوج منها وخلق الذرية معها.»[62]

يثير هذا التساؤل حول إن كان أي شخص يخرج من جسدك هو طفلك. لو أن الإجابة هي نعم، فإن ممارسة الجنس مع ذلك الشخص هي من قبيل زنا المحارم – وهو تابو عالمي. من وجهة النظر الأسطورية تُحل هذه المشكلة بحالة ظرف قهري لا مفر منه: ببساطة لم يكن هناك أحد آخر متاحا وقتها، هناك، في البدء، لذلك كان على الأب الأول مع ابنته أو الأم الأولى مع ابنها أو الأخ الأول مع أخته أن يمارسا الجنس؛ لأن مهمتهما الأولى والرئيسية كانت هي التكاثر وتزويد العالم الخالي بالذرية الأولى.

ماذا عن آدم وحواء؟ في المسيحية كان الخلق الإعجازي لحواء يُقدَّم أحيانا كأحجية:

61- Doris Meth Srinivasan. *Many Heads, Arms and Eyes*, 1997:60- 61.

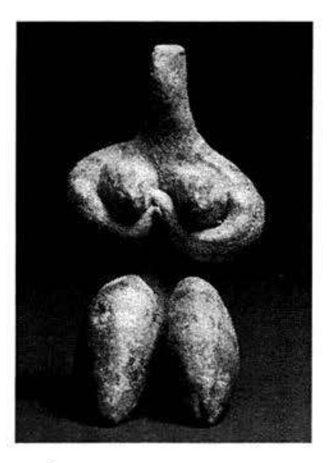
62- Doniger O'Flaherty, *Women, Androgynes and Other Mythical Beasts*. Chicago: Cicago University Press, 1980:312.

«مت ولم أولد
تزوجت أبي
عندما كان عمري يوما واحدا،
ولا أم لي.»[63]

جرى حل مشكلة العلاقة السفاحية بين آدم وحواء بشكل نهائي بفضل القس والبروفيسور والفيلسوف القروسطي صاحب التأثير الكبير توماس الأكويني: لا، لم تكن حواء ابنة آدم، لأنه فقط في حالة الولادة «الطبيعية» يمكن للمرء أن يثير مسألة زنا المحارم، بينما كانت ولادة حواء حدثا استثنائيا بشكل مطلق.[64]

هل يملك الإله ثديين؟

أقدم التماثيل للربات ذات الأثداء الملفتة والبطون المنتفخة التي عُثر عليها في أوروبا – وعمرها ما بين ثلاثين وأربعين ألف عام – والتي مررنا بها من قبل، تشبه تماثيل لاحقة من بلاد الرافدين وسوريا من حوالي 5000 إلى 6000 ق.م.



تمثال الخصوبة، سيراميك. بلاد الرافدين/شمال سوريا
متحف اللوفر، باريس، 6000-5100 ق.م

63- أحجية ألمانية.

64- Zapperi, *L'homme enceint*, 983: 25ff.

وهنا أيضا توسل المؤمنون إلى الأم الإلهية كي تشاركهم قوى خصوبتها الغامضة. وهنا أيضا، منذ زمن سحيق، كانت تُحكى قصص خرجت فيها الحياة كلها من جسدها الأمومي الخصب.

أغلب الأساطير الباقية في الشرق الأوسط يعود أصلها إلى وقت كانت فيه الحقوق الحصرية للإلهة الأم قد انتقلت بالفعل إلى شريك ذكر أو منافس مشاكس. وكان هذا الانتقال أحيانا بعيدا عن أن يكون سلميا. وأحيانا في الأساطير كانت الأم الأولى القديمة تُذبح حرفيا على يد الأجيال القادمة المنتقمة، كما في حالة قصة الخلق البابلية الشهيرة *إنوما إليش* (ربما أُلفت في أواخر الألفية الثانية قبل الميلاد). في هذه القصة تستسلم الأم الحاكمة تيامات بشكل بائس في معركة حاسمة مع سليلها المفرط في الطموح مردوخ الذي يأخذ السلطة عندئذ لنفسه:

"وضع [مردوخ] قدميه على الأجزاء السفلية من تيامات
وبهراوته التي لا ترحم حطم جمجمتها.
مزق شرايينها
وترك رياح الشمال تذرو دماءها..."

لم يُظهر أي رحمة وهو يفصل جسدها الهائل نصفين «مثل سمكة مجففة» ويقف منتصرا على بقاياها الميتة.[65] إن طريقته العنيفة في تسوية الحسابات في الأجواء الإلهية ينذر بأنه من الأن فصاعدا ستكون هي بلا حول ولا قوة.

هذا الصراع الكوني من التراث البابلي جرى اغتصابه بواسطة الأسطورة التوراتية الخاصة بإله خالق واحد، لكن في النصوص التوراتية الشعرية يعود الخالقون من القصص السابقة في هيئة إشارات إلى وحوش البحر والتنانين وآلهة العواصف الذين حاربهم أو يحاربهم الرب العبري. تشير الوحوش التوراتية والمياه الأولى إلى الأم تيامات، تلك الربة الأم البابلية التي أنجبت الآلهة قبل استسلامها القاتل.

الغمر الأول، الذي كانت تتحكم فيه روح الله وهي ترف على «وجه المياه» في الكتاب

65- W.G. Lambert in *Imagining Creation*. Geller and Schipper, editors 2008:20.

المقدس العبري يشار إليها بكلمة «تيهوم»، وهي مفردة ذات صلة بتيامات.[66] إن الهزيمة الدراماتيكية للإلهة الأم في الأسطورة البابلية وفي الكتاب المقدس العبري ليست فريدة. حيث توجد قصص مشابهة في أماكن أخرى بمجتمعات تنعكس فيها العلاقات الاجتماعية المتغيرة في قصص جديدة يُنسب فيها دور البطولة إلى معبود أعلى أو إله السماء.[67]

توجد وجهات نظر مختلفة حول تطور الديانة العبرية – طبقا لنقطة البدء. على عكس مردوخ، ليس للأب الإله أي أسلاف. كان موجودا هناك منذ البدء، ما قاله كان صحيحا، وكل ما خلقه كان طيبا. في التراث اليهودي لم يكن للرب اسم عَلم، لم يكن من الممكن ذكر اسمه، وكان يشار إليه في إجلال بكلمة إلوهيم أو إيل (إله) أو بكلمة يهوِه (تترجم عادة بمعنى «السيد») وفي تعبيرات مثل «هو الواحد الأحد» أو إشارات مثل «الخالد، كلي القدرة، كلي الوجود، كلي العلم، غير المتجسد (وبالتالي غير المرئي)، المبهم والغامض» ولكونه روحا صافية لم يكن له جسد ولا يملك أي سمات جنسية، وذلك من وجهة النظر التوحيدية الصارمة لليهودية التقليدية. ومع ذلك، وحيث أن كل اسم في اللغة العبرية يكون إما مذكرا أو مؤنثا، «فإن كل بيان لفظي عن الرب حمل فكرة أنه مذكر» كما يلاحظ رافاييل باتاي Raphael Patai في كتابه الفاتن (الربة العبرية).[68] وبالرغم من الرسالة الصارمة في التوراة والتلمود، إلا أن الحياة اليومية قدمت وجهة نظر مختلفة، استمر فيها نوع من الإجلال الشديد لعشيرة وعشتروت وعناة والربات الأخريات. كان تعدد الآلهة قائما بين بني إسرائيل حتى القرن الثاني قبل الميلاد، كما يبين المؤلف على أساس من معرفته بالتقاليد اليهودية القديمة في سياق الثقافات الأخرى في المنطقة. وهو لا يجد ذلك غريبا أو مدهشا «في ضوء القابلية الإنسانية العامة والاستعداد النفسي للإيمان بالربات

66- مثلا في سفر التكوين 1:2، 7:11، 8:2؛ http://www.oxfordbiblicalstudies.com/article/opr/t94/e1913.

67- Anne Baring and Jules Cashford. *The Myth of the Goddess. Evolution of an Image*, 1993:420ev

68- Raphael Patai, *The Hebrew Goddess* 1968:18ff

وعبادتهن.»[69]



الربة عشيرة. فخار مزجج. تل أبيب، القرن الثامن-السادس ق.م

تماما مثل تماثيل الأمهات الأقدم، ترفع تماثيل عشيرة من القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد أو تقدم ثدييها الإلهيين بيديها الاثنتين. هذه الربة الأم التي تنتمي إلى مجمع الآلهة الكنعانيين كان يشار إليها بـ «أم الآلهة» و«مرضعة الآلهة»، لكنها كانت ترضع أيضا المحظوظين من أصحاب السمو البشريين.[70] وفقا للأثريين، كانت عشيرة – التي يظهر اسمها أكثر من أربعين مرة في الكتاب المقدس في سياق سلبي – تُعبد كزوجة لإله إسرائيل. كان الناس ميالين إلى التضرع لآلهة عديدة في نفس الوقت. ثمة نقوش مكتشفة من القرن الثامن قبل الميلاد تطلب البركات «باسم يهوه وزوجته عشيرة». مثلاً على كسرة قديمة من الفخار، تم استخراجها بالقرب من (كونتيلة عجرود) في شمال سيناء، يقف الإله المصري بِس في المركز (هو الإله الراعي للنشاط الجنسي والولادة) وإلى جواره إله آخر (هل هو الإله المحارب عحا؟). على نفس الكسرة حفر تاجر يهودي مجهول الاسم: «[...] فليباركك الرب الذي يحمينا

69- Ibid.; https://thequeenofheaven.wordpress.com/201117/08//does- god- have-breasts/.

70- Patai 330.

هو وزوجته عشيرة».(71)

قام المحررون التوحيديون الذين دونوا الكتاب المقدس بتعديل القصص الموجودة لتأخذ اتجاها جديدا وزودوها بمعنى جديد. هكذا كان الكتاب المقدس العبري شجاعا بما يكفي لأن يفعل ما لم تجرؤ المجتمعات الأبوية الأسبق عليه بعد: أن يمحو بشكل راديكالي أي وكل أثر للتبجيل الأنثوي. التوراة هي أول كتاب مقدس دون أي حضور إلهي أنثوي أو زوجة أو عشيقة إلهية. على عكس معاصريه من الآلهة في الشرق الأوسط القديم، يُقدَّم يهوه، إله إسرائيل، كأول إله لا يتشارك سلطته الإلهية مع أي إلهة، إله لم يعد يعوقه أي شكل من المنافسة الأنثوية.(72)

وهو يتميز بتسميات ذكورية مثل «رجل الحرب»، "البطل"، "الملك"، "رب الجنود"، "سيد الكون"، "أبانا الذي في السماء". إن غياب الرموز الأنثوية للإله في اليهودية والمسيحية والإسلام يمثل تضادا ملفتا مع التقاليد الدينية في أماكن أخرى، لكن اللاهوتيين اليهود والمسيجيين والإسلاميين يسارعون بتفسير أن الإله لا يُنظر إليه مطلقا بمنظور الجنس أو النوع. من الواضح أن هذا لم يكن بديهيا بالنسبة لكل المؤمنين.(73)

يحذر الكتاب المقدس العبري بشكل قاطع من الوثنية وعبادة الأصنام، وتابع التراث الإسلامي التحريم اليهودي للتصوير. لكن المسيحيين على العكس كثيرا ما مثلوا الإله بصريا، غالبا على هيئة رجل ملتح مثير للإعجاب. وتشير الديانات الثلاث كلها إلى الرب بـ «هو»، كشخصية ذكورية مجسمة، كما يُدعى في اليهودية والمسيحية بالأب – أب يمكنه أن يستشيط غضبا من أطفاله:

71- Ze'ev Meshel. Kuntillet 'Ajrud. An Israelite Religious Center in Northern Sinai. In: *Expedition 20* (summer
1978), 50 - 55.

72- Robert Graves and Raphael Patai. *Hebrew Myths. The Book of Genesis*. New York: Anchor Books/Doubleday, 1964:26- 28; https://www.encyclopedia.com/environment/encyclopedias- almanacs- transcripts- andmaps/ israelite- religion; http://www.bbc.co.uk/programmes/b00zw3fl: Bible's Buried Secrets, 2: Did God Have a Wife? https://matricien.org/matriarcat- religion/judaisme/asherah/.

73- Elaine Pagels, What Became of God the Mother? Conflicting Images of God in Early Christianity. In: *Signs* (2) 1976:293- 303.

"يعكس مفهوم الإله التوراتي [...] النظام الأبوي الصارم للمجتمع الذي أنتجه؛ هذا المجتمع الأبوي أقام دينا متمركزا حول معبود كوني واحد تجسدت إرادته في الشريعة، لكنه مجرد وخال من كل السمات الجسدية ومع ذلك هو ذكر بشكل معلن وواضح، إسقاط حقيقي لرأس العائلة الأبوية.»[74]

ومع تطور التراث اليهودي إلى ديانة ذات إله واحد روحي وغير مادي، جاهد المؤمنون مع ذلك الشرط غير القابل للتغيير. إذ كان كثير منهم مازالوا يتوقون إلى عنصر أنثوي، ووجدوا ضالتهم في الربات المحليات. يمكن استنتاج هذا من النصوص التوراتية الكثيرة التي شيطن فيها الأنبياء العبريون عبادة الربات، وظلوا يطلبون أن يعبد المؤمنون الإله الواحد الأحد فقط.

جاهد كثير من المؤمنين العبريين المحليين هذا الحكم التوحيدي الصارم واستمروا في عبادة الربات. هناك تشابهات واضحة «بين بركات الثديين والرحم الموجودة في سفر التكوين وعبادات الخصوبة لدى الكنعانيين، جيران الإسرائيليين، الذين كانوا يقدرون ربات مثل عشيرة وعناة اللتين كانتا تُمثّلان بأثداء بارزة.[75]

إيل هو أحد أسماء الإله العبري. في القصة التوراتية التي يعقد الإله فيها عهدا مع إبراهيم أبي الأنبياء، يشار إلى إيل باسم إيل شادّاي، والتي تترجم إلى «الله القدير» لكن الكلمة العبرية (شاد) تعني «الثدي»، وكلمة إيل شادّاي تعني حرفيا «إله له ثديان»:

«الثدي المقدس الموجود في اليهودية المبكرة متصل مباشرة بالرب نفسه. إيل شادّاي، اسم الرب المرتبط دائما ببركات الخصوبة، كان يعني شيئا مثل "الإله (إيل) ذو الثديين" أو "الإله الذي يُرضع". حتى لو كانت هذه اللغة من المفترض أن تُفهم مجازيا فقط، إلا أنها بوضوح استيلاء ذكوري على سمة أنثوية في الأساس. صار من الممكن النظر إلى الرب كذكر وأنثى معا، متجاوزا الحدود الضيقة للنوع البشري.»[76]

74- Patai a.w. 23 - 24.

75- Marilyn Yalom. *A History of the Breast*, 1998:25.

76- Yalom ibid. 27.

مثل هذه الإشارات التوراتية الشعرية والنبوءية توضح أن إيل شادّاي قد تَمثَّل ثديّ عشيرة المرضعين: فالإله التوحيدي لا ينبغي فقط أن يكون أبا لشعبه، بل أما معزية أيضا، ومصدرا للحياة والخصوبة. يشير الكتاب المقدس العبري إلى الإله وهو يتحدث عن نفسه كأم، كأم «يحمل بني إسرائيل في حضنه».[77] كان لدى الرب كل شيء وأعطى كل شيء. في الحقيقة، كانت اليهودية تحتفل بالخصوبة، بما لا يقل عن الأديان الأخرى المحيطة بها، واعتبرت أن أي امرأة لا تكون امرأة «كاملة» إلا بعد أن تلد ذرية من الذكور.[78]

نهاية الربات العربيات

مثلما كان الحال في التراث العبري، كان العالم العربي ما قبل التوحيدي مأهولا بالآلهة الذكور والإناث. وكانت العزى واللات ومناة ربات مقدرات في مجمع الآلهة العرب في القرن السابع. كانت العزى تحظى بالاحترام بين كل العرب، وامتدت عبادتها في كل أنحاء الجزيرة العربية وحتى بلاد الرافدين وحظيت عبادتها بأهمية مميزة وفقا لابن الكلبي (737-819) الذي يُعد كتابه (كتاب الأصنام) واحدا من أهم الكتب التراثية عن ديانات ما قبل الإسلام. العزى، أم الأرض والمساوية لديميتر، كانت تتحكم في الخصوبة وكل شيء يتعلق بأصل الحياة. من الواضح أن النبي محمد كان عليه أن يُسقط بشكل راديكالي عالمه المحيط الغاص بالعزي وغيرها من ربات شبه الجزيرة العربية الشهيرات قبل الإسلام:

"مثلت عبادة الربات مشكلة شائكة بالنسبة لرسول الله. فلم يكن ليتمكن من احتكار السلطة وترسيخ أساس الدين التوحيدي إلا إذا تم تدمير هؤلاء الربات الثلاث وليس فقط إفقداهن مصداقيتهن. كان لا بد من تصفية ربات الخصوبة والولادة والتكاثر الجنسي إذا كان لله والإسلام أن ينتصرا. وقد جرى تنفيذ هذه التصفية بطريقتين: أيديولوجيا من خلال الخطاب، وماديا من خلال التحطيم

77- E.g. Isa. 49: 1; 49:15; 66:11- 13, as mentioned in Walker Bynum 1982:125.

78- Yalom ibid.; Patai 162

المادي لمزارات هؤلاء الربات.»[79]

وكما كان سابقا في تاريخ العبريين، انتشر الارتباك عندئذ بين العرب: فقد كانوا يعتقدون أن الربات الثلاث هن (بنات الله). وبما لا يقل عن التوحيدية اليهودية منذ قرون قبله، واجه الإسلام سؤالا يتعلق بكيفية التخلص من الربات الشهيرات، كما أوضحت فاطمة المرنيسي في كتابها الجريء (الذي كُتب لدواع أمنية تحت اسم مستعار) *المرأة في اللّاوعي المسلم*/*Woman in the Muslim Unconscious*:

"بسلب المرأة ميزة منح الحياة واختزالها إلى مجرد وعاء سلبي في عملية الخلق، واجه الرب مشكلة الازدواجية الجنسية: كيف تستعاد الرابطة وكيف تُخلق من جديد. سيعاد بناؤها، لكن بعد خضوعها لتحول ينفي سمة الأنوثة، القدرة على الولادة. [...] في الواقع المقدس، يكون الرجل هو من يلد المرأة. [...] لكي يوجد النظام المقدس، لا بد من تصفية العنصر الأنثوي (وإلى جواره الطفل كتجلٍ له)؛ لأنه تجسيد للمحدود، للبشري الفاني. كان لا بد من تدمير الربات العربيات فيما قبل الإسلام ليجعل من الممكن الإعلان في السماء وعلى الأرض عن هيمنة العنصر الذكوري – ألا وهو التوحيد.»[80]

جرى تدمير معبد العزى في الجهة الشرقية من مكة عام 630، وعاجلا أو آجلا تعرضت المزارات الأخرى لمصير مشابه. كان على محمد أن يأتي بإجراءات راديكالية كي يقطع الحبل السري الذي كان يربط المؤمنين بهؤلاء الربات. وهن يظهرن في القرآن، لكن في مقاطع عديدة من الكتاب المقدس للمسلمين كن يُعتبرن كوصمة عار. وفقا لابن الكلبي نجح القرآن في حل المشكلة.[81] فقد جرى تداول قصص سلبية عن العزى. ثمة قصة أمازيغية تحتوي تحذيرا يتماشى مع هذا الخط الفكري:

"إذا سرت في مقبرة ليلا، ستسمع غناء جميلا. وسواء أردت أم لم ترد، ستسير وراءه حتى تجد فتاة صغيرة الحجم سوداء لكنها جميلة جدا. ستفر منك، أولا

79- Fatna A. Sabbah (Fatima Mernissi), *Woman in the Muslim Unconscious*, 1984:104

80- Ibid. 99, 103.

81- Ibid. 103ff.

ببطء، ثم بسرعة أكبر وأكبر. وأنت مجبر على ملاحقتها وتتبعها [...]. يطول ثدياها وينتهي بها الأمر بأن تلقيهما وراء كتفيها. ثم تقفز فجأة داخل قبر ومطاردها، بقفزه وراءها، يكون مقدورا عليه أن يقفز إلى حتفه."[82]

بصيغة أخرى، إياك والذهاب حيث يمكن أن توجد العزى وغيرها من الربات؛ لأنهن سيسحبنك بلا رحمة إلى موتك.

في اليهودية والمسيحية والإسلام، جرى تمثيل الإله الواحد الخالد القدير الأعلى غالبا في شخصية ذكر. ومع ذلك، وفي الديانات التوحيدية الثلاث ظلت العناصر الدينية الأنثوية تتسلل داخلة عبر أبواب خلفية غير متوقعة.[83] في المسيحية جرى استدعاء مريم العذراء لتقوم بالدور الأنثوي المفقود، خاصة في وظيفته الأمومية. (المزيد عن هذا في الفصل الرابع)

يسوع كامرأة وأم

إن صورة يسوع كأم مشار إليها بالفعل في نصوص آباء الكنيسة المسيحية الأوائل.[84] حوالي القرن الثاني عشر أصبحت هذه الصورة ليسوع بثديين مرضعين دافئين شائعة جدا في الكتب الدينية وفي عظات عديدة يشير القساوسة الذكور إلى «المسيح يرضع أطفاله»:

"لدى العريس [المسيح] ثديان؛ خشية أن ينقصه أي شيء من كافة واجبات وألقاب العطف المحب. هو الأب بفضل الخلق الطبيعي... وأيضا بفضل السلطة

82- Ploss and Bartels, *De Vrouw in Natuur- en Volkenkunde. Anthropologische Studiën*, (s.d.) 128- 129.

83- كما يبين رافاييل باتاي بشكل مقنع في كتابه *The Hebrew Goddess*. وللتعرف على الغنوصية اليهودية المتضمنة لعناصر أنثوية انظر: Elaine Pagels, *The Gnostic Gospels*, 1989.

84- Teresa Shaw, *The Burden of the Flesh*, 1998:16- 17; Rolf Quaghebeur, *Eigenzinnige Christusvoorstellingen, over het moederschapsthema in de mystieke beeldtaal van de Middeleeuwen*.
مع شكري لإليز بوكيه Elise Bocquet التي جذبت انتباهي لهذه الأطروحة غير المنشورة.

التي توجه هي بها التعليمات. هو بالأحرى اثنان، في لين عاطفته.. ومُربية."[85]

يوحي «الخلق الطبيعي» هنا بأن الرجل هو من يعتني بالتناسل الطبيعي (كانت تلك فكرة ظلت حية بعناد لقرون، أيضا خارج المسيحية)، لكن مجاز الأم المرضعة أكمل تلك الصورة «الطبيعية». فإلى جانب الإنجاب والسلطة – دور الأب – يضطلع ابن الإله بدور الأم المرضعة. في النصوص والعظات الدينية أصبح يسوع نفسه هو الأم التي أرضعت المؤمنين. المفارقة أن الرجال العُزّاب الذين روجوا لهذه الصور الأمومية والأنثوية، كانوا قد تخلوا عن عائلاتهم واضطروا إلى الامتناع عن الاتصال بالنساء.

عملت لغتهم الشعرية كبديل روحي للعالم الذي كانوا قد هجروه، غالبا في سن مبكرة. وذلك هو السبب في أن الاتحاد مع الرب جرى تمثيله أحيانا بصور مادية أنثوية، عند الثدي المرضع أو في الرحم الآمن الحامي. ويصف بعض الرهبان أنفسهم أو أرواحهم بأنها عرائس المسيح. ولا ينبغي للمرء أن يستبعد أنه في مثل هذه النصوص كان يمكن للرجال التعامل مع توقهم الجنسي: مداعبين الثدي أو مخترقين الجسد الأنثوي في «إشارات (ربما مع إيحاءات بالرحم) لدخول الروح إلى جانب المسيح.»[86]

هناك أيضا صور بصرية ليسوع كأم. في لوحة من القرن السادس عشر بألوان فاتحة واضحة يرقد المسيح، مرتديا مئزرا، على كفن مكشوف في قبره، وحوله ثمانية أشخاص يندبونه. عيناه مغلقتان وركبتاه منثنيتان قليلا. هذا المسيح لديه ثديان، تؤكد عليهما بشكل خاص الطريقة التي انعقد بها ذراعاه، الذراع الأيسر على الأيمن. يرفع سبابته اليمنى ووسطاه قريبا من حلمة الثدي الأيسر، كامرأة على وشك إرضاع وليدها. هذه الإيماءة لها معنى مجازي: موت يسوع التراجيدي يمنح الحياة للمؤمنين ويرضعهم، بالضبط مثلما تلد المرأة طفلها وترضعه. الميت محاط بملائكة ونساء يصلين وحواريه المطل عليه يوحنا. مريم المجدلية راكعة بإخلاص عند قدميّ يسوع

85- Caroline Walker Bynum. *Jesus as Mother. Studies in the Spirituality of the High Middle Ages*, 1984:119, 122.
في العصور الوسطى كانت هناك معرفة محدودة بأصل الجنين. اتباعا لأرسطو، اعتقد الناس أن المرأة تساهم بالمادة للطفل ويقدم الرجل الأجزاء الأعلى: الحياة والروح.

86- Idem, *Holy Feast and Holy Fast*, 1982:162- 163.

إلى جوار وعاء أدويتها الفخاري. تحمل هذه اللوحة مجهولة المبدع اسم «الحداد على المسيح في القبر» وتندرج ضمن تراث من اللوحات يمثل المسيح بثديين.[87] قرب نهاية القرن الرابع عشر اختفت هذه الصورة للأم المرضعة وأفسحت الطريق لمزيد من التأكيد على معاناة المسيح وإثم الإنسان.

في ضوء الحاجة البشرية لصدر مرضع، جرى ابتكار حلول ثنائية الجنس أيضا في أجزاء أخرى من العالم. وقد مررنا بالفعل من قبل بالإله الهندي المنجب براجاباتي، لكن ثدييه المثقلين بالحليب والجديرين بالثناء كثيرا ما يشار إليهما أيضا، والكاهن المحظوظ الذي يحلب ثدييّ الإله، ينال أي شيء يطلبه. تحكي أسطورة كيف استخدم هذا الإله ثدييه الحليبيين المخلوقين حديثا:

"منح براجاباتي نفسه ثديين، حتى تتمكن المخلوقات التي خلقها من الرضاعة والعيش. قبل ذلك، كانت مخلوقاته قد ماتت جوعا لاحتياجها للبن الأم [...]. عندئذ صنع ثديين زاخرين بالحليب في مقدمة جسده. وقذف ذرية (مرة أخرى). هذه الذرية، بعد أن قُذفت واندفعت إلى الثديين، جاءت إلى الوجود هكذا؛ إنهم هؤلاء الذين لم يموتوا."[88]

من الواضح أنه يُنظر إلى الأثداء المرضعة كأعضاء لا غنى عنها من الجسد لهؤلاء الذين يريدون أن ينتجوا ذرية.

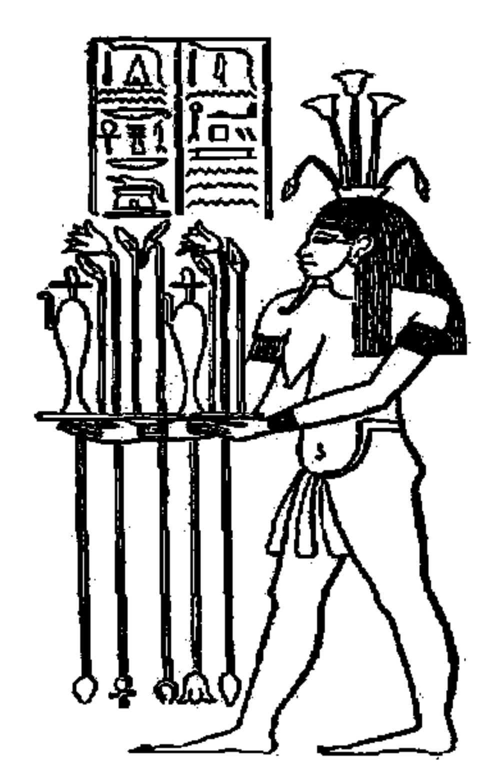
الإله المصري حابي الذي عاش في كهف قرب الشلال الأول للنيل، عند جزيرة إلفنتين، هو مثال آخر للمظهر الإلهي ثنائي الجنس. مثّل ثدياه المتدليان وبطنه الكبيرة مسؤوليته عن الفيضان السنوي لنهر النيل وخصوبة وادي النيل.

87- اللوحة جزء من مجموعة متحف مستشفى نوتردام ألا روز في ليسينيه، بلجيكا (مع الشكر للقيمة إليز بوكيه التي زودتني بالصورة. انظر أيضا:

Elaine Pagels, What Became of God the Mother? Conflicting Images of God in Early Christianity. In: Signs (2) 1976:293- 303, and
https://thequeenofheaven.wordpress.com/2011/08/17/does- god- have- breasts/.

88- Doris Meth Srinivasan, *Many Heads, Arms, and Eyes* 62- 63.

في ثقافات كثيرة يزود الآلهة الذكور أنفسهم بمميزات الجنس الآخر.[89] منذ زمن سحيق نقل الناس الإلهي الغامض إلى داخل صور تلاءمت مع احتياجاتهم ورغباتهم البشرية، بالطريقة التي يتبعها الأطفال الرُضّع النهمون، محاولين أن يتحكموا في ثدي الأم الحرون وفق إرادتهم.



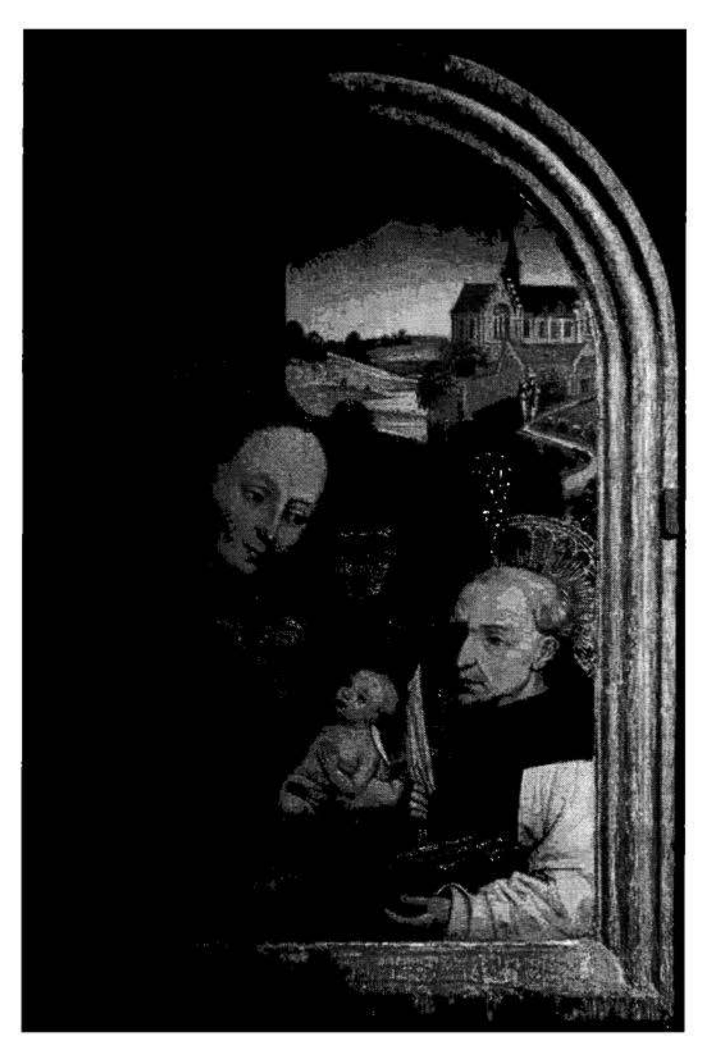
حابي، إله النيل ثنائي الجنس، مع ورق بردي وأزهار لوتس
رسم، 1903

بعد أن أزيحت أو استُبدلت الربات الأمهات، كانت أجزاء الجسد الأنثوية ووظائفه الهامة مفتقدة بشدة وبوضوح في الجسد الذكري المتخيل لبعض الآلهة الآباء. واستجابة للرغبات الذكورية، قامت الثقافات الأبوية بطريقة إبداعية بإسقاط ملامح أنثوية على آلهتهم الذكور.

في القرن الواحد والعشرين، قلبت المغنية آريانا جراندي Ariane Grande الأدوار القديمة رأسا على عقب في أغنيتها «عندما يقال ويفعل كل شيء / ستؤمنون أن الرب امرأة»[90] لكن وبعد ذلك، لماذا يكون الأمر إما إلها أو إلهة؟

89- :عن ثنائية الجنس حول العالمHermann Baumann, *Das doppelte Geschlecht*, 1955.

90- https://genius.com/Ariana- grande- god- is- a- woman- lyrics.



مريم تقاسم حليب ثديها مع (من سيُعلَن كقديس لاحقا) رئيس الدير برنارد من كليرفو.

المدرسة الفلمنكية، ± 1480.

3

الإله الأم يصبح أم الإله

يتشارك الرجال والنساء النقص بالتساوي، وحريٌّ بهم أن يتلقوا نفس التعليم ونفس النظام. لأن كلمة «البشرية» مشتركة بين الرجال والنساء؛ وبالنسبة لنا "في المسيح لا يوجد ذكر ولا أنثى".[91]

ليس مسموحا لامرأة أن تتكلم في الكنيسة، ولا مسموح لها أن تُدرّس، ولا أن تُعمّد، ولا أن تقدم [القربان المقدس]، ولا أن تزعم لنفسها نصيبا في أي وظيفة رجالية – ناهيك عن أي منصب كهنوتي.[92]

في القرنين الأوليين من المسيحية كان المؤمنون الذكور والإناث يجلسون معا خلال أداء الصلاة، لكن لم يمض وقت طويل حتى تبنت المجتمعات الأورثوذكسية العادة اليهودية التقليدية الخاصة بفصل الرجال عن النساء في الكنيس. يمثل الاقتباسان أعلاه وجهتيّ نظر متناقضتين تماما حول النساء، وهما على التوالي لإكليمندس السكندري وترتليان، وهما اثنان من آباء الكنيسة في الفترة التي تدور حول عام 180 ميلادية. مع نهاية القرن الثاني حُرم على النساء تولي مسؤولية أي أنشطة في خدمة وإدارة الكنيسة. وكانت الجماعات التي تتجاهل هذا التحريم توسم بالهرطقة.

حَمْل طاهر

ليس فقط المسيحيين، لكن المسلمين أيضا يعتبرون مريم مقدسة وسامية عن كل النساء. بل إن اسمها، مريم، يُذكر في القرآن أكثر مما يُذكر في الكتاب المقدس. ونظر

91- إكليمندس السكندري، مقتبس في: Elaine Pagels, *The Gnostic Gospels*, 1979: 87.

92- Tertullian, ibid. 81.

إليها العلماء المسلمون القروسطيون كوعاء مستعد لحمل روح الله والنبي عيسى في داخلها، دون مسار الأحداث الجنسية المعتاد. لهذا الغرض تم اصطفاؤها بفضل نسبها المميز وحفاظها الحريص على عفتها وخضوعها غير المشروط لله.

أمدت مريم العذراء المؤمنين بالثدي الأمومي المرضع والراعي. ومن وقت للآخر كان على الكنيسة أن تقمع النزعة البشرية لتأليه أم يسوع: فلم يكن مسموحا لأي أحد أن يدعوها الإلهة الأم.

بعد عدة قرون من المسيحية، نالت مريم مكانة خاصة: خلال مجمع إفسوس الكنسي عام 431 أُعلن رسميا أنها «أم الإله». والتفسير البسيط أنه إذا كان يسوع هو الإله، فإن مريم هي أم الإله. بالتأكيد لم تكن صدفة أن هذا القرار اتُخذ في إفسوس حيث كان يقع معبد آرتميس صاحبة الأثداء العديدة – وهي ربة شهيرة للغاية.

دخلت المسيحية الأولى في صراع مع ربة الخصوبة القديمة تلك التي كان الإغريق والآسيويون يبجلونها طوال قرون. في أوروبا حلت أم الإله محل الإلهة الأم. اكتسبت مريم العذراء مكانة خاصة: فهي كعذراء قد أنجبت وأرضعت ابنا إلهيا. في الكتاب المقدس ومن بين مؤلفي الأناجيل الأربعة لا يشير إلى الحمل العذري إلا متى ولوقا. في سلسلة نسب يسوع، يوسف هو أبو يسوع وفي إنجيل لوقا تدعو مريم يوسف بأبي يسوع. يعتبر المتخصصون في نقد الكتاب المقدس أن القصص التي تدور حول الولادة العذرية ليسوع أقرب للأساطير.

عبر القرون عكف اللاهوتيون المسيحيون وكبار رجال الدين على دراسة مجاز عذرية مريم. واستمر البابوات في الإصرار على أن جسد مريم كان «بكرا». وفقا للبابا سيرجيوس، في القرن الرابع الميلادي، كان يسوع سيرفض بالتأكيد مريم كأم لو أنها تلطخت بمنيّ ذَكَر. وأكد بعض العلماء الكهنوتيين أن ولادة مريم ليسوع كانت بدون ألم وبلا حبل سري، وأن غشاء بكارتها ظل سليما خلال ولادة يسوع.

ورغم أن بعض اللاهوتيين، خصوصا البروتستانت، خالفوا هذه النتائج؛ إلا أن

مذهبيّ الروم الكاثوليك والأورثوذكسية الشرقية تمسكا بعذرية أم يسوع.[93]

تأتي أقدم صور مريم العذراء مع طفلها يسوع على صدرها من التراث القبطي في مصر. وقد استلهمت بوضوح مثال الربة إيزيس وهي ترضع بمحبة ابنها حورس.

كثيرا ما كانت تُصوَّر إيزيس بعرش على رأسها؛ فاسمها يعني شيئا من قبيل «كرسي العرش». ومن ثم أصبح يُنظر إلى ابنها باعتباره الملك الشرعي. وكان الملوك المصريون يحبون أن يتم تصويرهم على صدر أو في حِجر إيزيس أو ربة أخرى، كدليل على أنهم امتصوا مع اللبن الإلهي أيضا القوىَ والمكانة الإلهية لمرضعتهم القوية.[94] عرف الناس في كافة أنحاء منطقة المتوسط قصة إيزيس وقد جرى اكتشاف واستخراج الكثير من التماثيل الصغيرة الممثلة لها كمرضعة إلهية ويمكن رؤيتها في المتحف المصري في القاهرة وفي كل أنحاء أوروبا. فقط بعد أن أصبحت المسيحية هي الديانة الأقوى في روما تم حظر معابد إيزيس في المدينة. كانت صورة المادونا مع الطفل تستدعي نفس مشاعر الشفقة التي كانت تثيرها الإلهة الأم المصرية مع طفلها. بفضل صورتها الأمومية أصبحت مريم ذات شعبية بالغة وسط المسيحيين: أم بشرية مع يسوع الطفل الإلهي صورة اجتذبت الجميع؛ متعلمين أو أميين، أغنياء أو فقراء.

ماريا لاكتانس

أم الإله المرضعة (كثيرا ما يشار إليها في اللغة اللاتينية باسم Maria Lactans / مريم المرضعة) ألهمت العديد من القصص وأصبحت موضوعا هاما في الفن الأوروبي. في صور شهيرة عديدة، تتقاسم مريم حليب ثديها مع (من سيُعلَن كقديس لاحقا) رئيس الدير برنارد من كليرفو. في عدد من اللوحات والرسومات يجثو على ركبتيه في رداء ديني أبيض وتتبدى العذراء أمامه وهي ترضع صغيرها. وفقا للقصة، تبعد يسوع الصغير عن ثديها فجأة، وتنطلق دفقة من حليب ثديها في قوس إلى شفتيّ

93- Uta Ranke- Heinemann, *Eunuchs for the Kingdom of God. Women, Sexuality, and the Catholic Church*, 1990:32 and 340ff.

94- More in Baring and Cashford 250; Yalom 11- 12.

رجل الدين لتروي ظمأه. وفي بعض الصور تستقر دفقة الحليب على جبهته لكي تُبين أن الأمر كله يتعلق بالغذاء الروحي.

بعض تماثيل مريم في أماكن الحج ترسل ماء مقدسا من ثدييها المقدسين، حتى تتقاسم بكرم القوى الشافية لأم الإله مع الحجيج. من (نافورة مريم)، في النمسا، ذات الجانبين المزدوجين؛ ينبع الماء الشافي من أربعة أثداء في نفس الوقت.

لقد حظيت مريم ومازالت بمكانة مفضلة، كما يتضح من القصص الكثيرة التي يحكيها الناس عن ظهورات مريم التي شَهدوها. وقد قامت مجلة ناشيونال جيوجرافيك برسم خريطة لكل هذه الظهورات، سواء تلك التي أثبتها الفاتيكان أو تلك التي رفضها.[95]

في أوروبا هناك تجليان شهيران لمريم واحد عام 1858 في بلدة لورد الفرنسية والآخر عام 1917 في مدينة فاتيما البرتغالية، لكن قبل أكثر من ثلاثة قرون كانت قد ظهرت بالفعل في مكسيكو سيتي عام 1531 متجلية لخوان دييجو؛ وهو هندي فقير تم إعلانه قديسا بعد وقت متأخر جدا عام 2002. وقد تم بناء كاتدرائية لعذراء جوادالوب، كما يُطلق على أم الإله هناك، في موضع الظهور – وهو مكان يزوره عشرون مليون حاج كل عام.

الديني يصبح دنيويا

الرمز يجعل أي واقع غير مرئي سهل المنال، لكن الرموز مثل البشر؛ تبدأ ناضرة، وتحظى بزمن زاهر، وتدريجيا تفقد قوتها، وفي النهاية تفقد معناها. وهذا ما حدث، ببطء لكن بثقة، لرمز ثدي مريم العاري؛ وهو رمز ديني في العديد من الأعمال الفنية في القرون الوسطى وفي عصر الحداثة المبكرة، في لوحات وكذلك في منحوتات. ورغم أن تمثيلات الثدي الأمومي قد نُسجت بإحكام داخل شبكة ثقافية متسقة، إلا أن تغيرات غير ملحوظة لوثت البنية الرمزية لذلك النسيج الصلب، كما توضح مارجريت مايلز Margaret Miles في كتابها بهجة معقدة (2008) *A Complex Delight*.

95- http://ngm.nationalgeographic.com/201512//virgin- mary- text

بعد دراسة مئات الصور لمريم وهي ترضع طفلها، لاحظت معنى ووظيفة متحولين لأثداء النساء في أوروبا الغربية أثناء عصر الحداثة المبكرة – معنى يتطور بوضوح من وجهات النظر الدينية إلى تلك العلمانية:

"في المجتمعات الغربية زمن الحداثة المبكرة والتي كانت فيها المسيحية هي الديانة المهيمنة، كان ثديها العاري الظاهر في اللوحات والمنحوتات يدل على التغذية والاهتمام المحب – مدد من الله للمسيحي، الذي يحتاج دائما إلى فضل الله. علاوة على ذلك، بإشارته إلى المتعة الأولى لكل بشري، كان الثدي يشير إلى و "يكشف" الواقع الأكبر لمؤونة الحياة الكونية ورزق الحياة. أما تقبل المؤمن وسروره وامتنانه الذي يعبر عنه باستجابات لائقة، فتذكر المشاهدين باللحظة التأسيسية لوجودهم."[96]

من القرن الرابع عشر إلى القرن الثامن عشر جرى تصوير الأم العذراء مريم كثيرا بثدي واحد عار ترضع المسيح طفلا. يتماشى الثدي مع الحركة التي تخرج بها الأمهات، دون حرج، أحد الثديين ليطعمن صغارهن، سواء في البيت أو في المجال العام. بفضل ثدي مريم المرضع الذي لا غنى عنه بعد ميلاده، تمكن يسوع لاحقا من منح حياته لإنقاذ العالم. هكذا، بمعنى ما، تساوى حليب مريم العذراء بدم ابنها يسوع.

هذا المعنى الديني بعمق كان مرتبطا بخبرة يومية مألوفة للجميع.[97] كانت أم الإله كثيرا ما يُنظر إليها كوسيط: فقد توسلت مع ابنها الإلهي لصالح مصير البشر الفانين الذين كانوا يخشون يوم الحساب. وفي بعض القصص خفف ثدياها حتى حاجات هؤلاء الذين ماتوا بالفعل. في إحدى اللوحات الإيطالية لفيلوتيس ديل آماتريتشي Filotes dell"Amatrice (1506)، تقف مريم ويسوع على ذراعها الأيمن عاليا فوق المطهر وتترك اللبن من ثدييها يتساقط على الأرواح العطشى داخله.

في صور مبكرة يبرز ثدي ضئيل عادة من فتحة صغيرة في ثوب مريم الملكي أشبه

96- Miles, 2008:ix.

97- Saxon, Elizabeth, *The Eucharist in Romanesque France: Iconography And Theology*, 2006: 205- 207.

بكرة بلياردو صغيرة، وكثيرا ما يكون موضعه عاليا بشكل غير ملائم على كتفها. وحتى وقت بعيد من القرن الخامس عشر كان المؤمنون يربطون ثدي مريم الواحد العاري بأمومتها العذراء:

> "لم يكن هناك مزيد من اللحم العاري ضروريا إطلاقا ليحيط بهذا الثدي الواحد المرضع – كان ثديا وقورا وليس حسيا، والثياب التي ترتديها العذراء في كل الأشكال الفنية لأوائل القرن الخامس عشر كانت وقورة كذلك. كانت هذه العباءات شبيهة بنوع من الثياب مستخدم بالفعل، لكنها كانت أكثر غنى وحرفية من الأغراض الكهنوتية في الفن."[98]

في عام 1350 كان ثدي الأم المرضع رمزا دينيا في أوروبا، لكن قبل عام 1750 لم يعد ذلك المعنى الرمزي مفهوما، بفضل الإثارة الجنسية والطبيعة الطبية المتزايدتين لهذا الجزء من الجسد.

منذ وقت مبكر يعود إلى القرن الخامس عشر، كان الناس قد بدأوا في تكييف أجسادهم للشروط الجديدة لزمنهم، بكل أنواع الوسائل المصطنعة. بدأ الرجال والنساء ينمقون خطوط أجسادهم بعظام حيتان وحشوات محسنة للشكل، طبقا للقواعد الجمالية السائدة. أصبحت مشدات الخصر موضة العصر وجرى تقييد الأثداء أو رفعها إلى أعلى.[99] لم تُحفظ تعليقات النساء في ذلك الزمان، ولا يجري تقديم وجهة النظر المتغيرة حول الثدي الأنثوي بالكلمة والصورة إلا من خلال وجهة النظر الذكورية، تماما كأغلبية الأساطير المتعلقة ببدايات البشرية.

بأزرار مغلقة

تدريجيا حدثت ثلاث تغيرات في اللوحات المرسومة للأثداء، كما اكتشفت مارجريت مايلز في كتابها الفاتن بهجة معقدة (2008). أولاً جرى تصوير الثدي بدقة أكبر وأكبر وأدت الآثار العاطفية والإيروتيكية المتزايدة إلى استثارة خوف رجال الدين

98- Anne Hollander, *Seeing Through Clothes*, 1978:187.

99- كما هو مبين في معرض La Mécanique des Dessous بمتحف الفنون الزخرفية بباريس، 2013.

من الإثارة الجنسية. أصبح القساوسة الذكور في المناطق الكاثوليكية واعين بأن الصور الواقعية على نحو متزايد لم تعد تنتج نفس المعنى التام. لا عجب إذًا أنه في ديسمبر 1563 رفض مجمع ترينت بمدينة تورينتو الصور الواقعية للعذراء المقدسة المرضعة باعتبارها غير لائقة. علاوة على ذلك، منذ نهاية القرن الخامس عشر، لم تكن الأثداء الأمومية التوراتية هي الأثداء الوحيدة التي يتم رسمها أو نحتها.

فإلى جانب ثديي مريم العذراء، لعبت الأثداء دورا في موضوعات توراتية أخرى – مثل التمثيلات التصويرية لقصة الشيوخ وهم يسترقون النظر لسوزانا المستحمة – وفي موضوعات كلاسيكية تراجيدية مثل انتحار لوكريشا بعد أن أصبحت ضحية للاغتصاب. ثمة مثال من القرن السابع عشر هو لوحة «الابن المسرف» للفنان الهولندي يوهانز بايك Johannes Baeck، وهي لوحة تعبر عن الانحطاط الأخلاقي لشاب تقبض يده باستهتار على ثدي عار لامرأة.

ثمة لوحات أخرى حول موضوعات توراتية ضمن هذا التصنيف تقدم زوجة بوتيفار وهي تحاول إغواء يوسف العبد البريء بثدييها. وكان التأكيد على الدرس الأخلاقي للعفة يخفت شيئا فشيئا:

> "قبل بداية القرن السابع عشر، قدمت الأثداء العارية صورا إيروتيكية بصراحة، رغم أنها كثيرا مازالت ذات ضمانة إنجيلية [...]. وفي القرن الثامن عشر، كان كثيرا ما يتم رسم أثداء دنيوية دون عذر، أكبر وأكثر استدارة من قرن مضى."[100]

يُلاحَظ تغير ثالث في بدايات الفن الحديث أنه، وعن عمد، لم يعد يُصوَّر ثدي واحد فقط بل الثديان؛ سواء مؤطرين بفتحة عنق ثوب واسعة أو لا. كانت هناك شخصية انتقالية في ذلك التطور هي مريم المجدلية: حيث اجتمع الخير والشر معا في جسدها ذي الطابع الجنسي كعاهرة سابقة، «المرتحل ما بين الخاطئة التائبة وعاملة الجنس الإيروتيكية». ثمة تمثال لدوناتيللو يخبئ فيه ثدييها بعفة خلف شعرها الطويل، لكن في لوحة تيتيان تبدو الحلمتان مرئيتين بوضوح عبر شعرها الطويل.[101]

100- Miles 8- 9.

101- Miles 11- 13.

في النصف الثاني من القرن الخامس عشر أصبح الديكولتيه (تقويرة الفستان) موضة في أوروبا، بفضل أجنيس سوريل Agnès Sorel، حسناء زمانها الشهيرة. كان قد ذاع صيتها كعشيقة لملك فرنسا شارل السابع. في لوحة لا تحمل توقيع راسمها نراها مرتدية فستانا أسود طويلا وحجابا شفافا، وعيناها تنظران إلى أسفل في تقوى. من فستانها الطويل ذي الصديرية المفكوكة شرائطها يخرج ثدي واحد عارٍ، رغم أنه ما من طفل هناك على حِجرها. وبدلا من ذلك تمسك في يدها كتابا تضع إصبعا بين صفحاته، بما يوحي أنها كانت تقرأ بالفعل فيما كانت تنتظر الرسام.

في عام 1481 كانت عاهرة البلاط الشهيرة تلك أيضا تقف كموديل أمام الفنان جان فوكيه من أجل لوحته *La Vierge de Melun* *عذراء مولن*. رسمها بنفس النظرة المطرقة بورع، متوجة ومحاطة بالملائكة، لكن هنا جرى استبدال الكتاب بيسوع الرضيع عاريا. يجلس إلى جوارها مباشرة، بحيث تكون تقويرة فستانها المنخفضة جدا بثديها العاري الواحد مباشرة في مجال الرؤية.

لا شك أن هذه اللوحة قد صدمت المتفرجين في ذلك الوقت، حيث كانت تعارض القاعدة غير المكتوبة بأن لا بد للفنان أن ينقل معنى دينيا للمؤمنين:

> "[...] على عكس العادة في التصوير، ترتدي [آجنيس سوريل] صديرية عصرية ضيقة ولها فتحة صدر منخفضة عميقة، مفكوكة بتفاخر لتطلق سراح ثدي أبيض كبير فائق الجاذبية. يندلع هذا الثدي خارجا من محبسه بينما الآخر، الواضح بنفس القدر تحت الثوب، مستسلم لانضغاطه مع تأثير مثير جنسيا بنفس القدر."[102]

عكست مثل هذه اللوحات الانتقال من الصور الدينية – التي لم تضع أي غرض جمالي في المقام الأول – إلى «الفن من أجل الفن».

قدمت سوريل طرازها الجديد في الثياب مع ثدي واحد عار أو الثديين عاريين إلى البلاط الفرنسي حوالي عام 1450. وقد حذت نساء كثيرات حذوها، كما يمكن أن نرى في لوحات أوروبية أخرى، بورتريه *سيمونيتا فيسبوتشي*_Simonetta Vespucci_

102- Anne Hollander 1978:187- 8.

للفنان بييرو دي كوزيمو Piero di Cosimo مثال شهير.

بدأت الصورة الطبيعية السابقة تُحدث شقوقا، وانتهت رمزية ثدي مريم الأمومي العاري التي حظيت بإعزاز وتقدير لزمن طويل إلى وجهتيّ نظر متعارضتين. من ناحية انحط الجسد الأنثوي ليغدو موضوعا للشهوة، ومن ناحية أخرى جرى تحاشيه بسبب اعتبارات العفة. ونتيجة لهذا جرى توصيف الثدي إما بأنه «شرير للغاية» أو «طيب للغاية». ومن الآن فصاعدا تأرجحت الأثداء التي من لحم ودم بين هذين الطرفين المتناقضين، والنساء السائرات بأثداء مكشوفة جرى تجنبهن كمغويات شريرات أو امتداحهن كسيدات مريميات تقيات عفوفات. أصبحت الأثداء معيارا اجتماعيا يتم به الحكم على وجود عفة النساء، أو افتقادهن لها.

بعد قرن من اختراع الطباعة (حوالي عام 1440)، غرقت أوروبا في الأدب الإباحي المصور.[103] وبحلول القرن السابع عشر كان الجسد الأنثوي منتشرا في عدد كبير من كتب النصوص الطبية، كما نرى على غلاف كتاب فيزاليوس Vesalius (1514-1564) الشهير عن التشريح البشري؛ حيث يُظهر جسدا أنثويا يجري تشريحه وسط عدد هائل من المتفرجين الذكور.



103- قارن بكتاب مايلز ص 132: «لم يسفر بحث في أرشيف آرت ريسورس في نيويورك، وهو أكبر مجموعة صور في أمريكا الشمالية، عن صورة واحدة للعذراء بثدي واحد عارٍ بعد عام 1750.»



آندرياس فيزاليوس، بنية جسم الإنسان. صفحة الغلاف، 1543.

بفضل الصعود السريع للتصوير الإباحي (البورنوغرافيا) وتطور البحث الطبي، فإن تلك الأعضاء من الجسد التي تزين فقط الجسد الأنثوي أصبحت مواضع انتباه خاصة. في الفترة السابقة مباشرة على الثورة الفرنسية كانت الطبقة الوسطى الصاعدة تنتقد وجها لوجه الاستعراض الأرستقراطي الأسبق للفساتين الفاخرة وفتحات الصدر الواسعة. في القرن الثامن عشر أصبحت البورجوازية أكثر إفراطا في الاحتشام.

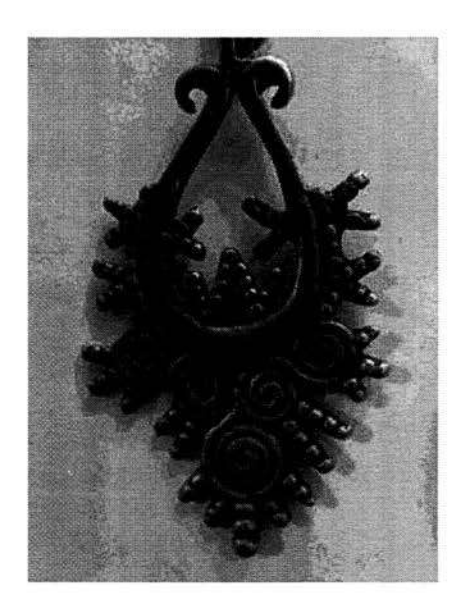
وماذا حدث لمريم؟ كأم للإله كانت في الأصل رابطا لا غنى عنه بين الإله الأب والرجال والنساء العاديين المخلوقين من لحم ودم. في كل مكان قام الناس بإسقاط اللون المحلي عليها. في أوروبا أضفى عليها الفنانون ملامح بيضاء وغربية: عينان زرقاوتان، خدان ورديان أو حتى شعر أشقر. وفي قارات أخرى بدأ الفنانون المحليون يمنحونها أكثر وأكثر لون البشرة وشكل العين وملامح الوجه والثياب لدى المؤمنين في منطقتهم؛ حتى يتمكن الناس من التماهي معها بشكل أسهل. في إفريقيا وأمريكا اللاتينية صارت ببشرة أغمق. وفي شرق آسيا بدت أشبه بجوانين؛ ربة الرحمة الطيبة والعطوف، بينما في فيتنام أصبحت مشهورة باعتبارها «سيدة لا فانج» مرتدية (آو داي)؛ الثوب الفيتنامي الوطني للنساء. فقد تجلت مريم في منطقة لا فانج عام 1798 مرتدية هذا الزي الفيتنامي للمؤمنين الذين كانوا قد فروا إلى الأدغال، عندما كان الإمبراطور الفيتنامي يطارد المؤمنين المسيحيين، بعد أن قتل بالفعل كثيرا منهم.

مع الوقت وزع المبشرون الروم الكاثوليك الأوروبيون ملايين الصور التعبدية لمريم حول العالم. تمتلك هذه الصور ملمحا مشتركا ملفتا: لم تعد أم الإله تُرضع طفلها يسوع على الإطلاق. وهي ترتدي فستانين مغلقة الأزرار باحتشام، بما يتفق مع مرسوم مجمع ترينت (1563) حيث قرر الأساقفة الحاضرون أن تمثيلات ثدي مريم المرضع تستحق اللوم وطالبوا بوجوب إخفاء ثديها الأمومي من الآن فصاعدا. وفي كل مكان قامت العذراء المقدسة ذات الأزرار المغلقة بالكامل بمحو فعال للصورة المألوفة فيما مضى والمفهومة جيدا للقديسة مريم كأم مرضعة.

الجزء الثاني

مرغوب ومرهوب









الأعلى: حليّ الخصوبة، الفرج والرحم. جزيرة فلوريس، إندونيسيا.
الأسفل يمينا: حلية قلادة، مثلث جلدي مع صدفة خصوبة. دوجون، مالي، القرن العشرون.
يسارا: نذر فرج روماني من الطين النضيج + 200 ق. م – 200 بعد الميلاد.

4

بوابة الحياة

غير المسمى هو بدء السماء والأرض.
المسمى هو أم عشرة آلاف شيء.
دون رغبة أبدا، يمكن للمرء أن يرى السر.
برغبة دائمة، يمكن للمرء أن يرى التجليات.
[...] ظلام في ظلام.
البوابة المؤدية للسر كله.[104]

يا أم العيد، حجر صغير في فرجك.
أُوو! أُوو! العمود الرأسي للبظر، الفرج. أُوو-إي-إي!
يا قضيب. يا قضيب! المهبل يناديك.[105]

في عمود صحفي خفيف الدم تعجب فريتس أبراهامز Frits Abrahams عن حق من اللغة السلبية المشيرة إلى الجهاز الجنسي الأنثوي في منطقته من العالم. لقد جرى بالفعل اختزال العضو الذكري إلى زائدة لا حول لها ولا قوة، والآن ها هي الأعضاء الجنسية التناسلية الأنثوية قد بدأت رحلة سقوطها السلبي. في اللغة الهولندية يُسمى أي يوم سيء بـ «يوم الفَرْج». « الفَرْج لا شيء، الفَرْج عاجز، الفَرْج شيء سيء للغاية». لاحظ فريتس أن النساء يستخدمن هذه العبارة السلبية عن أحد

104- *Tao- te ching*, chapter I:5.

105- E. E. Evans- Pritchard, Some Collective Expressions of Obscenity in Africa, 1929:323.

أجزاء جسدهن بنفس الطريقة اللامبالية التي يستخدمها بها الرجال. علاوة على ذلك، بقدر ما تذكّر، كان التعبير الأكثر انحطاطا على الإطلاق «supercunt» (والذي يعني الفرج الفائق ويستخدم لوصف شخص مزعج بشكل استثنائي – المترجم) مستخدما من قبل النساء فقط.

لقد حان الوقت للدفاع عن هذا الجزء المهان ظلما من الجسد، الممر المؤدي إلى الحياة بالنسبة للبشرية جمعاء. سيقوم هذا الفصل باستكشاف الفرْج عن طريق إزاحة بعض الحجب التي تخفيه عادة عن الرؤية.

اللغز

على عكس الصراحة الوقحة أحيانا عن الجنس في حاضرنا، لم تكن جدتي تتحدث بتاتا عن ذلك الموضوع: كانت الكلمات ببساطة عاجزة عن التعامل مع هذه الظاهرة المثقلة بالحمولات. مرة واحدة فقط في حياتها وبتردد كبير أشارت إلى المهبل باعتباره «اللغز». بتحفظها ذاك في مواجهة لغز بوابة الحياة كانت جدتي تنحاز بنفسها، دون أن تكون واعية بهذا، إلى تراث طويل من الثقافات حول العالم: الاعتقاد بأن هذا الممر المؤدي إلى الحياة يمتلك قوى مجهولة.

في أنحاء مختلفة من العالم كان يُعتقد أن النساء قادرات على حماية عائلاتهن أو الجماعة كلها من الكوارث المهددة بفضل هذا السر الخفيّ، السر القادر على إطلاق قوى مجهولة عند كشفه. هذه الفكرة المتعلقة بأنه حتى مجرد تميمة بهذه الصورة يمكنها أن تطرد العدو مذعورا وأن تحمينا جميعا من الشر، تأتي من اعتقاد أقدم بكثير في أن الحيوانات ستفر والكوارث الطبيعية ستهدأ وخصوبة الناس والحصاد الطيب مكفولان بفضل امرأة أو عدة نساء يجرؤن على كشف أعضائهن الجنسية المهيبة أمام سماء جافة أو حقول مجدبة أو بحار هائجة أو أعداء خطرين.

قد تبدو هذه العادة بذيئة بالنسبة للأغراب المعاصرين، لكن كلمة مشين/obscene تتضمن معنى «مشؤوم/inauspicious»، وفي أوقات الخطر اعتاد جزء كبير من البشر أن يمارسوا هذا الطقس خلال الانتقال التاريخي من الصيد إلى الزراعة. وتوفر الأنثروبولوجيا أمثلة عديدة. كان الكشف العمدي والعلني لأعضاء المرء التناسلية

المغطاة عادة يُعتبر فعلا جليلا لشجاعة استثنائية، ولا يُطبَّق إلا في مواقف شديدة: «في الأوقات العادية يكون غير العادي محظورا، لكن في الأوقات غير العادية تُؤدَّى الأشياء غير العادية لاستعادة طبيعة الأمور العادية.»[106]

في الصين القديمة كان الناس الذين يقدرون على ذلك يرتدون ثيابا مغطية للجسد، ولم يكونوا ليُظهروا عريهم قط في المجال العام، لكن في أوقات الجفاف الخطير كانت الكاهنات يتعرين بشكل طقسي ويتعرضن لحرارة الشمس من أجل استدعاء المطر. في الحقيقة، كانت القوة السحرية تُنسب إلى الجسد الأنثوي العاري:

> «حيث كان التجسيد النهائي لشعب الين ينسب للعضو التناسلي الأنثوي المكشوف علانية القدرة على إبادة كل اليانج. وفي الحالات الطارئة كان الجنرالات الصينيون يلجأون إلى عاهرات عاريات كي يسكتوا مدافع أعدائهم.»[107]

كان ردع العدو بفضل كشف الأعضاء التناسلية يُمارَس أيضا في أجزاء أخرى من العالم. بكشفهن لفروجهن على الملأ في الظروف الدراماتيكية وقفت النساء كضمانة لرفاهية عشائرهن. في أوقات الحرب، كما يبدو من الأمثلة التاريخية، كان تأثير هذا التهديد القاتل مضاعفا: حيث كان يشعر الجنود في جانب هذه الممارسة بالتشجيع، بينما كان هذا المنظر نفسه يشل الخصوم.

كان كشف الجسد (الأنثوي) العاري في الصين، كما وثقه إدوارد شافر Edward Schafer في دراسته «الكشف الطقسي في الصين القديمة»؛ وهي ورقة طويلة في مجلة هارفارد للدراسات الآسيوية، حدثا نادرا، مليئا بالقوة السحرية. كان الغرض من تعري الكاهنات خلال أوقات الجفاف هو استدعاء المطر. وفقا لفكرتي الين واليانج الصينيتين: كانت طاقة الين العارية للكاهنة تبطل طاقة اليانج التي لدى الشمس المحرقة، أو (في تفسير آخر) لأن العري يحرج تنانين المطر ويدفعها إلى الفعل.

106- E. E. Evans- Pritchard, Some Collective Expressions of Obscenity in Africa. In: *The Journal of the Royal Anthropological Institute of Great Britain and Ireland*, 1929:323.

107- Wilt Idema, Bespied in bad, p.31 in *De Boekenwereld* 2017; Edward H. Schafer, Ritual Exposure in Ancient China, *Harvard Journal of Asiatic Studies* 14-1184 - 130 :(1951) 2/.

يمكن العثور على فكرة القوة الحامية للأعضاء التناسلية الأنثوية في قصص وصور أخرى. في آيرلندا، مثلا، كانت النساء اللاتي يرفعن أو يخلعن تنوراتهن قادرات على إخافة الأعداء وطردهم بفضل عضو جنسي مكشوف بفظاظة.[108] هكذا ساعدت الأعضاء التناسلية الأنثوية في المجتمعات الأولى – ووفقا لمصادر عديدة حتى أسبق من الأدوات الذكورية – على استحضار القوى الشريرة أو التأثيرات السلبية، أو على تهدئة الكوارث الطبيعية أو على السخرية الصريحة من العدو.

في وقت أقرب، وفي دلتا النيجر الإفريقية قاربت النساء تلك اللعنة القديمة خلال احتجاج النفط في يونيو 2002 – ونجحت. في سياق التقليد الموروث بأن «كلنا نجيء إلى العالم عبر المهبل» كان يكفي كشف الفرج في صمت؛ لأن هذه الإيماءة الصامتة كانت تتضمن رسالة قوية: «بهذه الطريقة نسترد الحياة التي منحناها لكم.» كانت هذه اللعنة تعاقب الرجال على الملأ بالإعدام الاجتماعي وتعتبرهم أمواتا: لأنه من الآن فصاعدا سترفض كل النساء أن يطبخن لهم أو أن يتزوجن منهم أو يقمن بالعمل معهم. هنا، كما في الأيام الأقدم، أثبتت «لعنة العري» أنها سلاح أنثوي هو الأكثر فاعلية لدرء البؤس والكوارث.[109]

في شمالي أوروبا هناك أمثلة لمنحوتات لشخوص أنثوية بفرج مفتوح. تُسمى هذه الشخوص في بريطانيا العظمى وآيرلندا باسم شيلا–نا–جيج. وكان يُعتقد أن هذه الصور تخدم أغراضا مشابهة، أي تفادي الموت أو الشر عن طريق مهبل مفتوح على اتساعه. كما كانت الأعضاء التناسلية والعري من أقوى الوسائل لدرء الشر في أجزاء من آسيا أو جزر أوقيانوسيا. في بالاو، وهي دولة جزيرة في المحيط الهادي، جرى تثبيت تماثيل أنثوية خشبية على مدخل بيت أحد الزعماء: وقد استقرت أياديهن على الأفخاذ، وكشفت السيقان المتباعدة عن فروج وبظور ملفتة للانتباه مميزة بمثلث غامق. هذه التماثيل، المدعوة (ديلوكاي)، كان مقصودا بها حماية صحة وخصوبة الناس، وضمان حصاد طيب، وصد الأرواح الشريرة.

108- J.Moreau. Les guerriers et les femmes impudiques. In: *Mélanges Henri Grégoire*, III, 1957:283ff.

109- مزيد من المعلومات في كتاب (المكشوف والمحجوب) ص 36

إن منحوتات شيلا-نا-جيج الأوروبية أعلى البوابات أو النوافذ وكذلك التماثيل الخشبية الأنثوية ذات السيقان المفرودة فوق مدخل بيت الزعيم في قرى أرخبيل بالاو كانت تمثل الفرج باعتباره «البوابة الأصلية، الفاصل الغامض بين العدم والحياة.»[110]

التهديد المظلم

تقدم القصص الأسطورية مشاهد تكشف فيها «إلهة الفحش» أجزاء جسمها الحميمة في رقصة طقسية خلال أوقات الأزمات. كانت إلهة «الفحش» تمثل دورة الحياة المقدسة من الموت والخصوبة. هناك مثالان: في إحدى الأساطير اليابانية القديمة هناك سوسانو، شقيق إلهة الشمس، وكان عنصرا مزعجا في مملكة الآلهة. غضبه يجعل الأرض وافرة الخضرة تذبل، وبذلك يهدد حياة البشر. يقرر والداه، الإلهان الخالقان إيزاناجي وإيزانامي، أن ينفيا هذا الابن الأخرق إلى (أرض يومي السفلية).

قبل رحيله يُمنَح سوسانو زيارة أخيرة إلى أخته الأكبر أماتيراسو، إلهة الشمس. وبمجرد صعوده إلى (مستوى السماء العالية)، يتسبب في اضطراب عنيف للبحر وأنات تصم الآذان من التلال والجبال.

عند وصوله قام بتدنيس (قاعة النسيج) المقدسة حيث تُنسج ثياب الآلهة. والعواقب كارثية. غاضبة تلم إلهة الشمس أرديتها المتلألئة حول جسدها، وتدخل كهفا، وتسد مدخله بصخرة للتأمين، وتختبئ غاضبة في عزلة. وفجأة يبتلع الظلام الخانق كل ضوء للنهار. وعالم بلا ضوء نهار هو كارثة قاتلة تهدد الحياة كلها.

ما العمل؟ تتساءل الآلهة عن كيفية إقناع أماتيراسو بأن تُظهر نفسها مرة أخرى بكل بهائها الوضّاء. وأخيرا، تقوم إلهة الحيرة السماوية بالمهمة: أثناء رقصها في نشوة تخرج ثدييها وبعد ذلك تُنزل ثوبها إلى أسفل فرجها. تضج الآلهة المجتمعة بالضحك، ضحك منطلق يوقظ فضول أماتيراسو. وبمجرد أن تفتح باب الكهف

110- Juliette Dor, The Sheela- na- Gig: An Incongruous Sign of Sexual Purity, in Bernau, Evans and Salih 2003: 33- 55; Bertling 96ff; Mircea Eliade in the *Encyclopedia of Religion*: http://en.wikipedia.org/wiki/Sheela_na_gig#cite_we- 14.

بشكل موارب بحيث يخرج ضوؤها الإلهي مرة أخرى، يأخذ إله القوة تاجيكاراو بيدها ويجعلها تظهر كاملة. تصطف كل الآلهة وراءها، حتى لا تستطيع العودة إلى الداخل. وعلى الفور يسطع ضوء الشمس مرة أخرى في السماء وعلى الأرض كذلك. يعاقَب سوسانو وتجري الحيلولة دون نهاية البشرية.(111)

في الميثولوجيا اليونانية تحدث واقعة مشابهة. تقوم إلهة الزراعة المنتحبة والغاضبة ديميتر بلعن الأرض الخصبة بعد أن يخطف إله العالم السفلي ابنتها المحبوبة بيرسيفون. بسبب هذه اللعنة لم يولد مزيد من الأطفال، ورفضت حبوب الحنطة أن تنمو، وتوقفت الزهور عن التفتح، وفقد الناس إيمانهم بالآلهة. بعد جولات كئيبة عبر الأرض، تنهار ديميتر قرب بئر، حيث تمر باوبو في طريقها. تنجح هذه الشخصية الغامضة في جعل الربة تضحك من جديد. هل كانت إلهة أم قابلة عجوز أم، ربما، مربية ديميتر السابقة؟ هناك آراء مختلفة. يعني اسمها باوبو «الحِجر» أو «البطن»، وكانت تجسد النشاط الجنسي وتظهرها الصور بفرج مرتسم على ذقنها أو ظاهر بوضوح بين ساقيها المفرودتين. وتجذب إيماءاتها الموحية الانتباه إلى أعضائها التناسلية العارية، أو تضع يدها هناك. كي تبهج ديميتر، قامت باوبو بحلاقة منطقة عانتها وتبدأ في الرقص بثديين متأرجحين وفخذين متلويين بما يوحي بالجنس. تدور هذه القصة بأكملها حول إلهة الزراعة: فغضب ديميتر يهدد مستقبل الإنسانية. في القصة اليونانية كما في القصة اليابانية، كشف الفرج هو الطريقة الوحيدة لإبطال السحر.(112)

111- F. Hadland Davis. Myths and Legends of Japan 1912;
أصل هذه القصة اليابانية من كتاب الكوجيكي أو سجلات الأمور القديمة (ترجمه من اليابانية إلى الإنجليزية باسيل هول تشامبرلين عام 1882). بأمر الإمبراطورة جيميو جرى أداء هذه القصة القديمة والطويلة جدا عام 712 بواسطة رواية عجوز كانت تحفظها عن ظهر قلب. وعندئذ جرى تدوينها لأول مرة.
Cf. Nobuhiro Matsumoto. Essai sur la mythologie japonaise, 1928 and Pierre Lévêque, Colère, sexe, rire. Le Japon des mythes anciens, 1988 .

112- وُجدت صور وتماثيل باوبو في أماكن كثيرة، وبشكل أساسي في أماكن يونانية. مع الشكر للزميلين في جامعة ليدن إنيكه سلويتر وجون ميجيل فيرسلويز Ineke Sluiter and John Miguel Versluys على معلوماتهما الشخصية عن باوبو.



ديميتر على العرش، مع عرانيس ذرة وخشخاش ومشعل.
آنية خزفية كورينثية، أواخر القرن الخامس ق. م.

خلال المهرجانات الاحتفالية بديميتر، كان الطقس السري الرئيسي متاحا فقط للنساء. وكانت الكعكات التي تؤكل هناك على شكل الأعضاء التناسلية وكانت النساء يسلين بعضهن البعض بحكي النكات الفاحشة خلال وجبة مع الكثير من النبيذ. وكان احتفال باوبو ختاما لطقوس الخصب الاحتفالية.[113]

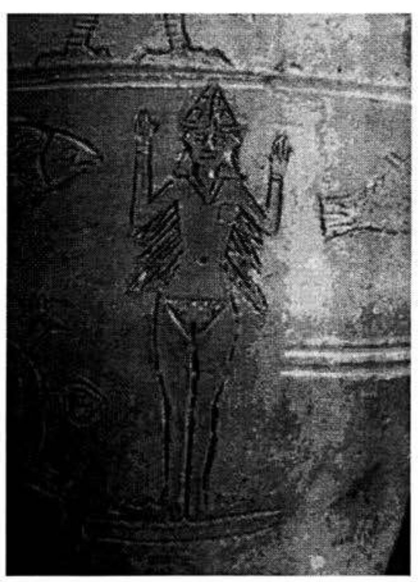
في السياقات الزراعية كان الفحش يعمل على «إعادة إحياء» الخصوبة. في الميثولوجيا اليابانية واليونانية كانت الإيماءات الفاحشة جزءا من الإيمان القديم بسحر هذا الجزء الجسدي الحيوي. كان يُنظر إلى هذه الإيماءة العارية كإشارة قوية على نحو غير مسبوق ويجري تأويلها كبشرى واعدة. بفضل بوابتهن الولاّدة كان لدى

113- P.- L. Couchoud, *Le mythe de la danseuse obscène*. Paris: Extrait du *Mercure de France* (juillet- août), 1929.

النساء القوة على طرد الكوارث الوشيكة، وعلى إذابة الغضب وإبعاده بالضحك الهادر المُعدي، وعلى خلق مساحة لحيوية جديدة ومستقبل طافح بالحياة الجديدة.

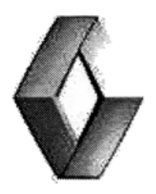
روابي الطين النضيج أو الذهب أو اللازورد

طالما كانت الربة العظيمة في مكانة عالية، كانت الأنهار المقدسة تنبع من مهبل الأرض، وتزحف الحياة كلها خارجة من قنوات ولادتها إلى سطح الأرض. ودائما كان يتم توظيف الطبيعة والثقافة لتمثيل النشاط الجنسي والخصوبة برموز تشير إلى أصل الحياة. أشهر رمز للفرج هو المثلث المقلوب. الحرف اليوناني الكبير Δ (دلتا) هو مثلث ولا يشير هذا الحرف الرابع في الأبجدية اليونانية إلى مصب النهر فقط، بل يشير أيضا إلى الفرج. في اليونان القديمة كان دلتا هو اسم مكان به مزار لديميتر، التي كانت تُعبد في الأصل كإلهة أم ولاحقا عُدت مسؤولة بشكل أساسي عن الزراعة. يشير المثلث المقلوب إلى صور الأم الأولى أو الربة القديمة في ثقافات كثيرة. وقد صادفنا بالفعل مثالا في تمثال الواجهة الحامي في بالاو. ثمة مثال آخر في صورة للربة السومرية عشتار على مزهرية كبيرة، ربما كانت آنية ترمز إلى الرحم.



عشتار على مزهرية وسط حيوانات مائية تمثل الخصوبة.
لارسا، بلاد الرافدين، الألفية الثانية قبل الميلاد.

كانت عشتار هي الربة السومرية للحب والحرب. في بلاد الرافدين القديمة كان فرجها يحظى بالإعجاب والمديح – «حلو كالجعة» و»حلو كالفم».[114] مثال آخر هو قلادة (دوجون) ذات الحلية المتخذة شكل مثلث جلدي بني مقلوب مزين بصدفة بيضاء كرمز للخصوبة. بالإضافة إلى شكل المثلث، يتم تمثيل الفرج على هيئة مُعيَّن في ثقافات جديدة. في سوريا ثمة حلية ذهبية من الألفية الثالثة قبل الميلاد جرى تشكيلها على هيئة مثلث يتضمن مُعيَّنا مقلوبا من سلك الذهب المجدول. وقبل اندلاع الحرب الأهلية في سوريا كانت هذه الحلية الممثلة للخصوبة معروضة في متحف حلب.[115] بالطبع هناك مثال معاصر بامتياز ومطابق لهذا الاستخدام لشكل المعين ألا وهو شعار سيارات رينو، رغم أن أغلب قائدي السيارات لم يعودوا واعين بالمعنى العميق للبوابة المؤدية إلى الحياة كشيء له قوة الحماية:



في لحظات الأزمات الوجودية أو التهديد أو المرض، كان يُترك نذر أو قربان على الضريح المقدس لاسترضاء إله أو إلهة أو لتعزيز الاستعطاف أو للتعبير عن الشكر لتحقيق أمنية. توجد حلي على شكل الأعضاء التناسلية الأنثوية في ثقافات كثيرة. في الصفحة السابقة على بداية هذا الفصل يوجد مثالان من جزيرة فلوريس في إندونيسيا. كان يتم ارتداؤهما كأشياء ذات قوة تولِّد حياة جديدة. في العصور القديمة كان المحاربون يرتدوهما كوسيلة حماية عندما يذهبون إلى الحرب.

تلقت الربة عشتار قرابين تمثل الفرج، رمز الحب والخصوبة. وكانت الأشياء المتخذة شكل الفرج المكرسة للربة تُصنع أحيانا من مواد ثمينة. في قائمة تفصيلية من النذور، ثمة فرج من الذهب وثمانية من الفضة، كلها مكرسة لعشتار، مذكورة

114- مع الشكر لعالم الأشوريات ثيو كريسبيجن Theo Krispijn ، جامعة ليدن، على المعلومات والإحالات إلى *Reallexicon der Assyriologie*.

115- Cf. Rients de Boer, De kleding van Ištar van Lagaba, 2013:30f.

في ألواح طينية عمرها آلاف السنين. تلقت عشتار هذه الأشياء (وأنواعا أخرى عديدة) من أناس يعبدونها، خاصة من النساء. وكانت واحدة من الصلوات المرتبطة بهذه القرابين تسير على هذه الشاكلة:

"عشتار الرحيمة، التي تحكم الكون،
عشتار القوية، التي تخلق البشر،
أنت يا من تسيرين على رأس القطيع، أنت يا من تحبين الراعي [...]
بدونك لن يفتح النهر نفسه،
والحياة التي تجلب النهر لن تعاق،
بدونك لن تُفتح القناة،
القناة التي يشرب منها الناس جميعا
لن تحاط بالسياج [...]
عشتار، أيتها السيدة المحسنة،
اسمعيني واسبغي نعمتك عليّ."

في نهاية تلك الصلاة يجري تذكير عشتار في تحفظ بكل القرابين التي جلبها الخادم الذليل، في تعداد شامل ينتهي بأغلى الهدايا: «فرج من اللازورد و[كلمة مفقودة] من الذهب».[116] توجد النذور المتخذة شكل الفرج أو الرحم المصنوعة من الحجر والطين النضيج وغيرهما من المواد في تقاليد عديدة. ثمة مثال لنذر روماني قديم في بداية هذا الفصل.

إلى جانب كونه رمزا قديما للخصوبة، كان الفرج دائما موضع اهتمام نوقش بعناية في الكتب التعليمية المخصصة للإيروتيكية والجنس. يعود تاريخ كتاب الكاماسوترا الهندي إلى القرن الثاني وعمل كشرح مفصل للرجال والنساء الذين لم يبدأ الحب في التفتح بطريقة عفوية في زواجهم المرتب. في الصين أيضا كانت يتم تداول كتب تعليم الجنس في زمن مبكر وكتاب روبرت فان جوليك Robert Van Gulik: *الحياة الجنسية في الصين القديمة* *Sexual Life in Ancient China* (1961) هو

116- Erich Ebeling, *Quellen zur Kenntnis der babylonischen Religion*, Leipzig, 1918, II:12. My translation.

كتاب محيط وتفصيلي عن هذا الموضوع. وفي العربية هناك تلك الدراسة الطويلة التي كتبها الشيخ النفزاوي، والتي كانت كل نسخة منها تبدو مختلفة. مثل هذه الكتب أعطت فكرة عن نوعية النساء التي يعتبرها المؤلفون المختلفون «محمودة" أو "مذمومة" كما صاغها الشيخ النفزاوي.[117] هكذا رأى المرأة النموذجية:

"فأمَّا المحمود من النساء عند الرجال فهي المرأة الكاملة القد العريضة الخصيبة [...] طيبة رائحة الفم والأنف، طويلة الرقبة غليظة العنق عريضة الصدر واقفة النهود، ممتلئ صدرها ونهدها لحما، معقدة البطن وسرتها واسعة، عريضة العانة كبيرة الفرج، ممتلئة اللحم من العانة إلى الآليتين، ضيقة الفرج، ليس فيه ندوة رطوبة أو سخونة، تكاد النار تخرج منه [...] إن أقبلت فتنت وإن أدبرت قتلت.»[118]

وهكذا. تستحق مثل هذه الكتب التعليمية بحثا مقارنا منفصلا مع اهتمام حريص بمنظور المعلق على الخبرات الموصوفة. وأخيرا ثمة اقتباس مختصر من كتاب تعليمي صيني (عهد أسرة مينج، 1368-1644) يصف فيه المؤلف أنواعا مختلفة من الفروج – مناسبة لكل هؤلاء الذين يتبعون بحرص توجيهات الاستخدام:

«كل الفروج، سواء في مواضع عالية أو متوسطة أو منخفضة، تمتلك خصائص مرغوبة، بشرط أن يعرف الشخص كيف يستخدمها جيدا. فالمرأة التي يكون فرجها في المنتصف [...] صالحة للمضاجعة في فصول السنة الأربعة جميعها ولاتخاذ جميع الأوضاع الجنسية [...] أما المرأة التي يكون فرجها عاليا فهي مناسبة لليالي الشتاء الباردة. ويمكن للرجل مضاجعتها بالرقاد عليها تحت الألحفة الملونة لسرير مربع. والمرأة ذات الفرج الواطئ والموجود في مكان

117- (الروض العاطر في نزهة الخاطر) هو كتاب تعليمي جنسي إسلامي يشبه الكاماسوترا الهندية. يُعتقد أنه كُتب بين عامي 1410 و1434. نُشر في باريس في طبعة فرنسية أولى عام 1886 بعنوان: Le Jardin Parfumée du Cheikh Nefzaoui: Manuel d'Erotologie Arabe: xvi Siècle. وقام ريتشارد بيرتون بترجمة إنجليزية للنص العربي بعنوان: The Perfumed Garden (1963). أيضا في الويكيبيديا:

https://en.wikisource.org/wiki/The_Perfumed_Garden.

118- الشيخ النفزاوي، الروض العاطر... ص 9 من نسخة بي دي إف على الإنترنت.

أقرب إلى المؤخرة فمناسبة بشكل خاص للأصياف الحارة. ويمكن للرجل مضاجعتها بالجلوس على دكة حجرية تحت ظل البامبو. [...] وهذا هو ما يُسمى باستغلال المزايا الخاصة بشكل المرأة التي يضاجعها المرء.»[119]

صرير الأسنان وعقبات أخرى

كل الأنواع الأدبية، من أساطير البدايات إلى الحكايات الخرافية إلى الأمثال تشير إلى ما هو أكثر بكثير من مجرد الرغبة: «قبل أن يحين الوقت، شجاعة كبيرة؛ وعندما يحين الوقت، خوف كبير» هكذا يقول المثل بالإنجليزية وكذلك بالإسبانية. دون استثناء تقريبا تعكس السيناريوهات المرسومة وجهة نظر ذكورية، حتى في النصائح التي تقدمها الأمهات والجدات إلى الفتيات قبل ليلة زفافهن؛ كما في النصيحة البلغارية الداعية إلى الاستكانة: «أيتها العروس الشابة، إنه رجل.» أو في التوجيه القادم من شعب أورومو الإثيوبي: «كوني هادئة وارقدي إلى جواره.»

لدى الرجال مشاعرهم الخاصة بالقلق. في السياقات التي يُعتقد بها أن فرجا مكشوفا قادرٌ على طرد القوى السلبية أو إبعاد الأعداء الأشرار، من المفهوم أن تثير المخاوف الشخصية أوهاما متعلقة بالمهابل المرعبة والشهوة الأنثوية النهمة. يحتاج الرجل إلى الشجاعة والثقة بالنفس، والتردد حيال فحولة المرء وكفاءته، خاصة بالنسبة للرجال الأكبر سنا، هو نقطة حساسة بوضوح: «الرجل العجوز، رفيق فراش بارد» ذلك مجرد بيان كاشف واحد. في كوابيس الرجل العجوز تفر زوجته الشابة مع عشيق أصغر سنا وأكثر كفاءة. وطالما أن الأمر يتعلق بالشيخوخة، فإن حكمة الممثلة الأمريكية بيت ميدلر في برنامجها التليفزيوني خلال القرن العشرين تنطبق على كل العصور والأماكن: «الأمر أسهل بالنسبة لرجل في العشرين وامرأة في الثمانين مما هو عليه الأمر بالعكس.»

119- Quoted in R.H. Van Gulik, *Sexual Life in Ancient China: a Preliminary Survey of Chinese Sex and Society from ca. 1500 B.C. till 1644 A.D.*, 1974:272- 73.

ومع ذلك، ليس انعدام الأمن دائما مسألة سن، هو أبعد ما يكون عن ذلك. بالرجوع إلى عبارات من أجزاء مختلفة من العالم، يصف الأنثروبولوجيون عددا لا بأس به من الحوادث التي تضم رجالا اعتقدوا أن قوى النساء الخاصة سببت العجز الذكوري عمدا. وسط شعب آراندا الأسترالي، على سبيل المثال، كان الرجال يخشون من احتمال أن تقوم امرأة ما بنثر حفنة من التراب المسحور على المكان الذي يذهب الرجال إليه عادة كي يتبولوا: فقد يسبب لهم هذا إحساسا حارقا في مجرى البول وألما لا يطاق. أو، في خدعة أخرى، تغني المرأة أغنية سحرية على إصبعها السبابة وبعد ذلك تدخله في فرجها: عندئذ فإن الرجل الذي سيمارس الجنس معها بالقطع «يصبح مريضا وربما يفقد عضوه كله.»[120] لا شك أن الفكرة نفسها كان لديها تأثير يصيب المرء بالشلل.

يحول الخوف الذكوري النساء إلى مخلوقات غير بشرية، كما في هذه القصة من طائفة خوند في الهند: «في سالف الزمان كان لدى المرأة أربعة أثداء ومهبلان، واحد في الأمام والآخر في الخلف. لكن كان لديها وجه واحد فقط، ينظر إلى الأمام. وكان أغلب الناس يخشون النساء بشدة حتى أنهم لم يتزوجوا قط.»[121] في قصص من آسيا وأمريكا اعتادت أول النساء المخلوقات أن يمضغن الطعام بأسنان مهبلية. لا عجب أن الرجال كانوا يخشون الاقتراب منهن. وقصص الأسنان المهبلية تلك التي تأكل فيها النساء أو يسلبن أكثر أعضاء الرجال عرضة للعطب تعكس الكوابيس الذكورية. ثمة ابنة شيطانية في عشيرة جاكاريلا من قبائل الآباتشي ذات أسنان في مهبلها تحول نفسها إلى فتاة جميلة عندما ترى رجلا. تغويه، وتجتث قضيبه وتأكله.

ولزيادة الجرعة الدرامية، يواجَه القضيب الحساس بكل أنواع التهديدات المبالغ فيها: أنياب فيل، أو أسنان ثعبان سام، أو منشار عند مدخل المهبل، أو أسماك بيرانا المفترسة جائعة تنتظره بالداخل. الرعب، الرعب.[122]

في بعض القصص لا يبدو حتى أن المرأة نفسها تدرك كم هي خطيرة، بينما من

120- Ernest Crawley, *The Mystic Rose*. A Study of Primitive Marriage, 1902:182ev.

121- Elwin 1954: 452.

122- قصة يوكاغير من سيبريا، أمثلة وتفاصيل أخرى في كتابي: *In het begin was er niemand*، الفصل الثامن.

بعيد يسمع الرجل جلبة صرير الأسنان الخطرة تحت تنورتها. بالطبع لا يستسلم البطل الحقيقي، بل يوظف تكتيكات ذكية. فقبل أن يدق على بوابتها الخطيرة، يمكنه أن يهدهد المرأة بحب حتى تنام، ويزيل بشجاعة تلك الأسنان المرعبة بنزعها بحبل أو تدميرها بقضيب حديدي، وبعد ذلك، لراحته الكبيرة، سيكتشف فجأة «مهبلا عاديا» تحت هذا. وبمجرد أن يتم ترويض المرأة (أو قل: المهبل)، يختفي التهديد مرة واحدة وإلى الأبد.[123]

وأحيانا تكون المرأة نفسها بريئة: في قصة لطائفة جوند من الهند الوسطى ينزلق ثعبان صغير داخل مهبل امرأة جالسة القرفصاء كي تقضي حاجتها. وهناك ينمو ذلك المتطفل بسرعة شديدة حتى أن زوجها يظن أنها حامل، لكن في أحد الأيام، في المجال العام داخل أحد الأسواق، تطل رأس الثعبان من أسفل ساريها. يراه أحد المارة ويدرك على الفور كم أن زوجها في خطر (في القصة لا يبدو أن أحدا يهتم بقدر الخطورة التي تحيط بالمرأة). يُقتل الثعبان وبعدها يعيش الزوجان طويلا وفي سعادة.[124] لا هذه القصة ولا القصص الأخرى تلامس وجهات النظر الأنثوية حول أفعال وردود أفعال الذكور.

تكشف قصص البدايات المتعلقة بالجنس الخوف من «المرة الأولى». بعد خلقه مباشرة كان على الرجل الأول أن يتصرف دون أي نصيحة حكيمة من زملاء ذوي خبرة في المعاناة. تتعامل هذه القصص فقط مع ما ينتظر الرجل غير الخبير عندما يضطر عضوه الجنسي المخلوق حديثا إلى دخول ذلك الممر المظلم. هو يعرف أن عليه أن يأخذ زمام المبادرة، بينما تكون المبادرات الجنسية الأنثوية مشكوكا فيها أو محظورة. أما القصص التي تجرؤ فيها المرأة الأولى والتي مازالت غير مروضة على أخذ زمام المبادرة أو تريد أن تعتلي الرجل، فهي قصص مهتمة بضرورة القضاء الجذري على تلك السلطة الأنثوية المهددة.

123- Bogoras, Waldemar. *Chukchee Mythology*, 1913: 667; Ho Ting- jui, *A Comparative Study of Myths and Legends from Formosan Aborigines*. Unpublished thesis Indiana University, 1967:388.

124- Elwin, The Vagina Dentata Legend. *British Journal of Medical Psychology* 19:443.

كيف يظل المرء سيدا ومولى لعضو خاص به على اتصال بالجنس الآخر؟ يبدو أن هذا هو السؤال المبدئي. «ينتصب القضيب وكأنه ينوي القتل، لكن المهبل يبتلعه ويروضه» تلك ملاحظة دقيقة من شعب إيجبو النيجيري. وثمة مثل من شعوب المابوتشي التشيلية يصنف النساء كجنس عنيف جنسيا: «إنهن يهزمن حتى قضيب الرجل». من وجهة النظر المليئة بالخوف تلك يُتهم المهبل بالنوايا السيئة. في نيوزيلندا يحذر تراث السكان الأصليين (الماوري) من المهبل باعتباره «بيت الموت». وهناك أيضا ثقافات تتجه إلى الحقائق دون خوف، مثل أهل جزيرة بالاو البسطاء الواقعيين الذين يلاحظون بوعي أن «كل من على الأرض يخرج من الشق». إن الفكرة الشائعة القائلة بأنه لا بد من «ترويض» القوى الأنثوية على يد الرجال تناسب خطوط التفكير الأسبق بشأن ضرورة استبدال سلطة الربة العظيمة بإله خالق ذكر قادر على كل شيء. إن خلق الهيراركية يعمل كإعادة طمأنينة في مواجهة بوابة الحياة المخيفة.

يحكي التلمود اليهودي قصة ليليث، زوجة آدم الأولى، التي طلبت المستحيل:

«قال آدم: "لن أرقد أسفلك، لكن فقط أعلاك. لأنه لا يليق بك إلا أن تكوني في الموضع الأسفل، فيما أنا يجب أن أكون في الموضع الأعلى." فردت ليليث: "نحن متساويان أحدنا مع الآخر بقدر ما خُلق كلانا من التراب".»[125]

بجدالها أنهما خلقا كلاهما من تراب، أصرت ليليث على الرقاد إلى جانبه أو أعلاه. وعندما حاول آدم أن يجبرها على وضعه المفضل، رفضت أن تستسلم، ونخرت له وفرت بعيدا، خارج الفردوس، خارج مجال النظر. ذهبت ليليث إلى منطقة البحر الأحمر حيث عاشت مع شياطين فسقة، كانت تسليتها المفضلة هي ممارسة الجنس معهم. أرادت الملائكة أن تعيدها إلى آدم، لكنها رفضت وأصبحت شيطانة هي نفسها. ومنذ ذلك الوقت، تقوم ليليث بإنجاب مائة شيطانة شريرة يوميا. تقوم ليليث وبناتها، الليليمات، بقتل الرضع؛ ويُفضل الأولاد الصغار غير المختونين. محتذيات مثال أمهن،

125- *The Alphabet of Ben Sira* 5: 23a and b.

هذا هو المصدر الأقدم لقصة ليليث (القرن الثامن – العاشر الميلادي). لمزيد من المراجع انظر Kvam, Schearing aand Ziegler 1999: 204. وثمة إشارة أسبق إلى ليليث باسم ليلاك عثر عليها في لوح طيني سومري من عام 2000 قبل الميلاد. انظر: Graves and Patai 68. والإشارة الوحيدة إلى ليليث في الكتاب المقدس هي في سفر إشعيا (34:14).

تتسكع الليليمات في أحلام الرجال، ويجلسن على أجساد ضحاياهن، ويبتلعن منيّ الرجال المساكين بمجرد أن يقذفوا. وبالمنيّ المسروق يستمرين في إنتاج الكثير من أطفال الشياطين الجدد. بالرغم من النسخ المختلفة لهذه القصة كان هناك شيء واحد اتفق عليه رواة القصص: هذه الزوجة الحازمة أرادت شيئا مستحيلا: المساواة الكاملة – حتى في مسائل الجنس. شعر الرب بالأسى على آدم، فتركه يسقط نائما وخلق حواء، «لحما من لحمه» (سفر التكوين 2:23).

بوصف أو بعكس الأدوار والوظائف الأسطورية للبشر الأوائل، تُمكّن قصص البدايات هؤلاء الذين في السلطة من تشكيل وتعديل الحياة اليومية بجدارة، وفقا لمصالحهم الخاصة. وبكلمات العالِم الإسلامي القرطبي في القرن الثالث عشر:

«وللرجال خُلق البضع منهن، [...] فأعلم الله عز وجل الرجال أن ذلك الموضع خلق منهن للرجال، فعليها بذله في كل وقت يدعوها الزوج؛ فإن منعته فهي ظالمة وفي حرج عظيم؛ ويكفيك من ذلك ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشها فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطا عليها حتى يرضى عنها. وفي لفظ آخر: إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح.»[126]

تمتلئ الميثولوجيا والأنثروبولوجيا بأمثلة مهددة لنساء مهيمنات مخيفات. وفي الواقع المعاصر يحكي المرضى للأطباء النفسيين قصصا عن أمهات بشريات يلعب تعسفهن الجبار دورا لا يقل خرابا وتهديدا في تشكيل أرواح الأطفال الهشة عما فعلته الأمهات الأسطوريات في العصر الحجري والعصر البرونزي. أما الصور الملحة حد الهوس والمتعلقة بالخوف من الإخصاء في الأحلام الإيروتيكية، ممتزجة أحيانا بحسد القضيب المتصور لدى الأم، فهي أشياء خاضعة الآن للمعالجين:

«القلق من الإخصاء سيعني خوف الرجل من احتمال فقد قضيبه؛ وسيعني حسد القضيب حنق المرأة من امتلاك الرجل للقضيب، ورغبتها في امتلاك

126- تفسير القرطبي للآية 21 من سورة الروم:
https://quran.ksu.edu.sa/tafseer/qortobi/sura30- aya21.html#qortobi

واحد هي نفسها. يمكن لهذا النوع من الحسد، بالطبع، أن ينتج عنه هجوم مدمر على القضيب، وهكذا يثير قلقا شرعيا من الإخصاء. ويمكن اعتبار حسد القضيب والقلق من الإخصاء وجهين – ذكري وأنثوي على التوالي – لنفس المشكلة: "أملكه، وهي تريده؛ يملكه، وأنا أريده. "»[127]

ومع ذلك لا يوجد أي إشارة في الأسطورة أو في الأنثروبولوجيا إلى أي امرأة تريد بالفعل أن *تملك* قضيبا في جسدها، فقط مهتمة باستخدامه. لكن أمثلة كثيرة في الأدبيات العلاجية تعكس أمهات مدمرات للأنا باعتبارهن سببا للخوف من الإخصاء. أذكر بعضا من مخزون وفير: أمهات أنانيات أو غير محبات، مسيطرات بشكل صارم أو طاغيات، أمهات خانقات غير قادرات على ترك أطفالهن يخرجون من علاقة تكافلية، أمهات يستغلين أطفالهن أو يحولنهم إلى كباش فداء أو يدفعنهم إلى الجريمة. وفقا للأطباء النفسيين، فهن جميعا يمثلن – بتعبير مجازي – الأم المُخصية. وربما يكون للخليلات والعرائس والزوجات تأثير مشابه على الرجال البالغين. ويمكن لملحوظة واحدة ساخرة أن تؤدي المهمة:

«أيا كان ما يفعله، وبأيما طريقة يفعله، فهو يجازف باحتمال أن ربما يكون قضيبه أصغر قليلا فقط، أو أقل براعة بقليل فقط، من قضيب شخص آخر. ومع ذلك، فهو غالبا ما يطارد بإصرار تلك العاهرة المهينة ذات الأنف البارد، لأن اهتمامه الحقيقي ليس فيها؛ بل في الفوز بالمنافسة: فهو يخاطر باجتثاث قضيبه ليس لأنه فقط يريدها أن تحبه، لكن كي تحبه لكونه أكبر وأفضل من الآخرين.»[128]

إن إرث مخاوفه هو قدر تراجيدي مع «عروس مرعوبة وزوجة باردة». ويشير فولفجانج ليدرر إلى قصة عن فتاة عصابية – مثال أمريكي من ستينيات القرن العشرين – تجهز صندوق إسعافات أولية إلى جوار سريرها، مع صبغة اليود وضمادات الشاش، وحوض صغير فيه ماء ساخن. كابوس يصيب بالشلل ويشير إلى البتر أكثر مما يشير إلى وعد بمتعة متبادلة.

127- Lederer 214.

128- Ibid. 219.

هل يستمتع الرجل بالجنس أكثر من المرأة، أم العكس؟ حتى الآلهة تساءلت متعجبة ذات مرة. اختلف جوبيتر مع زوجته جونو: فقد آمن بأن النساء يستمتعن بالجنس أكثر من الرجال، ولم تعتقد هي في ذلك. طرحا سؤالهما على تيريسياس الحكيم، وهو عراف ومتنبئ في طيبة، والذي كان قد عاش في جسد أنثوي لمدة سبع سنوات. كان تيريسياس قد أصبح امرأة بعد أن ضرب ثعبانين متسافدين بعصاه. وبعد سبع سنوات رأى نفس الثعبانين يتسافدان مرة أخرى. ضربة قاسية أخرى من عصاه أعادته رجلا. ولكونه قد مر بخبرة الحب الذكوري والأنثوي كلاهما، فقد اتفق تيريسياس مع جوبيتر. لم يلاحظ فقط أن النساء يستمتعن بالجنس أكثر قليلا من الرجال، بل تسعة أضعاف الرجال! استاءت جونو بشدة من إجابته حتى أنها أصابته بالعمى.[129] كان هذا العقاب أكثر من اللازم بالنسبة لجوبيتر. لم يكن بمقدوره أن يبطل حكما إلهيا، لكنه خففه بتزويد تيريسياس بالقدرة على التنبؤ بالمستقبل. لكن ترى هل كان مخطئا؟ تعكس الأمثال حول العالم الخوف من النهم الأنثوي، عادةً دون الإشارة بشكل مباشر إلى البظر:

سيموت الفأر، ولن يشبع الجحر. (عربي، تونس)

الماء والنار والنساء لن يقولوا قط «هذا يكفي». (بولندي)

النساء والنار: لو لم يكن هناك من بد، خذ منهما القليل فقط. (فولاني، غرب إفريقيا)

الرجل بقدر ما يستطيع، والمرأة بقدر ما تريد. (إسباني، بوليفيا)

هل نتجت ممارسة استئصال البظر عن الخوف من الشره الأنثوي؟ تبرر قبائل دوجون هذا الاستئصال في قصتها عن أصل الأشياء. لا يُسمح لتل النمل الأبيض الصغير «القادر» في الأرض «بالوقوف» في مواجهة الخالق الأعلى الذكر وإله السماء:

«بعد أن خلق (آما) الأرض، أراد أن يضاجع شريكته. لكن الأرض لم تكن قد تطهرت بعد بالاستئصال، ووقف تل النمل الأبيض في مواجهة آما. فاستأصله

129- Ovid, *Metamorphoses*, Book III:82- 83 .

ومارس الجنس مع الأرض، بينما كانت مازالت تنزف بسبب الجرح.»[130]

يرتفع تل النمل الأبيض في مواجهة النشاط الجنسي الذكوري في لحظة الاختراق ويُعتبر تهديدا للنظام الموجود. في هذه القصة يجري تقديم الاستئصال كإجراء ضروري: إذ لا يجب أن يكون بظر الأرض مساويا لقضيب آما، الإله الخالق الذكر الذي خلقها.[131] هل تنشأ التنويعات العديدة لقطع العضو التناسلي الأنثوي من الخوف والحسد، وهل هذا هو السبب ذاته وراء وجوب ممارسة السلطة على المهبل ودم الحيض وغشاء البكّارة؟ هل يعمل الدليل المفترض على أن «الرجال لديهم القوة لجعل النساء ينزفن من المهبل» كوسيلة لتهدئة مخاوفهم؟[132]

مع التفسير القائل بأنه ذات يوم، منذ زمن بعيد، كانت النساء في موقع السلطة؛ يشار أحيانا في القصص إلى البظر باعتباره «قضيبا صغيرا». ليس من المستبعد أن تكون هذه الغيرة أو الخوف من ذلك المصدر الصغير للمتعة قد أوحى بممارسة قطع العضو التناسلي الأنثوي. لقد جرى تقديم ممارسة قطع أجزاء من الأعضاء التناسلية الذكرية والأنثوية باعتبارها إزالة «لبقايا» الجنس الآخر: القلفة بالنسبة للرجال، وبالنسبة للنساء البظر – وكثيرا ما يشمل هذا أجزاء من المشفرين كذلك.

يجري ترسيخ نظام مطمئن بفضل تدخل جراحي مقصود منه جعل الفتيات «مؤنثات تماما»، من أجل منعهن من أن يبدين مثل الرجال. في أرياف مصر تُبقي الشائعات العنيدة على حياة الفكرة القائلة بأن بظر الفتاة غير المختونة سينمو ليغدو قضيبا طويلا. إن قطع الأعضاء التناسلية الأنثوية سينقي أعضاء المرأة الخنثوية، تلك التي بحاجة إلى أن تُزال – بنفس الطريقة التي يجب بها ختان قلفة الذكر.

130- Marcel Griaule, *Dieu d'Eau*. Paris: Fayard, 1966:16.

131- Elisabeth Bekers, *Dissecting Anthills of W/Human Insurrection: A Comparattive Study of African Creative Writing on Female Genital Excision*, 2002:34.

في حالة (الختان الفرعوني) يتم استئصال البظر كاملا، سواء شمل ذلك المشفرين الداخليين والخارجيين أم لا. وتُترك فقط فتحة صغيرة للتبول ودم الحيض. فالاحتكاك الذي يسببه المهبل المضيَّق بطريقة اصطناعية يزيد من متعة الذكر الجنسية.

132- Bruno Bettelheim, *Symbolic Wounds* 1954:120- 121.

تساعد طقوس البلوغ على فصل الأولاد عن جسد الأم، الأولاد الذين عاشوا حتى ذلك الوقت معتمدين تماما على أمهاتهم. بفضل بدء بلوغهم وختانهم يجري تقديمهم إلى أسرار عالم الرجال البالغين. خلال هذه الطقوس يتم قطع القلفة؛ «آخر جزء لديهم من الأنوثة»، ويُقصد من الاحتفال المحيط بهذه العملية أن يكون علامة على ميلادهم «الثاني» أو «الحقيقي» – اللحظة التي يصبحون فيها رجالا. تساعد الأساطير والصور وطقوس القبول على تأكيد الرغبة المأمولة في الاستقلال الذكوري عن الأمهات.

ومع ذلك فإن عواقب الختان والاستئصال مختلفة تماما، جسديا وكذلك اجتماعيا. «يكشف» ختان الذكور عن الحشفة. ويمثل إزالة القلفة والانكشاف القضيبي رخصة ذكورية بالمغامرة والدخول في العالم الخارجي غير المنزلي، بينما يؤدي الاستئصال والختان الفرعوني لأعضاء النساء التناسلية إلى الحبس والتقيد.[133]

هذا الاختلاف في النتائج تؤكده الأمثال الشعبية حول العالم، حتى في الثقافات التي ليس بها طقوس الختان. فالمجالات الذكورية المتسعة تتناقض مع المجالات الأنثوية المقيدة. ثمة مقولة من إستونيا: «البيت هو عالم الزوجة، والعالم هو بيت الرجل». وبالنسبة للسفر، فهو لازم للرجال وليس لازما للنساء. «الابن الذي لا يغادر البيت قط يظن دائما أن أمه صاحبة أعلى ضرطة» كما يقول مثل لشعب الجيكويو في كينيا. أو وفقا لحكمة ماليزية: «المرأة المسافرة أشبه بحديقة تنتهكها الماشية».

إن الحاجة الذكورية للهيراركية الجنسية والتحكم في النساء تتأكد في مجازات تضع التمدد الذكوري في مواجهة الجمود الأنثوي. توضع الأنشطة الذكورية الديناميكية والمفتوحة والمنطلقة خارجا في منافسة مع العوالم الأنثوية المغلقة والمتجهة إلى الداخل. تتم معادلة «المرأة» بـ «الرحم» و«البيت» وكل ما هو «داخلي» وبحاجة إلى البقاء هناك، حيث المطبخ هو الخير الأعظم، وثمة قفل زائد على الرحم، بفضل طقوس الختان الفرعوني؛ لكي تحافظ النساء على سمعتهن. بينما يدخل الرجال المختونون بأناقة إلى العالم دون أن يعرضوا سمعتهم للخطر.

133- Eric K. Silverman, *Anthropology and Circumcision*, 2004:429.

يدين القرآن الكريم تشويه الجسد، ولا يشار إلى قطع العضو التناسلي الأنثوي في أي مكان فيه. وقد أكد النبي محمد على حق النساء في أن يكنَّ راضيات جنسيا. وتزعم قلة من الأحاديث أن قطع العضو التناسلي الأنثوي كان موجودا في المجتمع الإسلامي الأول. ومع ذلك، فإن العلماء المسلمين قد رفضوا هذه العبارات باعتبارها «ضعيفة» وليس لها أساس تاريخي: فقد وجد قطع الأعضاء التناسلية قبل وقت طويل من الإسلام وجرى تبنيه من التقاليد المحلية السابقة على الإسلام.

أكد الطبيب والكاتب الطبي البيزنطي اليوناني الموسوعي إيتيوس الآميدي Aetius of Amida (القرن السادس الميلادي) أن البظر (نيمفي باليونانية) أزيل عندما أصبح «أكبر من اللازم» أو أثار تهيجا عند احتكاكه بالملابس. وفقا له، مال المصريون إلى إزالة البظر قبل أن ينمو ربما أكبر من اللازم، «خاصة في ذلك الوقت الذي كانت الفتيات فيه على وشك الزواج». أضاف إيتيوس تفاصيل دقيقة حول هذه العملية:

«اجعل الفتاة تجلس على مقعد بينما يضع شاب مفتول العضلات واقف خلفها ذراعيه أسفل فخذيّ الفتاة. اجعله يفتح ساقي الفتاة ويثبّت جسدها كله. يقف الجرَّاح أمامها ويقبض على البظر بملقاط عريض الفم في يده اليسرى، ويشده إلى الخارج، وبيده اليمنى يجتثه عند النقطة الملاصقة لكماشتيّ الملقاط. من المناسب ترك بعض من هذا الجزء المبتور، ما يقرب من حجم الغشاء الذي بين المنخرين، بحيث تزيل المادة الزائدة فقط؛ وكما قلت، الجزء الذي يُزال يكون عند النقطة التي تعلو بالضبط كماشتيّ الملقاط. ولأن البظر تركيب أشبه بالجلد ويتمدد إلى الخارج بإفراط، لا تقطع منه أكثر من اللازم، لأنه قد ينتج ناسور بولي عن قطع مثل هذه الزوائد الكبيرة بشكل أعمق من اللازم.»[134]

أصبحت ممارسة الختان الفرعوني أيضا مرتبطة بالعبودية. في عام 1609 أشار المبشر البرتغالي جواو دوس سانتوس João dos Santos إلى مجموعة قرب مقديشو

134- Aetius quoted in https://en.wikipedia.org/wiki/Female_genital_mutilation; see also Mary Knight, Curing cut or ritual mutilation? Some remarks on the practice of female and male circumcision in Graeco- Roman Egypt. Isis, 2001, 92 (2): 317–338.

كانت لديهم «عادة خياطة إناثهم، خاصة إمائهم وهن صغيرات لجعلهن غير قادرات على الحمل، الأمر الذي يجعل هؤلاء الإماء يُبعن بثمن أغلى، سواء من أجل عفتهن، أو من أجل الثقة الأفضل التي وضعها أسيادهن فيهن». هكذا أصبح التحكم الذكوري في الجسد الأنثوي «مرتبطا بالعبودية الأنثوية المخزية [و] أصبح يرمز إلى الشرف.»[135]

في أوروبا القرن التاسع عشر وفي الولايات المتحدة قام أطباء أمراض النساء أحيانا بإزالة بظر النساء لمنع الجنون المزعوم والعادة السرية. جرى أول استئصال غربي للبظر في عام 1822 في برلين لفتاة في الخامسة عشر من عمرها كانت تمارس العادة السرية بإفراط. وُصفت العملية في مجلة *ذا* لانسيت (المشرط) الطبية عام 1825، لكن هناك أيضا أمثلة من إنجلترا في القرن التاسع عشر. وفي الولايات المتحدة جرى تطبيق هذا التدخل الجراحي حتى ستينيات القرن العشرين كعلاج للهيستريا والهوس الشبقي والمثلية الجنسية بين النساء.[136]

كان على أكثر من 200 مليون امرأة يعشن اليوم أن يتعرضن لهذه العملية، خاصة في إفريقيا، لكن أيضا في بعض الثقافات في الهند وبلدان إسلامية مثل اليمن وماليزيا وأكثر من ذلك بكثير في إندونيسيا.[137] ويتم تقديم المخاوف المتعلقة بالعذرية والصلاحية للزواج لتبرير عمليات الختان الأنثوية. وثمة حجة مستخدمة مرارا وتكرارا ألا وهي أنه بعد الجراحة سيكون من الأصعب على الفتاة أن تلطخ شرف العائلة.

عادةً تكون الأمهات والجدات والأقارب الأخريات من الإناث هن من يتحكمن في عمليات ختان الفتيات، وتخلق هذه العملية هوية جماعية قوية. يجعل الضغط

135- Mackie, Gerry *(December 1996).* Ending Footbinding and Infibulation: A Convention Account (PDF).
American Sociological Review. 61 (6): 999–1017 (refs pp. 1003 and 1009).

136- Sarah W. Rodriguez, Rethinking the History of Female Circumcision and Clitoridectomy: American Medicine and Female Sexuality in the Late Nineteenth Century. *Journal of the History of Medicine and Allied Sciences*. 63(3), July 2008: 323–347.

137- Http://www.womanstats.org/substatics/femalegenitalcutting_2015_2correct static.png; Kamran Paha in the Huffington Post: http://www.huffingtonpost.com/entry/why- female- circumcision- violatesislam us_58fa2f46e4b0f02c3870e94a.

الاجتماعي من الصعب على كثير من النساء ترك بناتهن غير مختونات. يبدو من الأبحاث أن أغلبية كبيرة من الأمهات عازمات على الاستمرار في هذا التقليد وتطبيقه على بناتهن. ويرتبط هذا التقليد عن قرب بأفكار تتعلق بالطهارة، أفكار مترسخة في المجتمع والجنسانية والخصوبة.[138]

منذ النصف الثاني من القرن السابق طور كثير من الناس في الجزء الغربي من العالم وعيا قويا بأن المهبل أو القلفة هما ملكية شخصية غير قابلة للتخلي عنها. تتصارع هذه الفكرة مع الفكرة التقليدية في ثقافات وأديان تحاجج بأن أهمية الأعضاء التناسلية والقلفة والحشفة والبظر والفرج تصل إلى مدى أبعد من أهمية جسد صاحبها الشخصي.

في مناقشات دولية معاصرة في إفريقيا وفي بعض البلاد في الشرق الأوسط وآسيا، كثيرا ما تُرفض التعليقات الغربية باعتبارها شكلا جديدا من الإمبريالية الثقافية الغربية في تاريخ استعماري طويل. ومع ذلك فإن عدد هؤلاء الذين يؤيدون إلغاء هذه الممارسات يتزايد في تلك البلاد والثقافات المحلية؛ لأن هذا التقليد العتيق كثيرا ما ينتج عنه موت الضحايا. لكن كثيرا من النساء الأكبر سنا في المناطق الريفية مازلن ضد هذا التطور الجديد، مجادلات بأن لديهن مشاكل أخطر من قطع عضو تناسلي مرة واحدة في العمر.

في أغلب الثقافات يكون الهدف الأساسي من الجنس هو الذرية، ونادرا ما تشير القصص إلى الاستمناء. في الكتاب المقدس عندما سكب أونان منيَّه على الأرض «قبح في عينيّ الرب ما فعله، فأماته أيضا». (سفر التكوين 10-38). أما الفتيات أو النساء الممارسات للعادة السرية فهن غائبات تماما تقريبا عن التقاليد الشفهية. في الأساطير صادفتُ مثالا واحدا فقط: قصة إفريقية عن آدم وحواء تُحكى في مقاطعة شابا الكونغولية. ويأتي أصل هذه القصة من حركة (جماعة Jamaa) الدينية؛ وهي

138- من أجل بعض التفاصيل المعلوماتية، استفدت من المقال ذي المستويات المختلفة لساندرا دي لين وروبرت أ. روبنشتاين:

Sandra D. Lane and Robert A. Rubinstein, Judging the Other: Responding to Traditional Female Genital Surgeries, 1996:31- 40.

طائفة إفريقية ذات توجه مسيحي تعود جذورها إلى الكاثوليكية الرومانية، وتشير إلى «اللعب بجسد المرء» برفض صريح.

تلقي القصة السواحيلية الشفاهية باللوم والمسؤولية الأصلية عن كل ما يسير على نحو خاطئ بين الرجال والنساء على كاهل محادثة بين الشيطان (المدعو هنا لوسيفر) وحواء. باختصار: تذهب حواء للتمشية في الفردوس وتسمع صوت لوسيفر يناديها من شجرة. يسألها ببراءة من تكون ولمن ينتمي جسدها. توضح له حواء أن جنسها يجعلها أنثى و، نعم، ينتمي جسدها إلى زوجها؛ كما أخبرها الرب بعد أن خلقها مباشرة: «لستِ شخصا كاملا؛ وستكونين شخصا كاملا عندما تمنحين جسدك لزوجك حتى يشعر بجمال جسدك. لكن لو لعبت به، سيكون في هذا موتك.» لكن لوسيفر يقنعها أن هذه مجرد كذبة. وأنها لو فعلت هذا ستكون قادرة على خلق الكثير من الناس وحدها تماما:

> «وعندما سمعت حواء هذا بدأت تلعب في جسدها، وحدها تماما. وسقطت خصوبتها على الأرض. رأتها بعينيها. والآن بدأت تشعر بالخزي والعذاب والوحدة. قالت للوسيفر: "انظر ماذا فعلت بي؟» ضحك لوسيفر وفر مبتعدا بسرعة. عادت حواء إلى زوجها، صامتة، دون أن تقول شيئا ودون أن تطلب جسد آدم. وعندما ناداها آدم لم تسمعه على الإطلاق. فكر آدم: لقد وقعت هذه المرأة في الخطيئة، كما أخبرنا الرب.»[139]

إن اللعب في جسد المرء قد يسهم في متعته، لكن ليس في إنتاج الذرية، ولذلك تشير القصة على الفور، وفي الحال: «سقطت خصوبتها على الأرض». وهي نتيجة غير مقبولة في سياق تكون فيه الذرية هي قضية الحياة الأساسية. ينزل الرب إلى الأرض ويعاقب آدم وحواء بحرمانهما من حبه. ومن الآن فصاعدا سيحتاج آدم وحواء إلى شراء حب أحدهما الآخر بعرق كدهما وعملهما.[140]

139- Fabian 1997: 1971:124f; also in Karin Barber 27- 28..
هذه القصة الكونغولية، التي دونها يوهانز فابيان يعود تاريخها إلى السبعينيات من القرن العشرين.

140- Ibid.125.

إن أغلب قصص البدايات التي تلعب فيها الأعضاء التناسلية الأنثوية دورا تعكس رعبا وخوفا ذكوريا. والرسالة هي أن الجنس مغامرة خطيرة، لكن لا بد أن يصنع الرجل نسلا – وينطبق هذا بشكل خاص على أول رجل مخلوق ويعيش في عالم فارغ تماما. إن الشجاعة الذكورية البطولية ضرورية للتغلب على التهديدات الجنسية.

أما بالنسبة لإجابة السؤال الذي طرحه جوبيتر وجونو، فمازال الخلاف قائما، ويُبقي «الحجر الصغير في الفرج» لغزه باقيا في الذهن.

5

الدم الجبار

هذا هو الوقت الذي نكون فيه قويات ويكون الرجال خائفين [...]
المرأة، في أوقات دورتها الشهرية، تكون وعاء للقوة السحرية،
القوة التي تسمح لها بالولادة.[141] (شعب توهونو أو أودهام، أريزونا
والمكسيك)

أصبح الاثنان غاضبين جدا. وجرى نقاش كبير. وفي النهاية
قطف الرجل في غضبه فاكهة سامة كان الرب قد حرم عليهما
أكلها. كان قد ابتلعها تقريبا، لكنه تذكر في اللحظة الأخيرة أن
هذه الفاكهة محرمة. لذلك علقت الفاكهة في حلقه ومازال من
الممكن رؤيتها هناك. لكن المرأة قطفت الفاكهة أيضا وابتلعتها.
تفجرت الفاكهة في رحمها، وبدأت تنزف.[142] (إيجالا، نيجيريا)

أحيانا تتوجه نصوص العرس بالكتابة المسمارية منذ أكثر من 4000 عام إلى إنانا، ربة السماء. تغني الصديقات احتفالا بالفتاة الشابة التي يتم تجهيزها للزواج:

«والآن تنهض نهودنا!
الآن ينمو الشعر في أعضائنا!
ذاهبات إلى حقويّ العريس [...]

141- عبارة لامرأة تنتمي لشعب توهونو أو أودهام في صحراء سونوران، أريزونا والمكسيك، في: Marta Weigle (1982) 1992:173: وهنا لم تكن النساء يعتبرن غير طاهرات (كما كان يُنظر إلى النساء الحائضات في عدد من الثقافات الأخرى، مثلا في سفر اللاويين في الكتاب المقدس)، لكن محملات بالقوة السحرية بفضل عنايتهن بنمو العشيرة.

142- In *Black Orpheus. A Journal of African and Afro- American Literature*. Vol. II, January 1958:6.

ارقصن، ارقصن،
يا بابا، اجعلينا سعداء بأعضائنا!»[143]

كانت (بابا) كنية تدليلية لإنانا، ربة الحب، وكان على أغاني الزفاف أن تدعم ثقة العروس الشابة عديمة الخبرة، والتي كان يُجهَّز جسدها من أجل «حقويّ العريس». كانت العرائس الطفلات هن العرف في تلك الأيام الأقدم، بينما في زماننا مازالت فتيات كثيرات بعذرية مضمونة وأثداء صغيرة متبرعمة يجري تزويجهن في سن صغيرة للغاية، وكثيرا ما يكون ذلك لرجال أكبر سنا بكثير.

هيمين، إله الزواج

هيمين Hymen هي الكلمة اليونانية لقشرة الجلد أو الغشاء الذي يغلق فتحة المهبل جزئيا والذي يعتبر تقليديا علامة العذرية. وهي أيضا اسم إله الزواج اليوناني، هيمين، ابن ديونيسوس وأفروديت. وتنشأ المقارنة التشريحية من فكرة المهبل كحرم مغلق لأفروديت، ربة الحب والنشاط الجنسي والرقة، التي كانت مسؤولة أيضا عن فض البكارة.

جرى ربط غشاء البكارة hymen تقليديا بالعذرية، كما لو أنه كان يعوق الدخول إلى المهبل. هذا ليس صحيحا؛ لأنه دون فتحة لا يمكن لدم الحيض أن يخرج وأي غشاء بكارة مغلق تماما هو حالة شاذة، مشكلة لا بد من علاجها عن طريق التدخل الجراحي. خلال الطفولة يتآكل هذا الغشاء الصغير بالفعل نتيجة الألعاب الرياضية أو العادة السرية، لكن كثيرا ما تظل بقايا صغيرة. وقد تسببت فكرة أن فض غشاء البكارة خبرة مؤلمة للفتيات ومهمة مستحيلة للأولاد في الكثير من التوتر غير الضروري.

في المجتمعات التي يكون فيها شرف العائلة موضوعا خطيرا – وغشاء البكارة ضرورة للعرائس – تصاب الفتيات بالذعر من أن يكن غير قادرات على الإثبات

143- Thorkild Jacobsen, *The Harps That Once... Sumerian Poetry in Translation*, 1987:18; cf. Zainab Bahrani, *Women of Babylon: Gender and Representation in Mesopotamia*, 2001.

المقنع بأنهن يملكن غشاء بكارة سليما. ولا بد أن تثبت آثار الدم الناتجة عن «الخرق» المفترض للغشاء خلال ليلة الزفاف أن الفتاة لم تفعل «ذلك» أبدا من قبل. وهذا هو السبب الذي يجعل عائلتيّ العروسين في بعض الثقافات مازالتا تريدان رؤية الملاءات ملطخة بالدماء باعتبارها *الدليل* على إتمام الزواج وأن العروس عذراء بالفعل. وبالتالي يتم تأويل غياب بقع الدم كدليل على عدم عفة العروس، وهي نتيجة قد تؤدي في بعض الثقافات إلى الطلاق أو القتل باسم الشرف. دراما تراجيدية وغير ضرورية؛ لأن غشاء البكارة لما يقرب من نصف الفتيات لا ينزف على الإطلاق خلال الخبرة الجنسية الأولى. وهذا هو السبب في أن الأطباء لا يستطيعون استنتاج إن كانت الفتاة عذراء أم لا من حالة غشاء البكارة.

لذلك، وبشكل خاص في المجتمعات أو الجماعات ذات الهوس بالبكارة، يكون الطلب على الاسترجاع الجراحي هائلا، ليس فقط من العرائس؛ بل أيضا من العاهرات اللاتي سيجنين مزيدا من المال كعذراوات زائفات. هناك طرق أقل تعقيدا بكثير للإيحاء بفقد الدم العذري مثل «حبة كارمين carmine» (حبة تحتوي دما زائفا) يمكن للمرأة إدخالها مسبقا، أو جرح صغير في الإصبع، أو التخطيط الكفؤ لنزول دم الحيض بمساعدة حبوب منع الحمل.

عادة ما يكون القليل جدا من المعلومات متاحا عن أداءات ليلة الزفاف. يجري إبلاغ العرسان وتحذيرهم بأن الفتاة قد تخشى الاختراق؛ ويكون الرجال الأكبر سنا واعين أن أي فتاة شابة قد تشعر بالنفور أو حتى بالاشمئزاز من عريس (غالبا ما يكون أكبر عمرا بكثير) ستشاركه حياة قررها لها الآخرون. في الأمثال يُنصح الزوج ألا يبدو مبتهجا أكثر من اللازم بعد ليلة الزفاف (ويُفضل كذلك في الأيام اللاحقة)، لأن هذا سيجعل الزوجة الشابة متغطرسة بشكل لا يُحتمل:

> لا تمدح الزوجة بعد الليلة الأولى ولا الراعي بعد عامه الأول. (عبري)
> العروس الممدوحة ينتهي بها الأمر إلى أن تكون جلفة. (فارسي، إيران)
> إذا كنت تحب زوجتك، لا تمتدحها قبل أن تكون ميتة. (البنغال، بورما، التشيك، روسيا)

قد لا يقل خوف العريس شدة عن خوف العروس: فواجبه، كما جرى تلقينه، أن

يفض بكارة العروس خلال ليلة الزفاف. لا بد أن «يخرق» غشاء البكارة، بالرغم من عدم الخبرة أو السن المتقدم. هل تعكس قصص المهبل المسنن المخيفة القلق الذكوري من فض البكارة؟ تخيلوا لو فشل... تعاطفًا مع وجهة نظره، يتشكى مَثَل أمازيغي: «فليرحم الله الزوج، أما الزوجة فهي تعلم ما ينتظرها.»

النزيف العذري

«الريح التي تفتح الخوخة الندية» هي صورة صينية شعرية عن فض البكارة. تشير «الريح» إلى الحركة السريعة، لكن بربطها بالكلمات التي تشير إلى النداوة أو المطر تضيف دلالات جنسية أكثر مباشرة.[144] في بعض الثقافات يجري تمزيق غشاء البكارة عمدا في الأيام الأولى من حياة الطفلة الرضيعة، على يد الأم نفسها، لأسباب تتعلق بالنظافة المبالغ فيها أو لأنه يجري تجهيز الفتاة للمضاجعة المبكرة مع الرجال البالغين. تقوم الفتيات وسط شعب ساكالافا في مدغشقر بفض بكارتهن بأنفسهن قبل الزواج، إذا لم يقم آباؤهن بذلك في وقت سابق. فعلى أي حال، لا يوجد سبب على الإطلاق يدعو لقلق العريس من أبناء البلد.[145]

هناك أيضا تقاليد كان يُعتبر غشاء البكارة فيها خطيرا للغاية حتى أنه يعوق المتعة الشابة على نحو بالغ. في نصوص فيدية كان يجري تقديم دم ليلة الزفاف كشيء سام والمهبل العذري كمقعد للخطر.[146] ورغم أن، لحسن الحظ، هذا الخوف الذكوري من فض بكارة فتاة لا يوجد في كل مكان، إلا أنه من أجل الأمان مازال بعض العرسان عديمي الخبرة يفضلون أن يتركوا هذا الاختيار المرير لشخص آخر:

«[...] شخص محصن ضد أخطاره – امرأة ربما، باستخدام أداة ما؛ أو للمفارقة، شخص محرم عادةً، مثل قريب حميم: أخ أو أب؛ أو – أحيانا – كاهن،

144- Barnard Wolfe, *The Daily Life of a Chinese Courtesan Climbing up a Tricky Ladder with A Chinese Courtesan's Dictionary*, 1980:18.

145- Ploss and Bartels, a.w. 209- 10.

146- Verrier, *Myths of Middle India*, 1949:365.

يمكن أن يمزق غشاء البكارة.»[147]

تشير نصوص قديمة إلى أنه، بين الفينيقيين، كان ثمة عبد معين يُكلَّف بمهام فض البكارة. يذكر رحالة القرن الرابع عشر جون دي ماندفيل Jehan de Mandville، كاتب قصص رحلات شائعة ومترجمة بكثرة، أنه في بعض الثقافات نذرت مجموعة صغيرة من الرجال أنفسهم لمهمة فض بكارة الفتيات – وهي وظيفة خطرة. أو، بكلمات هذا المؤلف القروسطي، مشيرا إلى «عادة غريبة في جزيرة شرقية»:

> «ثم تصل إلى جزيرة فيها عادة أنه إذا اتخذ المرء زوجة لا ينام معها باعتباره الرجل الأول، لكن هناك خدم فقراء يقومون بهذا ويفضون بكارة الفتاة، ويُدفع لهم المال مقابل قيامهم بهذا... يكون مهبل البنات مسحورا ومسموما، أي أنه من الخطر النوم مع ابنة للمرة الأولى، لكن فيما بعد ليس خطرا على الإطلاق.»[148]

أيضا في الأماكن التي يولى فيها قليل من الاهتمام لأغشية بكارة الفتيات، كما هو الحال في كاليدونيا الجديدة، يرفض بعض الرجال أن يفضوا بكارة زوجاتهم هم أنفسهم. ويفضلون أن يستأجروا لهذه المهمة خارقا رسميا، أو *perceur attitré* كما أسمى الفرنسي ليون مونسلون Léon Moncelon هذا المحترف في القرن التاسع عشر.

147- مزيد من الأمثلة في: Lederer 44; Freud, Das Tabu der Virginität, in *Gesammelte Werke* XII:161.

148- كُتبت رحلات جيان دي ماندفيل *Les Voyages de Jehan de Mandeville* ربما في عام 1356. قام بهذا الاقتباس يورج فيتلوفر Jörg Wettlaufer الذي يقدم مزيدا من الأمثلة في مقاله. حق أول ليلة كاستعراض لسلطة الذكر، في:
Evolution and Human Behavior, Volume 21, Issue 2, March 2000:116.



فض بكارة طقسي. حفر على الخشب في رحلات جون دي ماندفيل. ستراسبورج، 1484.

وفقا للمؤرخ اليوناني القديم هيرودوت (484-424 ق.م)، كانت قبيلة الناسامونيون الأمازيغية الشمال إفريقية، التي كانت تعيش في المنطقة المدعوة الآن ليبيا، لديها عادة خاصة بها. في تقاليد هذه القبيلة، وخلال ليلة الزفاف، كانت العروس تُجبَر على مضاجعة كل ضيوف الزفاف الذكور، والذين كان عليهم بدورهم أن يقدموا لها هدية في المقابل. كان هذا التضامن الذكوري المشترك ليلة الزفاف أمرا لا غني عنه ليس فقط لإبطال قوة غشاء بكارة واحد فقط ولإرضاء العروس المنتهكة، بل أيضا لاسترضاء الأرواح المنزعجة التي كانت مهمتها الدفاع عن المرأة الشابة (ضد الدخلاء). مثل هذا الاغتصاب الطقسي المتسلسل كان يساعد على تخفيف وإضعاف القوة الخطيرة الخارقة للطبيعة التي كانت تنطلق خلال فض غشاء البكارة؛ عن طريق توزيع المخاطرة بين كل رجال العريس.[149]

149- Herodotus, *Histories*, Book 4:172- 173.

ثمة تقاليد أخرى، على العكس، كانت تقدم فض بكارة الفتاة الشابة كشرف خاص أو هدية مميزة تُقدَّم لأحد الآلهة. بين الرومان القدماء كان القربان يقدَّم كما يلي: «كانت العروس الرومانية تجلس على حِجر الإله موتونوس؛ بحيث يدخل قضيبه مهبلها، ويمزق غشاء البكارة ويوسع المهبل.»[150]

توجد طقوس شبيهة في الهند. في كانارا، وهي جزء من المنطقة الساحلية الغربية بالهند، وأيضا حول ولاية (جوا) مازالت مثل هذه القرابين مستخدمة. قبل أن يتزوجن، تذهب الفتيات إلى المعبد ويقدمن «بواكير» الزواج إلى تمثال الإله شيـئًا بقضيب حديدي، وهكذا يتسلم هذا الإله «القربان» بنفسه.[151]

جرى أيضا الإنعام بالحق في هذا القربان على الكهنة كممثلين للإله، عاملين كمفوضين إلهيين. ثمة رسم توضيحي في مخطوط إسلامي فارسي من عام 1602 يعرض كاهنا مسيحيا مشغولا بفض بكارة عروس شابة، قبل أن يدخل بها العريس نفسه. تبين الصورة شابة راقدة على ظهرها وتحت رأسها وسادة. الجزء الأسفل من جسدها عارٍ والكاهن «يتحرك بين فخذيها». والعريس، في ثوب مسيحي (مميز برقع صفراء وفقا للأوامر الإسلامية المطلوبة) ينتظر بصبر في الخارج حتى تنتهي المعالجة الكهنوتية. وفقا لمؤلف المخطوط، زكريا بن محمد القزويني، كانت هذه عادة مسيحية نموذجية.[152] مثل هذه القصص عن الغرباء كانت تساعد على توضيح الفجوة «بينهم» و«بيننا»، نحن المؤمنون الحقيقيون.

هذه الأمثلة المذكورة أعلاه لفض البكارة العملي أو الطقسي على يد أم أو تمثال إلهي أو كاهن أو أحد أفراد الأسرة أو عبد أو خادم أو شخص أجنبي، كانت مستوحاة غالبا من خوف ممزوج بالبارانويا من القوى السحرية أو التأثيرات السامة لليلة الأولى (*ius primae noctis*/حق *الليلة الأولى*) ذلك الحق الذي كثيرا ما كان يُفترض أنه *droit de seigneur* أو حق السيد في القيام بالممارسة الجنسية مع عروس فلاح

150- Ploss and Bartels 211.

151- Ibid.

152- هذا المخطوط الفارسي من عام 1602 (أو رقم 8907) هو ترجمة لعمل باللغة العربية لزكريا بن محمد القزويني (يعود تاريخه إلى عام op f. 174a 1283/1282) مجموعة مكتبات جامعة ليدن، مع الشكر لد. كارين شيبر Karin Scheper.

الإقطاعية في ليلة زفافها. وكان يشار إلى هذا الحق أيضا بتعبير *droit de cuissage* (ويعني حرفيا: حق الأفخاذ)، والذي يمكن إعادة تفسيره في ترجمة حرة باعتباره حق الرجال الأقوياء في الجنس وفقا لإرادتهم.

أول مثال أدبي لهذا الحق المزعوم يعود تاريخه إلى حوالي عام 1900 ق.م ويمكن العثور عليه في ملحمة جلجامش من بلاد الرافدين (العراق حاليا). في هذا النص يكون الحاكم جلجامش نفسه مخولا بممارسة الجنس مع كل فتاة مخطوبة أو عروس، قبل أن يدخل بها أي رجل آخر. في كتابه *التواريخ* (4:168) يصف هيرودوت الدرماخيديين، قبيلة في ليبيا، حيث كانت العادة تستلزم من كل الفتيات الراغبات في الزواج أن يزرن الملك أولا والذي كان لديه الحق في فضن بكارتهن جميعا. كما زعمت قبائل الفايكينج القروسطية هذا الحق الغاشم في الأديرة الآيرلندية حيث اغتصبوا الفتيات المقبلات على الزواج. وحتى يومنا هذا يستمر الحكام المعاصرون بثقة في انتحال هذا الحق على مستويات عديدة.[153]

بالنسبة لمسألة إن كان أصحاب الأراضي في القرون الوسطي يشاركون عرائس فلاحيهم الفراش حرفيا أم لا، يبدو أن الباحثين يختلفون. بدايةً فإن الطقوس القديمة المستوحاة من القلق الذكوري تجاه فض بكارة الفتيات قد جرى استبدالها إلى حد كبير هنا بمنطق هيراركي: بسبب مكانتي لديّ الحق في جسدك. ربما بفضل وضعهم القوي، كان الحكام يمتلكون ذلك الإحساس الطائش بأنهم شخصيا محصنون ضد خطر غشاء البكارة، ولا شك أن هذا قد زاد من الإحساس بامتلاكهم حقا في كل شيء.

في كتابه سياسات الشمبانزي *Chimpanzee Politics*، يقارن فرانس دي ڤال Frans de Waal هذه الشخصيات بـ «الذكور المسيطرة» وسط الرئيسيات. من منظور تنافسي، يطالب الذكر ذو المكانة العالية بمضاجعات أكثر وذرية أكثر وسط قرود الشمبانزي. وفي المجتمعات الصناعية تلتفت الحياة إلى التناسل أقل مما تلتفت إلى الحظوة الجنسية في جماعة المرء. بالنظر إلى التقاليد الثقافية، نجد أن الرجال قد ابتكروا قواعد من أجل امتيازاتهم الخاصة فيما يتعلق بـ «حقوقهم الجنسية في النساء».

153- Cf. Wettlaufer a.c حيث جاءت هذه الأمثلة.

من سنواتي في الكونغو أتذكر أنه أينما تكرم الرئيس موبوتو سيسي سيكو بالزيارة، كان على الفتيات أن يرقصن من أجله (un peu d"animation/لقليل من الإنعاش). ولأن الاسم فأل وعلامة في حالته: فاسمه يعني "الديك الذي لا يمكنه التراجع عن أي دجاجة". وكان الرئيس معتادا على اختيار واحدة أو أكثر من هؤلاء الفتيات اللطيفات. ومع ذلك، أنا لست واثقة أن العائلة المعنية كانت تعتبر قيام الرئيس الأعلى بفض بكارة ابنتهن الصغيرة شرفا عظيما، كما يشير ديفيد ڤان ريبروك David van Reybrouck في كتابه الكونغو *Congo*. أذكر ذعر صديقة بعد أن أرسل لها موبوتو حزاما مزخرفا ثمينا من قصره الرئاسي. كان هذا يعني أن الرئيس لديّه ما هو أكثر من الاهتمام العادي بها. ولأمانها الشخصي كان عليها أن تغادر البلاد على عجل؛ لأن الرئيس يعرف حقوقه: لا أحد يجرؤ على رفض أي طلب له.

كانت لدى سيجموند فرويد أفكاره الخاصة حول السبب في قيام شخص آخر غير الزوج بفض غشاء البكارة. فقد أشار إلى أن المرأة دائما ما تنمّي إحساسا بالنفور والغضب تجاه هجوم الشخص الأول الذي يقوم باختراقها، يصل أحيانا حتى إلى درجة تحطيم الزواج الأول.[154]

في ليلة الزفاف تلوح مخاطر أخرى غير مجرد غشاء بكارة مسحور أو سام أو قاتل. إذ تحذر بعض المجتمعات من خطر الحمل بطفل في ليلة فض البكارة. إذا نتج عن الجماع الأول الحمل مباشرة، فسينتج عن الدم البكاري القوي ميلاد طفل مريض أو معاق. لسوء الحظ، لا يقتصر الخوف من الدم الأنثوي على نزف البكارة الذي يحدث مرة واحدة فقط. في ثقافات عديدة يرتبط الدم الناشئ من جسد أنثوي مباشرة بخطر على المجتمع بشكل عام وعلى جنس الذكور بشكل خاص. وينطبق هذا خاصةً على دم الحيض.

أساطير حول الحيض

تشير كل ثقافة إلى أول حيض بطريقتها الخاصة. في اليابان يوصف بأنه «عام

154- Sigmund Freud, *Das Tabu der Virginität. Gesammelte Werke XII*, 1952:161; Lederer chapter 6;

البطيخة المشقوقة»، وبين الكوسيين في جنوب إفريقيا: "عدم تبرعم الوردة"، وفي ألمانيا كبداية للـ "الوردة الشهرية" وفي الهند كـ "السهام الخمسة لإله الحب".[155] تفسر أساطير أصل الأشياء بداية هذا النزف الغامض وعواقبه. اعتمادا على هذا التفسير ترتبط هذه الظاهرة بقواعد وتحريمات شهرية، ذات دلالات موجبة أو سالبة. في نص بمقبرة مصرية (من القرن الثامن عشر إلى القرن السادس عشر ق.م) يرتبط اللون الأحمر بالقوى المعادية والمعارك الكونية في أثناء عملية الخلق، رغم أنه ليس من الواضح إن كانت المرأة نفسها أم نزيف حيضها هو المرفوض.[156]

في القصص التي لا تقدم الحيض كعقاب، يكون التفسير المبتكر لهذه الظاهرة الطبيعية مختلفا تماما. في قصة لشعب سارامو من تنزانيا، على سبيل المثال، ينتج النزيف عن «تشوه» عرضي:

"منذ زمن بعيد بعيد، كان هناك رجلان اثنان فقط. عاش الاثنان على العسل. وذات يوم تسلق أحدهما شجرة. كان النحل قد بنى عشا عاليا هناك وأراد الرجل أن يحصل على العسل من داخل الشجرة بفأسه. فجأة سقط النصل الحاد للفأس وضرب الرجل الآخر، الذي كان راقدا على ظهره هناك تحت الشجرة. ضرب الفأس الساقط قضيبه واجتثه. وما تبقى كان جرحا داميا مثل الذي لدى النساء.

نزل رفيقه وسأله: "ما هذا؟"

فأجابه: "الفأس قطعه.."



ثم ناما معا ووُلدت فتاة. فناما معا مرة أخرى ووُلد صبي. وانحدر عالم من الناس من هذين الرجلين. ومنذ هذا الوقت، تفقد النساء الدم هناك، بالضبط مثل تلك المرأة الأولى.» (سارامو، تنزانيا)[157]

155- Ploss and Bartels 169

156- O›Rourke: The Wt- Woman in: https://www- egruytercom.ezproxy.leidenuniv.nl:2443/downloadpdf/j/zaes.2007 .134.issue- 2/zaes.2007.134.2.166/zaes.2007.134.2.166.pdf , pp.170- 171.

157- Otto Dempwolff, Märchen der Zalamo und Hehe in Deutsch Ost- Afrika. In: *Anthropophyteia* (9) 1904: 396- 397.

بفضل واقعة دراماتيكية، يصبح رجل مخصي المرأة الأولى التي تبدأ النزيف بطريقة عفوية من جرحها الطازج، وسرعان ما تتمكن من إنجاب أول الأطفال. لا وجود للعقاب هنا.

في قصة من قبيلة كويا (أندرابراديش، الهند) يُنظر إلى غياب الحيض كنقص. كانت هناك نساء منذ البدء لكنهن لم ينزفن قط. ونتيجة لهذا كان يولد أطفال بلا عيون أو أفواه وسرعان ما كانوا يموتون. لم يزدد النمو السكاني، وهو موقف مقلق. لهذا ذهب أحد الأسلاف، سوكرا كويا، ليستشير ديور (الرب):

"سأله ديور: "هل يتدفق الدم من النساء كل شهر؟"

قال: "لا، لم أسمع أبدا بهذا."

قطف ديور ورقة شجر وأعطاها لسوكرا: "اطحن هذه الورقة وضعها في المكان الذي يجلب منه الناس الماء. سيتدفق الدم من جميع الفتيات غير المتزوجات. سيخيفهن هذا في البداية، لكن يجب عليك أن تفسر الأمور لهن وتعلمهن كيف يستحممن في نهاية وقتهن ويغلين ملابسهن في وعاء جديد."

علاوة على ذلك قال ديور: "في اليوم الثالث بعد الحمام الأول، اخبر الفتيات أن يصنعن عروسة من العشب. ولا بد أن يسودن العروسة بالفحم وبعد ذلك يأخذنها مع بيضة دجاجة إلى مفترق طرق. وهناك لا بد أن يضحين بدجاجة باسمي ويدفنّ العروسة والبيضة." "[158] (كويا، الهند)

فعل شعب كويا كما نصحهم ديور، ومن ساعتها فصاعدا انتهى الأمر بخير فيما يتعلق بالذرية العفية. في قصص أخرى يستثير نوع من الفاكهة أو الخضراوات الحيض الأول بين الأمهات الأوليات. (كويا، الهند)[159] والرسالة ببساطة هي أن الحيض جزء من حياة صحية.

ثمة تقاليد أخرى لديها نظرة مختلفة للأمر ويجري فيها تمثيل الحيض الأول كعقاب

158- Elwin 1954: 475- 476.

159- Elwin 1954: 475- 476.

على مخالفة أولى جسيمة قامت بها امرأة في الأيام الأولى للجنس البشري: «خرجت الإساءة من فمك، فسيخرج الدم من فرجك.» [...] ومنذ ذلك اليوم صارت لدى النساء فترة يتدفق فيها الدم منهن كل شهر. (بوندو، الهند)[160]

في اليهودية والمسيحية والإسلام قصص وتعليقات وفيرة تمثل الحيض كعقاب مستحق عن جدارة. في العديد من القصص العبرية المتأخرة تحيض حواء للمرة الأولى بعد أن نامت مع سمائيل (ملاك الموت الكبير) أو الحية التي فتحت المصدر «وهكذا جاء إلى العالم طوفان النجاسة والمرض الأنثوي الشهري.»[161]

يقلب الشيطان بذكاء الوصية الإلهية في قصة جاوية إسلامية: يخدع حواء بإخبارها أنها لن تُطرد من الجنة إلا إذا لم تأكل فاكهة الخلود المحرمة. وبما أنه لا يوجد غير ثمرتين فقط من هذه الفاكهة المحرمة، تبتلع حواء واحدة على الفور. تمنحها تلك الثمرة متعة هائلة حتى أنها تسقط أرضا وتفقد الوعي. عندئذ، على الفور، تبدأ في النزف وحيث أنها «لم تتذكر التحريم الإلهي بأكل فاكهة الخلود، تفقد جميع النساء الدماء خلال الدورات الشهرية.»[162]

لا يوجد في قصة سفر التكوين في التوراة ولا في القرآن أي إشارة إلى الحيض كعقاب لحواء على أكل الفاكهة في الجنة، لكن المفسرين يؤكدون على العلاقات الهيراركية بين الرجال والنساء بربط عقوبات غليظة بصلات الذكور بأي امرأة «نجسة». الاعتقاد بأن الحيض نجاسة، نتجت عنه فروض تفصيلية في الكتاب المقدس العبري: «وإذا كانت امرأة لها سيل وكان سيلها دما في لحمها فسبعة أيام تكون في طمثها وكل من مسَّها يكون نجسًا إلى المساء» (سفر اللاويين 15:19).

وبما لا يقل عن الكتاب المقدس العبري، ينصح القرآن (سورة البقرة، الآية 222) الرجال باعتزال النساء حتى «يطهرن». لا يربط كتاب المسلمين المقدس بين الحيض ومخالفة وصية الرب في جنة عدن، لكن المفسرين المسلمين التقليديين يفعلون هذا

160- Elwin1949: 274.

161- Eisenmenger, *Natursagen*, (1711) 1907:211.

162- Steenbrink, a.w. 118. Meer informatie over Eva en haar lichaam in: *Overal Adam en Eva*, hoofdstuk 10.

دون تحفظ. يرى المفسر الإسلامي الطبري (923-839) حيض حواء الأول كعقاب على جعلها الشجرة في الفردوس تنزف بأكلها ثمرتها. ويربط صحيح البخاري، الذي يعتبره العلماء المسلمون أصح الكتب بعد كتاب الله (أي القرآن)، قلة العقل بالحيض، وهو نقص أنثوي أزلي منذ حواء:

(خَرَجَ رَسُولُ الله [...] فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ » يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ، فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ». فَقُلْنَ وَبِمَ يَا رَسُولَ اللَّه؟ قَالَ "تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ". قُلْنَ وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ اللَّه؟ قَالَ "أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ؟". قُلْنَ بَلَى. قَالَ "فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا، أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ؟". قُلْنَ بَلَى. قَالَ »فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا.)[163]

في القرآن لا يوجد ربط بين الحيض والعقل، ولم أجده في أي مكان آخر.

في المسيحية شكلت النجاسة المزعومة للأم الأولى (ولكل النساء من بعدها) تناقضا كاملا مع «النقاء الطاهر» لمريم العذراء. مازالت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ملتزمة بمعتقد أن مريم كانت عذراء طوال عمرها بغشاء بكارة سليم، بالرغم من إنجابها، وبما أنها نجت من النجاسة الأنثوية خلال حياتها بأكملها، فهي لم تحض قط.[164]

تدخل القصص الشفاهية في تفاصيل التغيرات الجسدية لأول البشر بعد أكل الفاكهة المحرمة. ينال آدم قدرا أفضل من حواء. فقد ابتلعت الفاكهة في عجلة وبدأت تنزف، بينما تصرف آدم بتردد وعلقت الفاكهة المحرمة في حلقه، ومن هنا جاءت تفاحة آدم. قصة شعب إيجالا المقتبسة في تصدير هذا الفصل مثال واحد، لكن إشارات شبيهة توجد في تقاليد مختلفة.

بعض التنويعات الإسلامية على قصة آدم وحواء مازالت تعمل كدليل على حساسية حواء المفرطة تجاه حجج الشيطان. هذا هو الحال، مثلاً، في المجتمعات الريفية

163- Sahih al- Bukhari Book 6, Hadith 301 https://muflihun.com/bukhari/6/301.

164- Ranke Heinemann,o.c. 21; http://campus.udayton.edu/mary/questions/yq/yq195.html; http://www.freejinger.org/topic/27550- did- the- virgin- mary- menstruate- short- answer- no/.

التركية؛ حيث يفسَّر أكل الفاكهة المحرمة كعلامة على ضعفها الأخلاقي هي وكل النساء، وهو السبب ذاته وراء وجوب إشراف الرجال على النساء. في هذه المجتمعات يجري تلقين الفتيات أن الجسد الأنثوي بغيض ولذلك من اللازم إخفاؤه بعناية. ورغم أن الرجال قد يفقدون الدماء أحيانا، أثناء الصيد أو في حرب أو بسبب حادث، إلا أن فقد الدماء بالنسبة لهم عرضي. الرجال مستقلون، يتحكمون في دمائهم ومنيِّهم، أما بالنسبة للنساء فإن تسرب الدم واللبن من أجسادهم أمر خارج السيطرة تماما.[165] يربط هذا المنطق باقتدار الاختلاف الجسدي بالنتائج الهيراركية.

السحر الشهري

يمكن تحويل العيب إلى ميزة، كما نتعلم من ملاحظة كتبها بلينيوس الأكبر (23 أو 24 - 79 ميلادية) Pliny the Elder: فقد آمن بأن امرأة عارية حائض يمكنها أن تخمد الزوابع وعواصف البرد والبروق: وإذا سارت في حقل وهي في حالها الشهري؛ ستسقط الديدان والخنافس والهوام الأخرى وحدها من أكواز الذرة.[166]

لا يمنع هذا ثقافات كثيرة من ربط النساء الحائضات بالدلالات كلية السلبية. فنزفها سيضعف الصيادين والمحاربين، وسيقتل النباتات الصغيرة، ويُحمِّض النبيذ، ويعفن اللحم، ويخثر اللبن، وسينكسر ظهر الحصان الذي تجلس عليه. في مجتمعات كثيرة كانت تُجبَر على قضاء أيامها «النجسة» في عزلة.[167] هذا الميل للتفكير السلبي في الحيض قد يتزايد كذلك بسوء الظن المنتشر حيال الكِنَّة؛ تلك «الغريبة» القادمة من الخارج، المتطفلة على العائلة كي تقيم وتعيش هناك كزوجة للابن.

165- Carol Delaney, Mortal Flow: Menstruation in Turkish Village Society. In: Blood Magic 79 and 82.

166- كما جرى تفسيره في أعمال ابن أخيه بلينيوس الأصغر:
Pliny the Younger, Historia Naturalis, xxviii. c.23, p.304 in John Bostock's Pliny the Elder web edition, http://www.perseus.tufts.edu/hopper/text?doc=Plin.+Nat.+toc.

167- Peggy Reeves Sanday, Female Power and Male Dominance. On the Origin of Sexual Inequality, 1988, chapter 5; Eloïse Mozzani, Le Livre des Superstitions. Mythes, Croyances et Légendes, 1995:512ff.
من أجل البحث عن توازن ثقافي خلال التدفق القوي للدم، انظر أعمال ماري دوجلاس Mary Douglas.

لقد ابتُكرت قواعد عديدة لوضع حد للخراب المفترض. في التقليد اليهودي المتشدد، لا يُفترض بالمرأة الحائض أن تظهر على الملأ؛ لأن هذا سيتسبب في كوارث. فدمها يمنع الخبز من النضج وسيدمر الحصاد. ووفقا لمصادر صوفية يهودية قروسطية: «يهجر الرب الحائضات لأن الرب لا يمكنه تحمل النجاسة.»[168] واعتقد اليونانيون القدماء أن النساء الحائضات يجعلن الأرض مجدبة، وتغدو المرايا التي ينظرن فيها خشنة وغير لامعة، وممارسة الجنس معهن خلال هذه الفترة يجعلهن يحبلن بثعابين. في أجزاء من اليابان وبين بعض شعوب السكان الأصليين للأمريكتين، تجبَر النساء على البقاء بعيدا عن الماشية، ولم يكن يُسمح لهن بلمس طعام الناس. وبما أن السماء تمثل النقاء، أصر معتقد في شمال سيبيريا على أنه خلال فترة الحيض لا ينبغي للنساء أن يرفعن رؤوسهن وينظرن إلى السماء. وفي أوروبا ظلت شائعة عنيدة متداولة بأن ممارسة الجنس مع امرأة حائض يسبب العجز الجنسي للذكر أو كوارث أخرى مثل الصلع. وبمجرد أن اكتشف واحد من الأستراليين الأصليين أن زوجته الحائض كانت راقدة على بطانيته، قتلها في مكانها، وخلال أسبوعين مات هو نفسه من الرعب الخالص.[169]

بين شعب إيلا في زامبيا كان هناك اعتقاد بأن الرجل سيفقد رجولته إن أكل مع امرأة حائض. ولم يكن يُسمح لها بلمس الأوعية والآنية وكان عليها أن تظل بعيدة عن نار الطهي المشتركة. في بعض الثقافات كان يتم عزل النساء دوريا فيما يمكن تسميته بكوخ الحيض ولم يكن يُسمح لهن بأكل الطعام الذي كان يُعلَن أنه محظور عليهن – وهو عادةً الطعام الذي يضم أكثر الأطباق قيمة وصحة مثل اللحم أو السمك. وكان هناك معتقد لدى قبيلة وينيباجو الأمريكية بأن الأشياء المقدسة ستفقد قواها عند الاتصال بأي امرأة حائض، وحتى الأشباح لن تنجو من مثل هذا الاتصال. لقد ابتُكرت قواعد كثيرة في كافة أنحاء العالم لمقاومة نزيف النساء الشهري حتى أن بريفو Briffalut في كتابه المكون من ثلاثة مجلدات *The Mothers*/*الأمهات* (1927) خصص خمسة وعشرين صفحة لهذا الموضوع، مع الملاحظة المتواضعة

168- Sharon Faye Koren, *Forsaken: The Menstruant in Medieval Jewish Mysticism*. Lebanon: Brandeis University Press, 011.

169- أمثلة بريفو (1927) Briffault مشار إليها في كتاب ليدرر Lederer، الفصل الرابع.

بأن قائمته المفصلة أبعد ما تكون عن الكمال.

باختصار، أكثر القواعد شيوعا وتكرارا والتي تقيد النساء خلال دورتهن الشهرية هي:

1) الجنس ممنوع، 2) لا بد أن تضع النساء الحائضات في اعتبارهن القيود المتعلقة بالملبس والمأكل والحركة والاتصال بالأشياء أو الناس، 3) ليس مسموحا لهن بلمس معدات الذكور الطقسية أو أسلحتهم، 4) ليس مسموحا لهن بإعداد أو طهي الطعام، 5) يوضعن تحت الحراسة في أكواخ معينة.[170]

انتهى الأمر بهذه القواعد إلى شكل مختلف عند الممارسة عن المقصود بها في الأصل. لا يوجد التابو الحيضي، لكن التابوهات المحيطة بالدائرة الحيضية ربما تكون قد وضعت حدودا على سلوك الأشخاص الآخرين أكثر مما وضعتها على المرأة الحائض نفسها. أكثر من مرة استغلت النساء تلك القواعد استغلالا ذكيا بإلقاء اللوم فيما يتعلق بالمصائب العائلية على كاهل الضرائر الحائضات أو بتخويف الزوج من الموت بتهديده بخلط قطرات من دم الحيض في طعامه. إن القلق والاهتمام السلبي بالدورات الشهرية الأنثوية قد زاد دون شك من العلاقات الهيراركية والتفرقة العنصرية بين الجنسين.

لا بد أنه كان هناك اعتقاد بأن دم الحيض جبار بشكل خطير، وكان الحيض واحدا من أكثر الألغاز المحيرة والعصية على التفسير بالنسبة للناس. في ثقافات كثيرة أضفت النساء أنفسهن أهمية ذاتية على عزلتهن الشهرية. فلم يكن ليخاطرن بتعريض العائلة والجماعة لتأثيرات الطمث السلبية، حتى إلى درجة تصور أنفسهن مؤذيات وخطرات إلى هذا الحد الفادح خلال فترة الحيض. ومع ذلك في بعض ثقافات السكان الأصليين للأمريكتين يبدو أن النساء قد استغلين القوة التي منحها النزيف الحيضي لهن، مجادلات بأن هذا كان هو « الوقت الذي نكون فيه قويات ويكون الرجال خائفين.»[171]

170- Briffault in Lederer, ibid; Robert H. Lowie, *Primitive Religion* 1925:211ff; Reeves Sanday 1988:104.

171- Mary Douglas 1975:62- 63; Marta Weigle 1982:171- 173.

في جنوب البرتغال استمدت النساء قوى خاصة من الحيض، بالرغم من أنهن اعتقدن (قرب نهاية سبعينيات القرن العشرين) أن هذه القوى خارج سيطرتهن: حيث كانت النباتات تذبل وتبدأ الأشياء في التحرك بمجرد أن تقترب منها امرأة حائض.

في تلك المنطقة ذاتها تحكي النساء قصة عن ساو براس (القديس بلاسيوس) القديس الذكر الوحيد الذي يُحمل تمثال له ويجوبون به الشوارع في يوم عيد محلي مقدس: وفي الكنائس يجري تصويره بيدين حمراوتين بشكل ملفت، وهو الأمر الذي عانى منه نتيجة لسلوك طائش قبل وقت طويل من تطويبه. بدافع من الشهوة الجنسية في شبابه، تحسس امرأة شابة حائضا، لكن عندما أخرج يديه من أسفل تنورتها؛ كانتا مغطاتين بالدماء. ومنذ هذا الوقت، كرس بلاسيوس حياته بأكملها للأعمال الصالحة، لكن يديه ظلتا حمراوتين بلون الدم لتذكراه والآخرين بهذا السلوك المستحق للوم في شبابه. قصة بلاسيوس هذه هي نسخة محلية من حياة ذلك الطبيب الأرمني الأصل والأسقف والشهيد المطوَّب.[172]

في العصور القديمة اليونانية والرومانية وكذلك في التراث اليهودي كان هناك تحريم لممارسة الجنس مع النساء الحائضات. أصر العالم الطبيعي الروماني بلينيوس الأكبر، وعلماء آخرون كثيرون، على أن ممارسة الجنس مع امرأة حائض فعل خطير. في القرن الأول، حرَّم العالم اليهودي اليوناني فيلو السكندري Philo of Alexandria الجنس مع النساء الحائضات؛ لأن دم الحيض يبقي الرحم رطبا وبالتالي يدمر حيوية بذور الذكر. كان الجنس لا يعني شيئا غير إنتاج النسل وفقا لمنطق ذلك الزمان. وكان معروفا بالفعل أنه خلال الدورات الشهرية لم يكن من الممكن الحمل بشيء، إذًا فما جدوى الأمر على أي حال؟ وسرعان ما تبنت المسيحية ذلك التحريم التقليدي دون أي تفكير نقدي.

اقتبس اليهود والمسيحيون اقتباسات متوعدة من سفر اللاويين (20:18) في الكتاب المقدس: «وإذا اضطجع رجل مع امرأة طامث، وكشف عورتها عرى ينبوعها وكشفت

172- Denise L. Lawrence, Menstrual Politics: Women and Pigs in Rural Portugal, in: *Blood Magic* 117- 136

هي ينبوع دمها يُقطعان كلاهما من شعبهما.» بعض الترجمات جعلت «يُقطعان cut off» أشد باختيار «يُبادا exterminated» بدلا منها. قد يكون تفسير هذا العقاب القاسي هو أن اليهود المتدينين وكذلك كثير من غير اليهود كانوا مقتنعين أن دم الحيض سام.(173)

جرى تصوير المخاطر على نحو متزايد كتهديد. سواء تحت التأثير الكلاسيكي أم لا، عرف بعض آباء الكنيسة عن يقين أن الأطفال المولودين مرضى أو معاقين كانوا نتيجة لممارسة الجنس خلال الحيض. وكانت أكثر الأمراض أو التشوهات المذكورة تكرارا هي الجذام أو استسقاء الرأس أو الصرع أو الشلل أو الحَوَل أو تقوس الساقين أو الحدبة أو الجنون. منذ القرن الخامس عشر، بدأت فكرة أن الأطفال المعاقين كانوا نتاجا للحمل خلال الحيض تفقد تدريجيا قدرتها على الإقناع. لكن مازال بعض اللاهوتيين المسيحيين محافظين على هذه الأفكار الخيالية والمخيفة لاعبين بتأثيرها على أتباعهم لقرون، هنا وهناك وحتى إلى وقت قريب في القرن العشرين.(174)

في البداية، ميزت الكنيسة الأولى نفسها عن الثقافات المحيطة بالمساواة الملحوظة بين الرجال والنساء، لكن عاجلا أو آجلا قام علماء الكنيسة الذكور بإقصاء النساء من طقس القربان المقدس والمذبح المقدس على أساس «النجاسة الشهرية»: ومازال غير مسموح للنساء في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية أن يصرن كاهنات.

في تقاليد مختلفة مازال يجري توظيف المينوفوبيا، الخوف من دم الحيض، لإبقاء النساء بعيدا عن مناصب معينة. كان ومازال الخوف من الحضور المدنس للنساء الحائضات أقوى ما يكون في المجتمعات التي يشعر فيها الرجال بأن سلطتهم في خطر: فيشعرون أنهم مجبرون على تجنب دم النساء وغيره من المواد الأنثوية الخطرة بقدر المستطاع. وفي حالة وقوع التدنيس، يحاولون يائسين أن يقضوا على التأثير الضار بأي وسيلة.

173- Uta Ranke- Heinemann1990:21.

174- لمزيد عن الأفكار الإكليريكية الرومانية الكاثوليكية بالتفصيل عن الحيض انظر: Ranke-Heinemann, part II.

بالرغم من (أو بفضل) الاعتقاد الشائع في مخاطر الحيض، مازالت قوة هذا الدم الغامض لدى النساء تخدع هؤلاء الذين لا يملكون الخبرة. لذلك ليس من المدهش، وفقا لبعض الأساطير، أنه في البداية كان الحيض مهمة للرجل:

"منذ زمن بعيد كانت الأشياء مختلفة عن الآن: كانت لدى النساء لحى وشوارب وكان لدى الرجال شيء صغير في أجسادهم؛ شيء بدا أشبه بصَدَفة وكانت تضم مخلوقا حيا. وفي كل شهر كان ذلك المخلوق يجعلهم ينزفون. ولم يكن لدى زوجاتهم ذلك الدفق من الدماء، لكن بالنسبة للرجال كان هذا غير مريح بشدة. لبضعة أيام كل شهر كان عليهم أن يتوقفوا عن أداء الأعمال الروتينية مثل قطع الخشب أو العمل في الحقول. إذ كان من الخطر البالغ بالنسبة لهم أن يخرجوا في وقت الدم؛ لأن النمور كانت تشم رائحته وتأكلهم في الحال.

وذات يوم كان هناك زفاف واستعد الجميع للذهاب إلى الحفل. قالت زوجة شابة لزوجها: "لماذا لا تأخذ لحيتي وشاربي على سبيل التغيير وتعطيني صَدَفتك الصغيرة؟ أحب أن أرى كيف يكون شعور أن يتدفق الدم مني." وافق الزوج وهكذا حدث أن ألصقت الفتاة لحيتها وشاربها على وجه زوجها ووضعت صدفته بمخلوقها الحي داخل جسدها.

بعد الزفاف حاولا أن يعيدا الأشياء التي تبادلاها، لكن الشعر كان قد التصق بوجه الرجل ولم يكن من الممكن إزالة الصدفة من داخل الفتاة. قالت الفتاة: "ليس الأمر سيئا على نحو بالغ، يمكنني الآن الحصول على ملابس كثيرة؛ لأني بحاجة على الأقل إلى سبع طبقات كي أغطي أعضائي. كما أن زوجي يبدو وسيما جدا بهذه اللحية." ثم خرجت وعندما لمستها النساء الأخريات، بدأن أيضا ينزفن ومن ساعتها إلى الآن أصبح لدى كل النساء دورة شهرية.»[175] (هالبا، الهند)

هنا، مرة أخرى، ليس النزيف مسألة ذنب أو عقاب على الإطلاق. وهناك قصص أوروبية شرقية أيضا تتخيل كيف وضع الرب، في البداية، فترة الحيض داخل آدم والنوع الذكري.

175- Elwin 1949: 240.

لذلك كان الدم يتدفق من رُكب الرجال كل شهر أو من عضو آخر في الجسد غير مذكور لأسباب تتعلق بالاحتشام، لكنهم لم يعرفوا كيف يتعاملون مع الحيض (ومع «موضوعات نسائية» أخرى مثل التنظيف أو الطبيخ أو الإنجاب). ولذلك قلب الرب الأدوار. هذه القصص تحكيها نساء بحماس عظيم للتأكيد على الأدوار التقليدية للذكر والأنثى.

في عدد من الثقافات، كان تدشين وختان الأولاد خلال مرحلة البلوغ محاولة لقلب التأثير الخبيث للدم الأنثوي – هذا الذي يلوث كل الرجال بسبب ولادتهم من جسد الأم. على الصبي أن يتخلص من دمها السيء بشق في اللسان عند بداية البلوغ: هذه العملية تسبب نزفا، بالضبط مثل فترة الحيض الأولى للفتاة. لقد تم اختيار هذا الجزء من الجسد لأنه كان قد تلوث بشكل خطير من أثر لبن ثدي أمه الذي شربه الصبي منذ يوم مولده. وبفضل شق اللسان، سيتخلص بأمان من كل العناصر والتأثيرات الأنثوية الوخيمة خلال طفولته.[176]

في الثقافتين الميلانيزية والأسترالية، جرى تطور قوي للاعتقاد في والخوف من التأثير الخبيث للدم الأنثوي (الحيضي والولادي) بسبب حقيقة أن الرجال والنساء شعروا بالترابط والاعتماد المتبادل على بعضهم البعض. كلا الجنسين كان يضعفهما التلويث «المدنس» للجنس. ومع ذلك كان يُعتقد أن المرأة هي الطرف الأقوى هنا؛ لأن نزيفها الشهري يريحها من هذه العدوى، بينما يحافظ اتصال الرجال المتكرر بالنساء على إضعافهم.

في كتابه جزيرة *الرجال الحائضين Island of Menstruating Men*، يصف يان هوجبين Ian Hogbin المنطق الذي طوره ذكور ووجيو Wogeo (سكان جزيرة شمال بابوا غينيا الجديدة) حول النجاسة الأنثوية في مجتمعهم. بالتأكيد جاءت نظرية للتلوث مفيدة للغاية، حيث مكنت الرجال من إثبات أن النساء أدنى منزلة بشكل طبيعي. لكن على الجانب الآخر، مكنت نفس النظرية النساء من إنزال العقوبات بالرجال الذين صدقوا أن النساء خطرات خلال فترة الحيض. لدى رجل الووجيو الحق في ضرب زوجته، لكنه بفعله هذا يقوم بمخاطرة: ففي فترة حيضها التالية، يمكنها أن تلمس طعامه وتتسبب له في مرض قاتل.

عندما يبدأ صبي الووجيو في ممارسة الجنس، يكون مقتنعا أنه لا يستطيع أن

176- مزيد من الأمثلة والتفاصيل في: Bettelheim 1954:167ev.

يستغني عن «الدورات الشهرية». باتباع إجراء معين، يستدعي نزيفا من قضيبه. يمسك أولا بسلطعون ويزيل أحد مخالبه ويحفظه مع الخل في ورقة شجر حتى اليوم المحدد للنزيف، يوم يصوم فيه. يخلع ملابسه على شاطئ منعزل، ويخوض في الماء حتى ركبتيه، يوسع بين ساقيه وبمجرد أن ينتصب؛ يدفع القلفة إلى الخلف ويجرح حشفة القضيب بمخلب السلطعون، أولا على اليسار ثم على اليمين. وعندما يبدأ الجرح في الجفاف ويكف ماء البحر عن التلون باللون الأحمر، يسير عائدا إلى الشاطئ حيث يلف قضيبه بورق الشجر. ولا يُسمح له بممارسة الجنس حتى يطلع الهلال الجديد التالي.

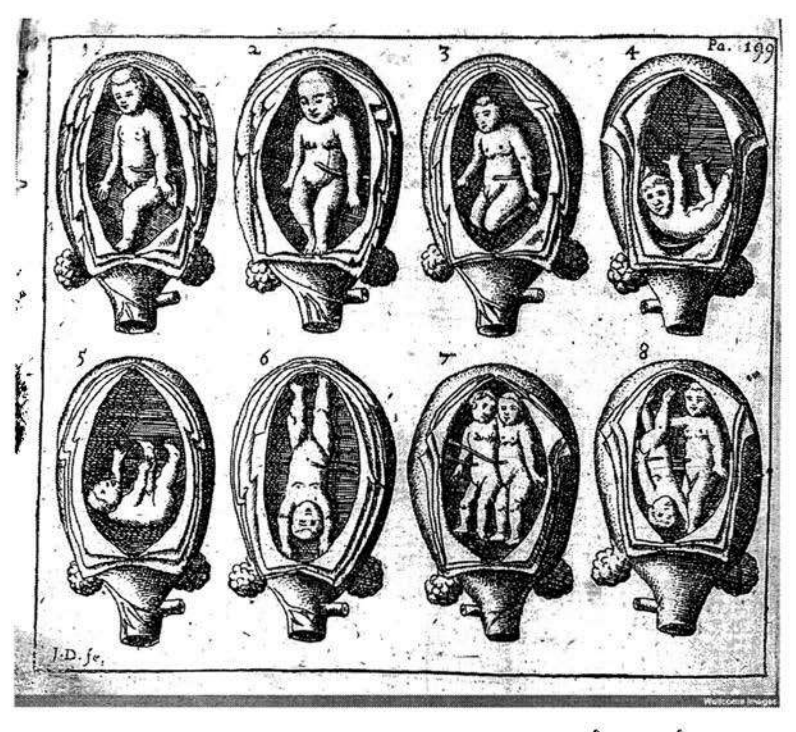
بالنسبة لهؤلاء الذين يؤمنون بالتأثير المرغوب، تبدو هذه العملّية التقليدية ناجعة: فبعد النزف يتألق جسد الرجل بالطاقة والثقة بالنفس. ومن الطبيعي بالنسبة للمحاربين أن يقوموا بجرح أنفسهم كي ينزفوا قبل الذهاب إلى أي غارة؛ وللتجار قبل بناء زورق من أجل رحلة عبر البحار، وللصيادين قبل نسج شبكة جديدة للإمساك بالخنازير البرية. هكذا خلق الرجال طقسهم الحيضي الناجح في ثقافات طورت بقوة اعتقادا في وخوفا من التأثيرات الضارة لدم الحيض والولادة الأنثوي.[177]

أما عن قائمة الكوارث العالمية التي تسببها النساء الحائضات، فنحن نأمل أن تكون أغلبها الآن قد تقلصت إلى مجرد هوامش للتاريخ الثقافي المحلي. ثمة طرفة عائلية قديمة من جنوب الولايات المتحدة تقدم وصفة بسيطة للنساء اللاتي يشعرن بالقلق من احتمال هروب الحبيب بعيدا: فقط ضعي «ملء ملعقة من (وقتك الشهري) في قهوته بانتظام»، ولن يتركك أبدا. والدليل متوفر في نهاية القصة: «مات عمك بين ذراعي زوجة عمك وأحبها حتى النهاية.»[178]

إن الأفكار عن الدم وفقده مقيدة بالثقافة، لكن من الجلي أن أسلافا كثيرين كانوا قلقين للغاية من دم الحيض لدرجة أنهم اتخذوا إجراءات صارمة لإبقاء عالمهم قابلا للعيش. لقد أثبت الحيض تدريجيا أنه وسيلة فعالة للحط من شأن النساء وإبقائهن خارج المجال العام. ومع ذلك، يظل نزيف النساء مثيرا للذهول والرهبة: نعم، هن ينزفن كل شهر، لكن بعد ذلك يتوقف الأمر فجأة بينما في ظلام ذلك الرحم الغامض تبدأ حياة جديدة في التحرك.

177- Ian Hogbin, *The Island of Menstruating Men*, 1970:96ff.

178- Matthew Kirksey, quoted in *Blood Magic*, p.35.



أجنة في أوضاع مختلفة. في: جين شارب، كتاب القابلات، 1671.

6

مستودع أسفل السرة

تلك التي تترك طفلا خلفها، تعيش للأبد. (تشاجا، تنزانيا)
المرأة التي لديها مستودع أسفل السرة، لن تموت أبدا من الجوع أو البرد.

(السفارديم، إسبانيا/البرتغال)

في الكونغو، طلبت من طلابي في الصف الأول أن يكتبوا مقالا عن «الغرض من الحياة». اتفقوا بالإجماع تقريبا أن الذرية إلى حد بعيد هي الأهم في الحياة. وخلال مناقشاتنا تبين أن أكبر مخاوفهم (لم تكن هناك أي فتاة في المجموعة) هو أن يكون مستودع زوجة المستقبل مغلقا. بالطبع يمكن أن يكون الرجال عقيمين أيضا، لكن اللوم كان يوضع بثبات على النساء.

تُمتدح الخصوبة والحمل في كل الثقافات. في الأمثال الشعبية، تقارَن المرأة التي بلا أطفال في فظاظة بخيمة دون أوتاد (لادينو/لغة يهودية إسبانية)، وبيوم لا شمس له (تشيكي)، وبقرة دون جرس (ألماني) وشجرة بلا طيور (تايلندي) وزهرة وحيدة على قمة جبل (فيتنامي) وهكذا.

في القصص، تبحث النساء اللاتي بلا أطفال يائسات عن حل لنقصهن الكارثي:

"كن يصبحن حوامل عندما يكن في جوار أماكن معينة: الصخور، أو الكهوف، أو الأشجار، أو الأنهار. دخلت أرواح الأطفال أجسادهن وأصبحن حوامل. وسواء كانت أرواح هؤلاء الأطفال هي أرواح الأسلاف أم لا، ثمة شيء واحد أكيد: أنهم كانوا ينتظرون كل هذا الوقت ليصبحوا بشرا، ينتظرون مختبئين في الشقوق أو التجاويف، في البرك أو الغابات. كانوا قد عاشوا بالفعل نوعا من الحياة

الجنينية في رحم أمهم الحقيقية، الأرض.»[179]

ذلك كان هو المكان الذي جاء منه الأطفال. وهذا هو السبب، كما اعتقد الأوروبيون في القرن التاسع عشر، في أن الأطفال كانوا يُجلبون بواسطة حيوانات مائية – سمك أو ضفادع – أو بواسطة طيور، خاصةً اللقالق.

الحمل المعجزة

حالات الحمل الإعجازية ابنة كل العصور والثقافات. يستكشف رواة الحكايات التشريح البشري ويقاربون القوى الخالقة للحياة بفضول. في قصة لهنود بانيوا من البرازيل تغدو المرأة الأولى حبلى بعد أن ضغطت برقة عصاة على خدها. وفي إطار رغبتهن في أن يصبحن حوامل، تبحث بعض النساء عن المساعدة في أماكن غير عادية، وتبحث أخريات في مشروبات أو أطعمة معينة. أو يقابلن روحا أو ملاكا، قبل أن يجيء طفل إلى الحياة داخلهن. تعكس حالات الحمل غير المعتادة الدهشة البشرية الثابتة تجاه قدوم الحياة الجديدة إلى الوجود.[180]

أحيانا يجري التوسل بالنجوم أو الشمس أو القمر، بالرياح أو البرق، بالأسلاف أو برموز القوة. وتُقدَّم القرابين إلى سلسلة عريضة من الكيانات. وأحيانا تكون المسألة متعلقة بالاتصال المخصب بأثر قدم معين في صخرة أو حجر، قد يكون أثر قدم آدم أو بوذا، أثر قدم علي بن أبي طالب أو القديس المسيحي توماس.

ثمة امرأة صينية كانت قد رأت أثر قدم بشرية هائلة فأرادت ابنا له نفس الأبعاد المثيرة للإعجاب:

"وقفت المرأة ساكنة حيث كان الرب الأعلى قد ترك أثرا لإصبع قدمه الكبير وفي تلك اللحظة، في ذلك المكان، أحست كيف انقبض جوفها – وممتلئة بالدهشة الدينية العميقة – أدركت أنها حامل.»[181]

179- Mircea Eliade, *Myths, Dreams and Mysteries*, 1960:164- 165.

180- Weigle 86ff.

181- P.Saintyves, *Les vierges mères*, 1908:22ff.

هناك قصص لا تُحصى عن أشخاص يتصلون بقوى الحجر: فالأحجار صلبة، لا تموت، بينما الجنس البشري فان. لا عجب أن النساء الشابات يتركن أجسادهن تنزلق على الأحجار أو يتوجب عليهن أن يقفزن فوق صف كامل من أحجار الخصوبة كي يصبحن حوامل. في مدينة رين الفرنسية يوجد حجر معروف باسم *La Pierre des Epousées*/*حجر العرائس* وقرب مدينة فردان توجد صخرة معروفة باسم (مقعد سانت لوسي). يقال إن هذه القديسة قد تركت أثرا لجسدها هناك وأن النساء اللاتي يرغبن في أن يصبحن حوامل ينبغي أن يجلسن ببساطة على هذا المقعد.

وبين المسلمين توجد فكرة شبيهة في مكان قرب تونس، حيث تقع مقبرة سيدي فتح الله الشهيرة. تذهب النساء اللاتي لا أطفال لهن هناك، مخاطرات بحياتهن؛ لأن الصخرة منحدرة وزلقة. بل إن بعض النساء يفعلن ذلك بصورة متكررة. يوم السبت، يوم هذا الرجل المقدس، يتوسلن إليه أولا وبعد ذلك يدعكن بطونهن بحجر مسطح.

إلى جانب الأحجار المعززة للخصوبة، توجد أنهار وبحيرات وينابيع لها نفس التأثير. يمكنك أن تشربي ماءها المميز جدا أو تغمري جسدك فيه. بالصدفة يمكن لينبوع أن يجعل النساء تحبل بعد أن يكون إله متعاطف قام بإضافة بضع قطرات من المنيّ إلى مائه.[182]

تتضخم أهمية الخصوبة في المزارات المهيبة، مثلا في ثقافة الهندوس الهندية. تصلي النساء العقيمات غالبا للإله شيــفا، إله القوة الخالقة والخصوبة. شعاره هو اللينجام، الذي يمكن العثور عليه على نواصي الشوارع أو في المعابد، ويتخذ شكل حجر منتصب. في مدينة ثانجافور الهندية الجنوبية يوجد معبد شهير، عمره أكثر من ألف عام، مخصص لشيــفا، وبه لينجام ارتفاعه 8.7 مترا، واحد من أكبر اللينجامات في العالم. تُصنع اللينجامات بكل الأحجام، وتُدعَك بزيت خاص، وتغطى بالزهور والعطور، وتقدم لها القرابين، ويسجد الناس أمامها. تقضي النساء العقيمات ليلة في المعبد في حجرة خاصة محجوزة لهن. وهنا، في الظلام، يزورهن الإله شيــفا. الجزء الداخلي من المعبد، قدس الأقداس، يُسمى كاروفاري، وهي الكلمة التاميلية

182- أمثلة كثيرة في: Mircea Eliade, *Naissances mystiques*.

التي تعني «حجرة الرحم»، وتعني كلمة كارو الجنين.[183] في طقوس كثيرة تكفي لمسة بسيطة. باختصار، يوجد عدد مذهل من القصص عن حمل لا يلعب فيه الرجال أي دور.

في العديد من قصص البدايات لم تكن هناك في بداية الزمان غير النساء. أو بلاد لا تعيش فيها غير النساء، اللاتي تمكنَّ من العيش على نحو طيب دون رجال. ويُحكى لنا كيف جاء الحمل في هذه المجتمعات. في الهند وتايوان، يقال أن النساء جرى تخصيبهن بواسطة الزنابير أو بواسطة سُرَّات ناتئة كانت لدى بعض النساء. أو أنهن استمنين بأنفسهن أو مع بعضهن البعض مستخدمات أعضاء خشبية.

واعتُقد أيضا أن الرياح كانت مخصبة قوية، رغم أن بعض التنويعات تحدد أن عاصفة فقط هي من كان لديها التأثير المرغوب. حدث الأمر بهذه الطريقة: المرأة التي أرادت أن تصبح حاملا تسلقت جبلا أو وقفت فوق سطح بيت، ومالت، ورفعت تنورتها، وهبت الرياح حول فرجها. ونما طفل «عفويا» في بطنها.

في مثل هذه القصص قامت وجهات النظر الذكورية السائدة بالتعليق برفض واضح لوجود مثل هذه المجتمعات الأنثوية المتخيلة. واعتباراتهم مشوبة بالخوف – الخوف من أن يكونوا غير ضروريين لعملية التخصيب. قيل إن هؤلاء النساء كن كارهات للرجال، وأنهن كن يبكين كلما وُلد ولد رضيع بدلا من فتاة؛ وأنهن كن يقتلن على الفور كل الرضع الذكور الذين كن يلدونهم دون تدخل من ذكر. كان هؤلاء الأولاد الصغار المساكين يُمزَّقون إربا أو تُصَب فوقهم مياه مغلية. والأمثلة أعلاه ليست إلا أمثلة قليلة من سيناريوهات عديدة أكثر هولا.[184]

يجري التعبير عن التخوف الذكوري المنكشف في تلك القصص في تنويعات لردَّي الفعل المألوفين اللذين يناقض أحدهما الآخر. أولا، التحذير من السلطة الأنثوية غير المسبوقة، التي من المفترض أنها موجهة نحو تدمير الرجال: فقط انظر؛ إنهن يبدن الصبيان الرضع. أما رد الفعل الثاني فهو الاحتياج غير المحدود للتقليل من شأن النساء: لا، لا يمكنهن البقاء وحدهن تماما، دون رجال. الفتيات اللاتي يلدنهن منحطات

183- مزيد من الأمثلة في: Saintyves.

184- E.g. Lederer 105.

وبلا قيمة، وهؤلاء النساء غير قادرات بالقطع على ولادة صبي رضيع لائق وبصحة جيدة. النساء اللاتي يستمنين فقط مستخدمات قضيبا خشبيا لن يلدن إلا أطفالا بلا عظام، لن يعيشوا أكثر من بضعة أيام. لا، الذرية الذكورية الصلبة تتطلب جهدا ذكوريا حقيقيا. تعكس مثل هذه القصص التوازن غير المستقر بين الولادة والأداء الذكوري. في سيناريو الحالة الأسوأ، يرتبط الخوف من انعدام الضرورة بالخوف من السلطة الأنثوية. إنه شيء بشري تماما أن تدحض هوسا مخيفا باختراع المزيد من القصص المطمئنة لكي تبطل هذه المخاوف.

المساهمة الذكورية

إن فكرة أن الأمهات فقط هن من صنعن الأطفال ربما تكون هي الفكرة الأقدم، لكن مع الوقت جرى تضخيم الإسهام الذكوري إلى حد كبير، دون شك بفضل ظهور المجتمعات الأبوية. ينعكس هذا التطور في الأساطير وكذلك في النصوص الأدبية. *إيومينيديس* *Eumenides* (451) ق.م هي الجزء الأخير من ثلاثية من التراجيديات حملت اسم *أوريستيا* *Oresteia* للكاتب المسرحي اليوناني إيسخيلوس. كانت المسرحيات الثلاث تؤدى معا خلال مهرجان ديونيسوس السنوي في أثينا. في مسرحية إيومينيديس، تطارد ربات الغضب أو الانتقام أوريست بعد أن قتل أمه كليتيمنسترا، لكن أبوللو يقف مدافعا عنه:

> «الأم لما يُدعى بطفلها، ليست والدا له، لكنها مربية فقط للحياة الصغيرة المبذورة بداخلها. [...] الوالد هو الذكر، وما هي إلا غريبة، صديقة، تلك التي لو وفر القدر نبتته، لحفظها حتى تنمو.»[185]

هذا الاعتقاد من أصل مصري، وفقا للمؤرخ ديودوروس الصقلي (حوالي 90 - حوالي 30 ق.م) الذي لاحظ أن «المصريين يرون الأب وحده هو موجد الجيل، ولا تقدم الأم غير العش والتغذية للجنين.»[186]

185- Aeschylos, *Eumenides* , lines 657- 61, quoted in Needham 25.

186- Ibid.

من المناسب هنا أن نعود للحظة إلى عالم الآلهة اليونانيين، وهو عالم إلهي لم تكن فيه حاجة للتشريح الأنثوي من أجل التناسل. في عمله حول أصل الآلهة، وصف الكاتب هيسيودوس Hesoid (منتصف القرن الثامن ق.م) ميتيس الزوجة الأولى لزيوس كبير الآلهة بأنها أحكم من كل الآلهة والبشر. ومع ذلك، بعد النبوءة القائلة بأن ملك الآلهة سيفقد سلطته لصالح طفله الثاني، نصحت الأرض والسماء زيوس بابتلاع زوجته المنتظرة: وعندئذ فقط ستظل قوته أعلى من كل الآلهة الخالدين. وخوفا من أنها قد تأتي له بشخص أكثر قوة من سموه القاذف للبرق، ولأسباب أمنية قبض زيوس على شريكته الحامل بيديه الاثنتين والتهمها لكي يتحكم في السلطة.

ومن داخل جوفه أمكن لميتيس أن تستمر في إمداده على نحو كريم بالنصح الحكيم، وفي الوقت المناسب أنجب هو نفسه من رأسه ابنة، أثينا لامعة العينين. قام الحداد هيفايستوس بشق جمجمة زيوس ومن رأس أبيها قفزت الربة الفخورة، مسلحة بالكامل، أو بكلمات هيسيودوس نفسه:

> "الرهيبة، مثيرة الفتن، قائدة الحشد، التي لا تمل ولا تكل، الملكة التي تبتهج بأعمال الشغب والحروب والمعارك، ملكة مخيفة تأتي بصوت الحرب، ودون كلل، تقود الحشد."[187]

إن قصة ميتيس الحامل التي تختفي حرفيا من المشهد وتترك ولادة طفلتها لزوجها، تذكرنا بأسطورة الخلق التي ظهرت فيها أم كل البشر، حواء، من جسد آدم. كان زيوس إلها وآدم بشريا، لكن في كلتيّ الأسطورتين تولى أمر ولادة الأنثى الشخص الذكر.

تلعب بعض القصص بهذا التغيير في الأدوار أو تصنع نكاتا حوله. مثلا، يصبح كوماربي إله الحيثيين حاملا عندما يبتلع دون قصد بعضا من منيّ خصم بينما كان يضربه بشدة على بطنه. والإله الياباني المذكور آنفا سوسانو وأخته إلهة الشمس أماتيراسو يتنافسان على إنتاج آلهة جدد عن طريق تبادل الأشياء وتحطيم سيفه أو جواهرها. تقفز الذرية الإلهية من فميهما – حيث تنتج هي ثلاث فتيات وهو خمسة

187- Hesiod, *Theogony* 925- 26.

أولاد. تطالب هي بالأولاد وتترك الفتيات له؛ لأن الأولاد خرجوا من جواهرها بينما خرجت الفتيات من سيف أخيها.[188]

بعيدا عن تجشؤ الأطفال من أفواههم، يوفر إبط الرجال أحيانا رحما بديلا. أو تجويف رُكبهم، كما في حالة شعب اليامي في تايوان، حيث يخرج أحد الرجال الأوائل من حجر ويخرج رجل آخر من جذع بامبو.

"كان لديهما قضيبان طويلان جدا ملتصقان بمفاصل رُكبهما. انتفخت مفاصل رُكبهما وأصابتهما بالحكة، وبعد فترة بدأت تلد. انبثق ولد من الركبة اليمنى لابن البامبو وبنت من ركبته اليسرى. كبر هذان الطفلان وتزوج أحدهما الآخر.»[189]

تختار قصص الإسكيمو حلاً شامانيا. بعد كارثة عالمية دمرت كل شيء وكل إنسان، ينهض كاهنان شامانيان بالغان من كوميّ تراب. يعيشان معا وسرعان ما يصبح أحدهما حاملا. ويغني الرجل غير الحامل أغنية طاقة سحرية من أجل شريكه الحامل:

"كائن بشري هنا
قضيب هنا.
فلتكن فتحته واسعة
وفسيحة.
فتحة، فتحة، فتحة"[190]

وقف تشريح الجسد الذكوري في طريق الولادة، وكان تغيير الجنس أمرا لا مناص منه. وبالتالي كان من اللازم لقضيب الرجل الحامل أن ينشق منفتحا على اتساعه ويتحول إلى بوابة للحياة، قبل أن يتمكن من الولادة.

188- Hesiod in Baring and Cashford 333ff; Pierre Lévêque, 31ff.

189- Arundel Del Rei, *Creation Myths of the Formosan Natives*. Tokyo: The Hokuseido Press 1951:39- 41.
اليامي شعب متصل بالإندونيسيين. انظر أيضا: Baumann 221- 224.

190- Iglulik Inuit, Canada. Source: Knud Rasmussen, *The Netsiluk Eskimos* 1931:209.

هؤلاء الذين لم تكن لديهم قدرة على الولادة احتكروا التناسل في المجتمعات التي كانوا متولين فيها للسلطة. ولا تنعكس العواطف والتوترات التي يستثيرها الرحم فقط في أساطير الخلق ووجهات النظر الدينية، بل أيضا في ثروة عالمية من الأمثال الشعبية. وفي هذه الأمثال تأتي مجازات الحاويات مثل الآنية والمزهريات والحقائب واليقطينات ومقالي الأرز وأشياء أخرى كثيرة تشير إلى الرحم مزودة بأغطية وأقفال مجازية تحمي الرحم، وتقيه من المخاطر القادمة من الخارج.

كان على الأساطير أن تؤكد الأدوار الخاصة بالرجال والنساء في العملية، بدعم من الأمثال من أجل الحفاظ على الأخلاقيات السائدة بصور قوية، من منطلق التردد حيال الإجابة المرغوبة لسؤالين هامين. كان السؤال الأول لمن كان الطفل الذي في الرحم؟ تعلن أمثال كثيرة على الدوام أن المرأة ينبغي أن تتزاوج فقط مع زوجها:

لا يستطيع فرسا نهر ذكران العيش في بركة واحدة. (ماندينكا، مالي)
لا يمكن أن يكون هناك إلا نمر واحد في كل كهف. (إسباني، السلفادور)
لا يقضي دُبَّان ذكران فترة البيات الشتوي في عرين واحد. (ياكوتسك، روسيا)
لا تطبخ عظمتين كبيرتين في نفس الإناء. (أوڤامبو)
عين الإبرة لا يمكنها أن تحمل خيطين. (عربي)

إن المجازات المختارة التي تشير إلى التشريح الذكوري والأنثوي تستحضر التهور وغياب التحكم الأنثوي الخطر بالإصرار على أن العلاقة الأحادية لازمة بالنسبة للنساء. أما الرجال الخائنون والرغبات الذكورية فتقابَل بتفهم كبير في مقولات مثل: «لا يمكن لوم اللص إن وجد البوابة مفتوحة» – وهو مثال من كولومبيا. أو يجري تبرير ذلك بالمجادلة بأن هذه هي «طبيعته»، خاصةً في الأوقات العصيبة: «في الطقس العاصف يبدو كل ثقب وكأنه مرفأ» وفقا لحكمة من المكسيك. وتقول حكمة تيلوجوية من الهند: «النساء والمال يغريان حتى براهما الخالق.» وكيف يمكن لرجل أن يقاوم إذا كانت حتى الآلهة لا تستطيع؟ أما الجدال بأن الحضارة لا يمكن أبدا أن تنجح دون التحكم في النفس فيبدو بعيدا أشد البعد في مثل هذه الحجج.[191]

191- See Messages of Metaphors, chapter 5 of *Never Marry a Woman with Big Feet* (in the original Yale edition, 2004).

يرتبط السؤال الثاني الهام بالسؤال الأول: إلى أي حد يسهم العنصران الذكري والأنثوي في تبرعم الحياة الجديدة داخل الرحم؟ وبما أن هذا السؤال ليست له إجابة بسيطة، لا تدخل الأمثال في الموضوع بالفعل. في الأغلب كان الفلاسفة والباحثون هم من حاولوا حل القضية.

طوال التاريخ قامت السلطة الدنيوية والأفكار الدينية بتطويع العلم لمصالحهما، وبفضل التقديرات الشخصية للسمات الجسدية، مع كون الدم والمنيّ هما أبرز المكونات: جرى تصنيف السوائل الذكرية في مرتبة أعلى من السوائل الأنثوية. في قصة يهودية، متأثرة لا شك بأرسطو (القرن الرابع ق.م)، يأمر الرب الروح بالدخول إلى المنيّ قبل حدوث الحمل. لا يروق للروح النزول في ذلك المني «النجس»، لكن الرب يجبرها على الدخول فيه. متسربلة بالخلية التناسلية الذكرية، تصل الروح – الأعلى (لأنها الجالبة للحياة) – داخل الرحم حيث سيتخذ الكائن البشري شكلا.[192]

وفقا للإسلام لله فقط القدرة على خلق الحياة. في القرآن تأتي النطفة من الوالدين كلاهما وتمتزج في الرحم وتخلق الحياة هناك، وهي رؤية مستقاة من نموذج أدوار يوناني آخر – أبقراط. هذا النموذج من الحمل ثنائي النطفة يعارض فكرة أرسطو عن أن الرجال هم الذين يدخلون نَفَس الحياة أو «الروح» في الرحم. في العصور الوسطى فضّل العلماء المسلمون تلك الفكرة الأخيرة، التي تتقلص فيها إسهامات النساء في العملية، بينما يجري التأكيد على دور الرجال بطرق مثيرة للاستغراب:

"تملك معرفة وخبرة الرجال بجسد الأم أسبقية على خبرة النساء، وإلى حد ما، المعرفة الكلية للرب. في تناقض مع القرآن، تقحم الكتابات الطبية نفسها بين الله وبين الرحم لكي تؤكد على شراكة حميمية وغامضة كانت بعيدة المنال عليهم فيما سبق.»[193]

كما ناقشوا بشكل موسع القضية المحيرة المتعلقة بالسبب في كون طفل ما أقرب شبها بأحد الوالدين دون الآخر. وبسبب المخاوف الأبوية مالوا إلى استنتاج أن الأب هو من يحدد الملامح الجينية للطفل. هل تثبت التشابهات المظهرية إذًا أن امرأة ما لم

192- Ginsberg, *The Legends of the Jews*, Vol. I: 56- 57; Steenbrink 44.

193- Kueny 73.

ترتكب الزنا؟ وهل تراها كانت خائنة إن لم يشبه الطفل أيا من الوالدين؟ يعارض هذا المنطق الإشكالي والمرتاب أيضا الشرط القرآني بأنه لإثبات الخيانة لا بد أن يكون هناك أربعة شهود.

هل كان الطفل سيبدو أقرب شبها لمن بلغ ذروة الجماع أولا من الوالدين؟ رأى البعض أنه من أجل الحصول على أطفال يشبهون أباهم، على الرجل أن يبلغ الذروة قبل المرأة، وبرعشات جماع أقوى. لكن ومن ثمَّ؟ لماذا تكون خلية منيّ أقوى من الأخرى؟ كان الأمر مربكا تماما. لكن شيئا واحدا كان أكيدا: كانت النطفة «القوية» تنتج ابنا يبدو أشبه بوالده، ويزيد من مكانة الأب إلى درجة كبيرة، بينما كانت البنات تؤثر على ذكورة الأب. (المزيد في الفصل العاشر).

سيرًا على نفس الخط الفكري، فإن الأطفال الذين كانوا يشبهون أمهاتهم (أو لا يشبهون أيا من الوالدين) لا بد وأنهم كانوا نتاج نطفة ذكرية ضعيفة غير قادرة على التغلب على الإسهام الأنثوي. ولمنع مثل هذا السياق غير المرغوب من الأحداث، فضَّل علماء الطب المسلمون الآراء الهيراركية التي كان الإسهام الذكوري فيها أعلى شأنا، بينما كان الجسد الأنثوي وعاء سلبيا وتابعا ليتحكم فيه ويهيمن عليه الرجال الذين يجسدون «جهود المعبود العصية والتي تفوق الوصف لإنتاج الحياة»، مع كون الأطفال الذين يشبهون آباءهم (بدلا من أمهاتهم أو شخص آخر) معادلين للحياة التي يأمر بها الله:

> "من أجل تهدئة المخاوف الأبوية، يرى الأطباء الذكور الحاجة لنفي التأكيد على الدور التناسلي للأم، التي تصبح متلقية سلبية لبذرة الذكر المتغلب والتي لا بد أن تولّد طفلا يشبه الأب الذي أنجبه [...]. تناقض هذه الآراء القرآن حيث يُظهر الله سيطرة كاملة على الرحم ومحتوياته، أو يدعو النساء للمشاركة معه في إنتاج الحياة. في سياق الوحي، يمكن للأطفال أن يشبهوا الأمهات أو الآباء أو الأجداد أو لا أحد على الإطلاق. ومع ذلك، في العالم اليومي لا بد أن يعمل الأب على تأسيس الاتصال المهيمن مع طفله، حتى لو كان يعني قمع القدرة التناسلية للمرأة، متهما إياها بالزنا، أو رافضا ذريته على أساس هذا

التشابه.»[194]

في القرآن فقط الله هو من يملك سلطة بلا حدود على الرحم ومحتوياته، لكن في المناقشات الدنيوية حول علم الوراثة، جرى تقديم الرجل كإله ثان. أما فكرة عدم استطاعة الرجال إنتاج الذرية وحدهم، فأدت إلى تأويلات تختزل الرحم إلى مستودع سلبي لمنيّ الرجال الجالب للحياة. ليس فقط في الإسلام، بل في الديانات التوحيدية الثلاث؛ يجد المرء عبارات لاهوتية تتجاهل بوضوح حواء أو إسهامها في العملية، مع التأكيد بحماس على أن البشر كلهم جاؤوا من حقويّ آدم (ما يعني: منيّه) أو أن عموده الفقري احتوى «المخزون الكبير للجنس البشري».[195] على من خُلق أولا أن يمتلك سلطة على المخلوق تاليًا. استمر اللاهوتيون اليهود والمسيحيون والإسلاميون في ترديد هذا القول المأثور على أساس تأويل مشترك لقصة خرجت فيها حواء من أحد ضلوع آدم أو من جسده مباشرةً.

ليس فقط في قصص آدم وحواء، بل كذلك في قصص أخرى جرى التأكيد على الماكياج الهيراركي المرغوب للمجتمع بعدد من الطرق. جرى اختزال الجسد الأنثوي إلى مجرد حامل للبشري المصغر، الذي أدخله الرجل في هيكلها الجاهز. لا حمل دون البذرة. وفي حالات الطوارئ يمكن لوعاء حيواني أن يتولى وظيفة الرحم. يحدث هذا مثلا في قصة هندية حيث يكون الرجل الأول وحيدا للغاية بعد أن تموت المرأة الأولى. وتكون الأشياء الوحيدة الباقية له هي بقرته وبطانية رفيعة. وذات ليلة ينزل منيّه في حلم ساخن وفي الصباح التالي ينشر بطانيته كي تجف على السطح. تشد البقرة البطانية من السطح، وتأكلها وتصبح حاملا. وبعد ذلك تلد ولدا وبنتا. بلا أم بشرية يصبحان أول أسلاف قبيلة جادابا.[196]

بوحيٍ من قصص الأسلاف والقيم المجتمعية الشائعة، تمسك العلم أيضا بأفكار

194- Kueny 2013: 52ff.

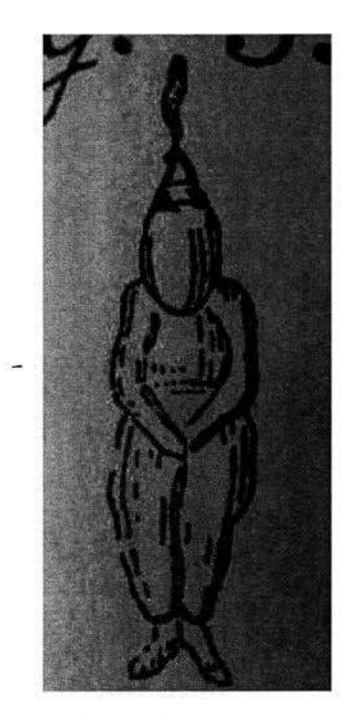
من أجل ثروة من المعلومات عن الأفكار الإسلامية القروسطية، انظر: Mapping the Maternal Body، الفصل الثاني من كتابها الرائع: *Conceiving Identities*.

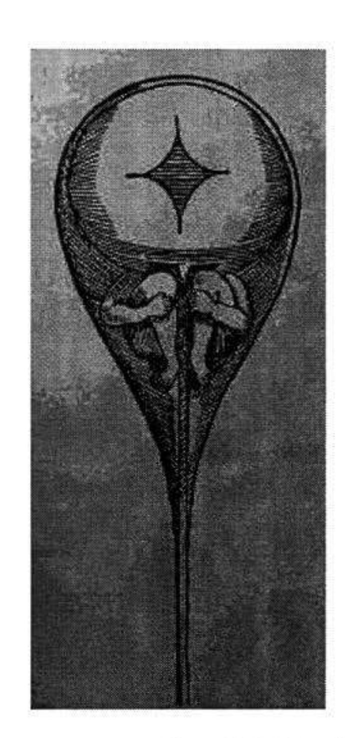
195- هناك معلومات موسعة في كتاب *Overal Adam en Eva* (آدم وحواء في كل مكان). انظر أيضا:
Robert McElvaine, Eve´s Seed, 2001.

196- Elwin, 1949:35.

معينة. هذا التاريخ آسر وكاشف معًا، ويعكس الجاذبية الطاغية لآراء أرسطو طوال القرون. فحتى القرن السابع عشر ظل علماء غربيون محترمون متمسكين بفكرة أن الرجل هو من يُودِع الحياة البشرية (أو الروح، الجزء الأعلى من الكائن البشري) في الرحم. أو ربما الطفل الكامل الذي لم يولد بعد. العالم الهولندي أنتوني ڤان ليـڤينهوك (1632-1723) Antoni van Leeuwenhoek وضع منيّه تحت المجهر ورآه يتحرك. وعلى نفس منوال أرسطو استمر ليـڤينهوك في اعتبار الخلايا التناسلية الذكرية هي الجالبة للحياة والأعضاء الجنسية الأنثوية مجرد غذاء لخلية المنيّ النامية – بالضبط مثل أغلب أسلافه. أما زميله في جامعة دلفت: راينير دي جراف (1641-1673) Reinier de Graaf فقد درس بعناية حالة حمل خارج الرحم ولاحظ وجود bollekes (كريات) في «مبيضيّ» المرأة (أو خصيتيها كما أسماهما) مثبتا بذلك أن هذا الجزء من الجسد الأنثوي كان يحتوي على خلايا بيضه الخاصة. هكذا أخيرا أصبح واضحا بما لا يقبل الإنكار أنه ليس فقط الخلية التناسلية الذكرية بل الأنثوية أيضا تسهم في الحمل. استنتاجه ذاك، الذي سرعان ما أكده آخرون عديدون، أثار مناقشة علمية متوترة حول ما إذا كانت خلية المنيّ في النهاية تسهم بشكل أكبر في ظهور الجنين من البيضة الأنثوية. من الواضح أن المصالح المتصارعة كانت متورطة في النتيجة. حتى في بدايات القرن الثامن عشر استمر علماء عديدون في زعم أنهم قد رأوا تحت المجهر بشرا صغارا للغاية في الحيوانات المنوية الزاحفة، بشرا كاملين بأذرع وسيقان ورؤوس.[197] وهناك سبع رسومات «تثبت» للبشرية أنهم كانوا على حق.

197- Needham 183ev. The drawing by Hartsoeker is on p.184, the one by Francois de Plantade (Dalempatius was
his writer's name), copied from the one by Antoni van Leeuwenhoek, op p.183.





رسمتان لحيوانات منوية حية بداخلها بشر صغار.
على اليمين: داليمباتيوس (1670–1741)، وعلى اليسار: نيكولاس هارتسوكر (1656–1725).

في كتابها الغني بالمعلومات مذكر/مؤنث *Masculin/ feminine* بحثت الأنثروبولوجية فرانسواز إريتييه Héritier Françoise عن أصل الاختلاف في تقدير الرجال والنساء. وهي تعترف بالاختلافات الكبيرة بين الثقافات، لكنها تلاحظ أيضا أن السلطة في كل مكان كانت تقوم (ومازالت غالبا) على «إدارة التناسل، وبالتالي إدارة الخصوبة الأنثوية، وبشكل خاص إدارة القدرة الأنثوية على الحمل بالأبناء لصالح الرجال غير القادرين على فعل ذلك بأنفسهم.»[198] طوال التاريخ حالت هذه الحاجة المبهمة للهيمنة والتحكم دون أن تقوم أطراف مهتمة عديدة بالبحث غير المغرض وغير المتحيز.

198- Françoise Héritier, *Masculin/Féminin II. Dissoudre la hiérarchie*, 2002: 288.

في أغلب أساطير الخلق يوجد نقص في الاهتمام بمتعة الجنس، بينما الرسالة المهيمنة هي الحاجة للتناسل. وكثيرا ما جرى تأكيد هذه الرسالة في أمثال شعبية مثل «النساء والماعز، اخترهن لنسلهن» (إسباني، أمريكا اللاتينية) أو «إن كنت لا تطيق صبرا كي يكون لديك طفل، تزوج من امرأة حامل» (فولاني، غرب إفريقيا).

كان على أول البشر أن يتكاثروا ويزدادوا عددا، كما ذُكر في سفر التكوين بالكتاب المقدس. وهو شيء مفهوم تماماً في عالم خالٍ تقريبا. أحيانا تكون هناك إشارات إلى الجاذبية الجنسية بين الناس. تحكي قصة من بيما الهندية في أمريكا الشمالية أن (الساحر) الذي صنع العالم شكّل بشريين كانا «يشبهانه بعض الشيء ومتطابقان أحدهما مع الآخر في كل جزء.» وفجأة أدرك أنهما لا يملكان أعضاء تناسلية وبالتالي لن يكونا قادرين على الإنجاب. فصحح خطأه:

«لذا شد جزءا صغيرا ما بين ساقيّ التمثال الأول قائلا: "آه، هذا أفضل بكثير." وبظفره صنع شقا في التمثال الآخر. ووضع إحساسا ممتعا ما فيهما في مكان ما. "آه، والآن هذا حسن. الآن سيتمكنان من فعل كل الأمور الضرورية."»[199]

بمتعة أو بدونها – تميل عواقب الجنس لأن تكون مختلفة في النهاية بالنسبة للنساء عنها بالنسبة للرجال. "تخبئ المرأة القضيب، لكنها لن تخبئ بطنها المنتفخ" وفقا لملاحظة لدى جماعة مامبروسي من بوركينا فاسو. لا تدخل الأساطير عادةً في النتائج المختلفة بالنسبة للجنسين، لكن الأمثال الشعبية في كل أنحاء العالم تحذر الفتيات بمجازات واضحة. يمكن للرجل أن يفلت بفعلته، لكن النساء غير قادرات على إبقاء حملهن أكثر سرية مما يمكن للناس أن يخفوا حبهم أو سعالهم أو حدباتهم أو ركوبهم الجمل. وها هي بضعة أمثال أخرى:

تستقبل البقرة الثور في السر، لكنها تلد في العلن. (كردي)

يكشف اللسان عما أكله. (لوندا)

199- Richard Erdoes & Alfonso Ortiz, *American Indian Myths and Legends*, 1984:46 (on the basis of fragments from the 1880´s)

النار وحمل الفتاة لا يمكن أن يبقيا سرا. (رواندا)
الحب والحبَل وطلوع الجبل ما يستخبوش (عربي، مصر)

ولكون إنتاج الرحم البشري صغيرا نسبيا، تقارَن النساء في أوغندا أحيانا بحقل البطاطس حيث يمكنك أن تحصد من وقت لآخر حبة بطاطس واحدة أو اثنتين. الأكثر شيوعا هو مجاز الإبريق أو السلطانية أو الحقيبة التي يملأها مالكها الشرعي – ويتم تفريغها في أوقات محددة. لكن إذاً، من يكون المالك، ولمن يكون الأطفال بعد الميلاد؟ "البنت مثل بذرة الفول السوداني، تزيد العشيرة" وفقا لتراث قبيلة وويو الكونغولية: إنها ثمينة بسبب إنتاجها للذرية وأطفالها يخصون الجماعة بأكملها. تفقد هذه الفكرة قيمتها الجماعية في أوقات الفردية المتنامية.

يبدو أن «الاعتلاء» خلال الجنس يتضمن ما هو أكثر بكثير مما في الوضع الجنسي الأكثر شيوعا المعروف بالوضع «التبشيري». هل يعني هذا الوضع أنك رأس العائلة وبالتالي مالك المرأة والأطفال الذين تلدهم؟ في دار السلام كنت أستمع إلى محادثة بين زملاء أفارقة حول مسألة من ينبغي أن «يمتلك» الأطفال بعد الطلاق. قال أحد الرجال: «سيذهبون إلى الرجل، بالطبع، لأنه يكون في المكان الأعلى عندما يُصنعون.» ضحك الجميع، لكن عندما سألته إن كان جادا، قال: «نعم، في تقاليدنا يذهب الأطفال دائما إلى الرجل.» في الكونغو، كنت هذه القاعدة غير المكتوبة غالبا موضع الممارسة.

حتى وقت قريب، ومن المنظور التقليدي لنموذج الذكر يكسب المال والأنثى تهتم بالعيال، كان من الشائع إلى حد كبير في الجزء الغربي من العالم أن يؤول الأطفال آليا غالبا إلى الأم في حالة الطلاق، لكن هذا لم يعد أمرا منقوشا على الحجر. في المجتمعات التي تجري فيها مساءلة تقسيمات الجندر التقليدية، يمنح القضاة الآن عامةً حضانة الأطفال إلى الطرف الذي كان هو الأكثر عناية بوضوح طوال السنين.

الدجاجة والديك كنموذج للزوجين

كانت العذرية الأنثوية الإلزامية ومازالت شرطا صارما للزواج في مجتمعات كثيرة: وأصبحت إطاعة هذه القاعدة شرطا للزواج والأمومة. وكانت الحيلة هي إقناع المرأة بأن العفة الأنثوية مرادفة للأمومة الصالحة، لجعلها تعتقد أن مكانة ذريتها تعتمد

على «فضيلتها»، كما شرحت سارة بلافر هردي Sarah Blaffer Hrdy في كتابها *الطبيعة الأم* (1990) *Mother Nature*.

تتأكد هذه الرسالة بالمجاز العالمي للدجاجات والديكة. حيث يجري إسقاط السمات الأنثوية المرغوبة على الدجاجة والسمات الذكورية الشائعة افتراضا على الديك. ثمة الكثير من التفهم للديكة التي تخون شريكاتها الإناث. حيث يقابَلون بتعاطف مع فسقهم الطبيعي. ويقال إنهم، صغارا أو كبارا، هم نفس الشيء، أليس كذلك؟ لكن الديك نفسه يرفض أي دجاجة تأكل معه بينما هي تضع بيضة خصبها ديك آخر. الشكل المثالي هو أن الدجاجات تعاشر فقط ديكها الخاص، راضية بوضعها كواحدة من شريكات كثيرات لديكها الواحد والوحيد. ولأن البقاء دونه أمر غير خاضع للنقاش، تتجنب الدجاجة الحسَّاسة العراك وتجعل نفسها مستريحة للخضوع. ويجري التعبير عن حبهن الأمومي بمجازات الريش الدافئ والأجنحة التي تضم كل الكتاكيت. أما بالنسبة للجهر بالصوت العالي: تقوم الديكة بالصياح وعلى الدجاجات أن تظل صامتات؛ لأن العكس سيجعل البيت «ينهار» (ياباني) والأسرة «محكوم عليها بالموت» (صيني). ما هي الحكمة؟ «تعرف الدجاجة متى يكون الصباح، لكنها تنظر إلى فم الديك.» كما يقول مثل أشانتي. بصيغة أخرى، دعه يقوم بالحوار، لأنها تضع البيض بالفعل. لا ينبغي أن تخرج الأمور عن السيطرة. والاختلافات في النماذج الجندرية غير مقبولة: فليكن الله في عون الحظيرة التي تصيح فيها الدجاجات ويعتني فيها الديك بالكتاكيت! مع جزيل الشكر والامتنان للمجاز الشائع، يجري فرض الأدوار «الطبيعية» المفترضة على الجميع.

ويجري تعزيز النماذج الصارمة للسلوك الذكري والأنثوي بواسطة أفلام الطبيعة المعاصرة. عند الحديث عن المعاشرة، يخبرنا صوت الراوي أن الذكر يحاول إزالة منيّ الخصم، قبل وضع منيّه، بينما تمضي الحياة الجنسية للأنثى والتي لا تقل تشويقا دون تعليق: «نقابل، بانتظام ممل، الذكر "المهيمن" يدافع عن "أرضه"؛ والتسلسلات الهرمية بين الذكور في وصولهم إلى الإناث؛ ووجود عوالم الحريم. نسمع عن إناث (وذكور صغار) يتخذون أوضاعا خاضعة. ونسمع أمثلة لا نهاية لها عن

صناعة الموطن والمدد الأبوي.»[200]

حيثما يجري ترتيب العلاقات البشرية على أساس من الغرائز القادمة من عالم الحيوان، يتم اختزال الجنس إلى إنتاج الذرية – دون ملاحظة نقدية حول هذه الهيمنة «الطبيعية»، والافتئات والمطالبة بالآخر كملكية خاصة.

الولادة الآمنة وممارسة الحب العاطفية

لقد كان الحمل والولادة دائما أحد أكثر الأسباب دراماتيكية للموت بالنسبة للسيدات والأطفال. وحتى في أيامنا هذه مازالت الولادة نشاطا خطرا: في أفغانستان تموت 460 من كل مائة ألف امرأة خلال الولادة؛ وفي السودان يرتفع هذا الرقم إلى 2054، وفي هولندا يهبط الرقم إلى ستة، وفقا لمنظمة (أطباء بلا حدود) في عام 2013.[201]

منذ آلاف السنين عبر السومريون بالفعل عن المخاوف من المصير الخطر لامرأة ترقد بشكل متكرر لتؤدي عملها: «أم أنجبت ثمانية أبناء، ترقد في ضعف.» لا عجب أن امرأة خصبة كهذه يُخشى عليها من حمل آخر. يعبر شعب هايا في تنزانيا عن الرفض عند الولادة الثامنة: «المرأة التي قالت: "كم ألد بخير وسهولة!" ماتت مع مولد الطفل التاسع.» بالفعل، تضع النساء الحوامل قدما في القبر، وفقا لحكمة تقليدية ألمانية، بينما يلاحظ تحذير فيتنامي أن: «تقف المرأة الحامل على حافة المقبرة» واعتاد الناس الناطقون بلغة بابيامنتو أن يعبروا عن قلقهم من احتمال أن يقتل الطفل الأخير أمه. ورغم أن أغلب النساء والرجال يريدون أطفالا، إلا أن أمنيتهم بلا حدود، وقد يتعجب المرء إن كانت التعليقات التالية جميعها إيجابية:

اثنان يمكنهما صنع عشرة. (مغولي)
تحت نجوم الشؤم تلد المرأة طفلين كل عام. (باشتو، أفغانستان)
كل عام طفل وفي تسعة أعوام اثنا عشر. (بلغاري)

200- Rosalind Coward, *Female Desire* 1984:212ev.

201- More detailed information on https://www.womanstats.org/substatics/MaternalMortality2015copy2.jpg.

ومع ذلك، توجد قليل من عبارات التفاخر حول الرجال المنتجين لذرية كبيرة. وبالفعل، لا يكون الرجال عرضة للخطر في اللحظة التي يصبحون فيها آباء. على العكس، «اللي خلّف ما ماتش» عبارة منتصرة بالعربية. ثمة مثال فريد في مجال هذا الخلود الذكوري هو مولاي إسماعيل من المغرب (1646-1727) الذي أصبح والدا لأربعين ابنا في فترة ثلاثة أشهر، وهو رقم قياسي مطلق، بالضبط مثل الإجمالي المذهل لـ 888 طفل أنجبتهم له بصبر زوجاته ومحظياته الكثيرات. وُلد ابنه رقم 700 عام 1721. وبفضل إنجازه الذكوري منقطع النظير، فإن مولاي إسماعيل معروف في المغرب باعتباره الرجل صاحب أكبر عدد من الأطفال منذ الأزل. بعد موته، بُني ضريح جميل تكريما له في مدينة مكناس. ويقول آخرون إن بطل الأبوة المطلق هو الحاكم المغولي جنكيز خان الذي أنجب أكثر من ألف طفل.[202] يظل الأمر كما يقول المثل: «دائما هناك سمكة أكبر»، لكن هناك شيئا واحدا أكيدا: لم يكن إنتاج الذرية قط سببا مباشرا لموت هذا الرجل أو أي رجل آخر.

إن تاريخ الرحم مليء بالرغبة والمخاوف وغياب الثقة والارتياب والهيبة والمفاجآت غير المتوقعة والمخاطر غير المرغوبة التي تحكم حياة النساء وشركائهم الشرعيين أو غير الشرعيين – حتى اكتشاف حبوب منع الحمل في منتصف القرن العشرين. وُصفت أول حبة في أمريكا خلال خمسينيات القرن العشرين كعلاج لاضطرابات الطمث، مع وجود عرَض جانبي هو «العقم المؤقت». بدا هذا العرَض الجانبي مرغوبا بشدة حتى أن عددا مذهلا من النساء قمن بزيارة طبيبهن الممارس العام شاكيات من مشاكل الطمث. وفي هولندا، دخلت حبوب منع الحمل السوق في عام 1926، وكانت متاحة بروشتة الطبيب منذ عام 1964 فصاعدا.

لا يعني هذا أن التحكم الذكوري في النشاط الجنسي الأنثوي لم يعد على أجندة الولادة. أسرَّ لي مالك مطعم تركي في لندن بمقولة والده المفضلة: «عصاة على الظهر وطفل في الرحم»، فعل ذلك بحرج بالغ، وتوسل إليّ ألا أعتقد أنه يشارك أباه رأيه على الإطلاق. واستمر يوضح لي أنه في الماضي، في موطن مولده، «اعتاد» الرجال أن

202- جنكيز خان (1162 - 1227) كان حاكما (خان) وغازيا. وحَّد القبائل المغولية وبدأ أكبر إمبراطورية في تاريخ العالم. كانت تمتد من الصين إلى نهر الدانوب. وخلال حملاته العسكرية حدثت مذابح جماعية وسط السكان المحليين.

يعتقدوا أن تلك كانت هي الطريقة الوحيدة للتحكم في النساء. لا بد أن الرجال الذين كانوا يقتبسون هذه العبارة كانوا خائفين بالفعل من السلطة الأنثوية. ولعلهم مازالوا، لأن أفكارا تقليدية مشابهة لم تختف بل وربما مازالت شائعة إلى حد كبير، على الأقل بين داعمي الرئيس أردوغان.

في عام 2014، كان الرئيس التركي قد أخبر النساء بالفعل أنهن لا يساوين الرجال وأنه ينبغي أن يكون لديهن على «الأقل» ثلاثة أطفال. وفي خطبة تليفزيونية أذيعت على مستوى البلد وألقاها في مؤسسة تعليمية عام 2016، حث النساء مرة أخرى على إنجاب المزيد من الأطفال: إذ لا ينبغي على العائلات المسلمة أن تقوم بمنع الحمل: «سنزيد نسلنا، سننمي تعدادنا. تنظيم الأسرة ومنع الحمل ليسا من الأمور التي ينبغي على العائلات المسلمة أن تمارسها.» كان تنظيم النسل مناقضا للتقاليد الإسلامية. إن عقلية «طفل في الرحم» تستولي على أجساد النساء دون أن تأخذ في الاعتبار وجهة نظرهن الشخصية في هذا الموضوع.[203]

يحرم رجال الدين البارزون من الرومان الكاثوليك أيضا حبوب منع الحمل – دون أن يسألوا الرجال أو النساء إن كان هذا في صالحهم الأفضل. لماذا يغض حراس العقائد من الماضي البعيد الطرف عن مخاوف وأزمات مؤمني اليوم؟

إن منع الحمل الآمن يجعل من الممكن للناس أن يحددوا حجم أسرتهم، وأن يمنعوا حالات الحمل لدى المراهقات، والموت أثناء الولادة، والملايين من الأطفال غير المرغوبين. إن ممارسة الحب العاطفية دون خطر الحمل تعني أن يحاط الأطفال المرغوبون بكل الاهتمام الحريص ويحصلوا على فرصة من أجل مستقبل قابل للعيش. أخيرا يمكن فصل ممارسة الجنسِ بين البشر عن غرضه الأصلي: التناسل. لقد تحقق بإسهاب الأمر إلهي أن «أثمروا وأكثروا».

203- https://www.independent.co.uk/news/world/europe/turkish- president- recep- tayyip- erdogan- says- no- muslimfamily- should- use- contraception- a7056816.html.

7

سحر الحلمة المغذية

أيا كان ما رضعته من حلمة الثدي، سيُسكب على قبرك. (إسباني، بوليفيا)

إن لبن الربات الأمهات أو النساء المميزات مثل مريم العذراء يمتلك بوضوح قوى إعجازية. إلى جوار هذا، في ثقافات عديدة، كان يُعتقد أيضا أن لبن ثدي النساء العاديات لديه تأثيرات سحرية. قد يكون الاعتقاد بأن لبن الثدي مقدس، كما تدفعنا مقولة مغولية للاعتقاد، فيه مبالغة كبيرة؛ لكن فكرة أن الرضاعة الطبيعية تنقل خصالا طيبة وسيئة هي فكرة منتشرة.

من الحلمة إلى القبر

في روما القديمة كانت الإماء يُستخدمن كمرضعات، لكن كانت هناك أيضا مرضعات محترفات للإيجار عند «مَعلم» مميز: مكان اسمه كولومنا لاكتاريا، ومعناه «عمود اللبن». كانت هؤلاء النساء فخورات بمهنتهن، وبفضل مكانتهن، كن قادرات على التفاوض حول أجرهن. وكان هناك طلب عال بشكل خاص على المرضعات اليونانيات وسط المواطنين الرومان؛ لأنه كان يُعتقد أنه عن طريق لبنهن سيرضع الطفل لغتهن. وهكذا، بالإضافة إلى اللاتينية، سيتحدث الطفل اليونانية بطلاقة.

اعتقد الشاعر الهولندي جاكوب كاتس Jacob Cats من القرن السابع عشر أن الطفل الذي يرضع من لبن امرأة «غريبة»، يكتسب ملامح «غريبة». أي أن أي امرأة كريمة تغذت بناتها على لبن أجنبي، سرعان ما ستكتشف أن شخصية مشبوهة جرى ابتلاعها مع اللبن المشبوه للمرضعة. بصيغة أخرى لا ينبغي للأم الحقيقية أبدا أن

تثق في أن يقوم شخص آخر بواجبها الأمومي. في إحدى قصائده نصح كل الأمهات الشابات بإرضاع أطفالهن:

"وظِّفي أيتها الزوجة الشابة مواهبك الثمينة،
لا شيء يفضل أي رجل مستقيم أن يراه
أكثر من زوجته العزيزة وهي تقدم حلمتها للطفل
هذا الصدر الذي تحملينه، الممتلئ بالحياة
المصنوع بجمال بالغ، كما لو أنه كرتان عاجيتان."[204]

لم يكن جاكوب كاتس وحيدا أبدا في رأيه القائل بأن لبن الثدي يؤثر على نفس الطفل: فقد كان هذا اعتقادا شائعا. في فرنسا القرن التاسع عشر كان هناك حتى مشروع قانون بمنع الأمهات ذوات السمعة الأخلاقية السيئة من إرضاع أطفالهن.

وبين المسلمين هناك خوف تقليدي من لبن الثدي «الغريب» – اليهودي أو المسيحي أو، وهو الأسوأ، اللبن الكافر – الذي قد يحول الطفل بالتالي إلى كافر أيضا. وعندما لا تستطيع الأم المسلمة أن ترضع طفلها رضاعة طبيعية، لا بد أن تلبي المرضعة شروطا أخرى أيضا. وقد وجه النبي محمد المسلمين لحماية أطفالهم من شرب لبن «الزانيات والمجنونات».[205]

المنطق هو أن اللبن يجب أن يكون (حلالا)، ولا يوجد أي بنك لبن معاصر يمكنه أن يضمن تماما أن اللبن من أصل مسلم. في تركيا، يُعتقد أن استخدام لبن الجهات المانحة قد خفض معدل وفيات الأطفال إلى حد كبير (والمقدَّر بتسعة آلاف في السنة)، لكن مسألة إن كان الطفل الذي رضع من لبن ملحدة محكوم عليه أن يشب ليصبح كافرا، أمر مازال محل نقاش بواسطة علماء الدين المسلمين والأطباء. إن الاعتقاد القديم بأن الأطفال يتأثرون من كل ما يرضعونه من الحلمة تمتع بحياة طويلة، وليس فقط بين المسلمين.

204- Jacob Cats, *Moeder, Houwelijck*, (Simon Schama's translation) quoted in Hufton, *The Prospect Before Her*, 1996: 200.

205- Ulfat Shaikh and Omar Ahmed, Islam and Infant Feeding. *Breastfeeding Medicine*, 2006:164.

كانت وجهة نظر العالم السويدي كارل لينيوس Carl Linnaeus أن أي طفل ترضعه لبؤة سيتشرب شجاعة عظيمة. وليس واضحا إن كانت هذه الملاحظة قائمة على بحث علمي أم لا.

من بين كل القصص التي تدور حول أطفال يرضعون من حيوانات برية، فإن قصة رومولوس وريموس من أشهرها. كانت ديـڤا رومينا هي الربة الراعية للأمهات المرضعات البشريات والحيوانات. وكان معبدها يقع بالقرب من شجرة التين التي، وفقا للقصة، كان يتم إرضاع الطفلين تحتها. كان المؤسسان اللاحقان لروما قد هجرتهما أمهما (بعد حمل ناتج عن الاغتصاب) وكان الطفلان على وشك الموت جوعا عندما اعتنت بهما ذئبة تحت هذه الشجرة عينها.

سمح التلمود اليهودي للأطفال أن يرضعوا من أنثى حيوان، إذا كان خير الطفل يعتمد على هذا. أما التراث الإسلامي فقد كره رضاعة الأطفال من لبن الحيوانات، خوفا من أن يكتسب الطفل سمات حيوانية. لكن في الدوائر المسيحية لم يحظ الموضوع بمناقشة كبيرة. في رسم فرنسي (1895) تمسك امرأتان بطفلين يرضعان أسفل بطن حمارتين، بينما تنتظر امرأة مع طفل ثالث دورها. بفضل لبن الأتان حافظ ملجأ أيتام كريم على حياة الأطفال الأيتام.[206]



206- Osborn, M.S. The rent breasts: A brief history of wet- nursing. In: *Midwife, Health Visitor & Community Nurse*. 1979;15(8):302–306; Samuel X. Radbill, The Role of Animals in Infant Feeding'. Wayland D. Hand, *American Folk Medicine: A Symposium*. University of California Press, 1976, https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC2684040/#bib21.



أطفال أيتام يرضعون من حمارتين. طباعة فرنسية، 1895.

في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أصبحت الماعز أكثر شيوعا وانتشارا كمرضعات. بل إنه في عام 1816 أوصى كتاب ألماني بالماعز «كأفضل وألذّ مرضعة». لم تكن فقط أرخص بكثير من أي مرضعة مستأجرة، بل كانت أيضا آآمن بكثير خلال أوقات الزهري وغيره من الأمراض القاتلة.

يحدث العكس أيضا – نساء أرضعن بحب صغار الحيوانات: ظبيان أو قرود أو جراء كلاب أو خنازير صغار، إما لمساعدة الحيوان على البقاء حيا (لأسباب دينية أو تجارية) أو لجذب الانتباه أو فقط لأن هذا أعجبهن.

في أمريكا الوسطى صادف مسافرون غربيون نساء من ثقافات مختلفة يرضعن أنواعا مختلفة من الحيوانات، مثل السناجب وحيوانات الأبسوم والقطط البرية والخنازير. وسط بعض الناس في بابوا غينيا الجديدة ليس من غير الشائع أن تضعي طفلك على ثدي وخنزيرا صغيرا على الآخر، والتفسير: «الخنزير قلبه كقلبنا».[207]

207- https://www.washingtonpost.com/news/animalia/wp/201625/02//why- goats- used- to- breastfeed- humanbabies/;
https://en.wikipedia.org/wiki/Human%E293%80%animal_breastfeeding.
http://paxonbothhouses.blogspot.nl/201308//women- who- breastfeed- animals;
htmlhttp://www.shalusharma.com/funny- indian- pictures/ Rajasthan
http://www.dailymail.co.uk/news/article- 3564005/I- breastfeed- deer- like- one- family.html.

كما أن وضع حيوان صغير على الثدي كان يساعد على تقوية الحلمتين العذراوتين للأمهات غير الخبيرات، وفي ألمانيا وصف بعض الأطباء هذا العلاج كدواء للأورام في الثدي، لكن يبدو أن الغربيين قد نسوا هذه العادات والعلاجات القديمة. وبدلا من ذلك تستثير الفكرة ردود فعل مصدومة، كما حدث مؤخرا في آيرلندا؛ حيث استشاطت المشاعر غضبا بسبب صورة على تقويم للكلاب لعارضة شهيرة ترضع كلبا صغيرا. مثال آخر: في الولايات المتحدة صُدم الناس من غلاف ألبوم *Boys for Pele*، حيث ظهرت المغنية الأمريكية توري آموس Tori Amos وهي ترضع خنزيرا صغيرا. تعكس ردود الفعل تلك حاجة لوجود حدود ملموسة بين البشر والحيوانات أو بين الثقافة والطبيعة.

نوعان من الأثداء

في عصر النهضة الأوروبي كانت النساء الثريات يرفضن أن يرضعن أطفالهن: «في قرن بدأت فيه الإمكانية الإيروتيكية للثدي في تشويش الوظيفة الأمومية، لم تكن سيدات كثيرات مستعدات ببساطة لتكريس أنفسهن بشكل كامل لأطفالهن الرضع، على حساب علاقاتهن بأزواجهن، ناهيك عن عشاقهن» كما كتبت مارلين يالوم Marilyn Yalom، ولذلك استأجرن عن طيب خاطر مرضعات. لكنهن أيضا كن موضوعات تحت ضغط خطير:

> "كانت عادة إرسال الأطفال بعيدا إلى المرضعات الريفيات مدانة بشدة من الأطباء والإنسانيين والكهنة والوعاظ وغيرهم من الأخلاقيين في كافة أنحاء أوروبا. وظهرت كتلة أدبيات خلال عصر النهضة تعلن أن من واجب الأم أن ترضع أطفالها رضاعة طبيعية وأن استخدام مرضعة هو بديل خطر للأم البيولوجية. [...] وتمادى بعض المحكمين الأخلاقيين إلى حد وصف رفض الأم إرضاع طفلها بأنه خطيئة، خاصةً في بلاد مثل ألمانيا وإنجلترا، حيث كان الإصلاحيون البروتستانت يدعون من أجل أخلاقيات أكثر صرامة.»[208]

ومع ذلك، خوفا من الأثداء المتهدلة كانت نساء كثيرات يرسلن أطفالهن إلى الريف،

208- Yalom 70- 71.

لفترة تصل إلى أربعة وعشرين شهرا. وفي عائلات الطبقة العليا كانت مرضعة تأتي لتعيش في البيت. وتعكس لوحة فرانسوا كلويه François Clouet الشهيرة *السيدة في الحمَّام* (1571) *La Dame au bain* ليس فقط الاختلاف الطبقي لعصره، لكن أيضا التناقض بين الأثداء الإيروتيكية والمرضعة. في المقدمة، بين ستارتين حمراوتين معلقتين، يقوم حوض استحمام من خشب الكستناء تجلس فيه سيدة مجهولة - ربما تكون الملكة الأسكتلندية ماري ستيورات. تضع تاجا من القماش في شعرها ولؤلؤة على جبهتها؛ ولديها ثديان عاريان ملفتان صغيران نسبيا، استطاعت الحفاظ على شكلهما الفتيّ بسبب المرضعة المستأجرة الواقفة خلفها إلى اليسار. تضع هذه المرضعة طفلا مقمطا على ثديها الضخم، بينما في الخلفية فتاة خادمة تدفئ الماء من أجل حمَّام السيدة المميزة. ثديا المرأة في حوض الاستحمام مقصود منهما الإمتاع، بينما هذان اللذان لدى المرضعة مقصود منهما العمل من أجل خبز يومهما.

لم توجد صناعة لبن الأطفال إلا منذ بداية القرن الماضي. كان العمل كمرضعة عملا قائما على الحب، لكن مع ارتفاع الطلب ارتفعت قيمة الوظيفة. ونتيجة لذلك، تمكنت نساء كثيرات من تسويق أثدائهن وكسب رزقهن بفضل لبن صدورهن. وكلما زادت ثروة والديّ الطفل، كلما زاد تأثير المرضعة:

"هؤلاء اللاتي وجدن أنفسهن في أعلى المستويات، مثل المرضعات الملحقات بأسرة الفرعون، كن المعادل لسيدات البلاط الكبار المسيطرات على شبكات سلطة شديدة الأهمية. كانت المرضعات البديلات لملكات فرنسا مخولات بأي عدد من الإكراميات بما في ذلك لقب "مدام بواترين" (السيدة ثدي)، والذي كان يتم ارتداؤه كوسام شرف في عائلات فرنسية معينة بعد وقت طويل من اختفاء الملكية."[209]

اكتشفت جابرييل بالمر Gabrielle Palmer، مؤلفة كتاب *سياسات الرضاعة الطبيعية* (2009) *The Politics of Breastfeeding*، أن وظيفة المرضعة في إنجلترا القرنين السابع عشر والثامن عشر كانت وظيفة عظيمة يمكنها تزويد المرأة

209- Yalom 160.

بأجر أعلى من أجر زوجها. وكمرضعة ملكية كانت المرأة تُكرَّم «مدى الحياة». في إنجلترا، كانت هناك مرضعة أسطورية قادرة على إنتاج ما يقرب من لترين [أربعة مكاييل] من اللبن يوميا، وفي عيد ميلادها الواحد والثمانين عام 1831 كانت مازالت قادرة على إنتاج لبن من صدرها.[210]

يعود تاريخ مهنة المرضعات إلى عصور قديمة. في بلاد الرافدين كان يتم استئجار مرضعة لعامين أو ثلاثة أعوام وكان من الممكن الدفع لها من منتجات الطبيعة – شعير أو زيت أو صوف أو حتى فضة. بل إن مقولة سومرية قديمة تعلن أن المرضعات كن يحددن مصير الملوك في مرابع النساء. قد يبدو هذا من قبيل المبالغة، لكنه يبين أن هؤلاء النساء كانت لديهن مسؤوليات جسام. فلو مات طفل، بينما كان في عناية مرضعة، كان يُفترض على الفور أنها قد أخذت طفلا ثانيا، دون رضا الوالدين. تنص قوانين حمورابي (حوالي عام 1780 ق.م) على عقوبة قاسية للمرضعة إذا ثبت مثل هذا الاتهام: كان يجري بتر ثديها.[211]

في الصين وجد تراث مشابه للمرضعات. كان الإمبراطور الصيني الأخير بو-يي (1906-1967) يشعر بتعاسة بالغة عندما جرى تتويجه رسميا وهو لم يزل طفلا. ولم يستطع أحد أن يواسيه ويهدئه غير مرضعته وِن-تشاو وانج. وقد طور صلة وثيقة بها وربما كانت ترضعه حتى سنوات مراهقته. وخلال الثورة الثقافية ألغى ماو هذا «الانحطاط»، لكن بعد تحريم سياسي طويل عادت هذه العادة القديمة إلى المجتمع الصيني. لا شك أن فضائح اللبن المحفوظ في زجاجات مؤخرا في الصين قد أسهمت في ظهور جديد لممرضات بأجور عالية. مرة أخرى، تذهب العائلات الصينية الثرية بحثا عن نساء قرويات حوامل بصحة جيدة مستعدات، بعد ولادة أطفالهن مباشرة، لإرضاع أطفال نساء المدينة الثريات. ويمكث أطفالهن خلفهن مع الجدات في القرية ويحاولن العثور على مرضعات رخيصات لأطفالهن حديثي الولادة. ويجري تعويض هذه التضحية عن طريق الأجر المربح الذي تكون العائلات فائقة الثراء مستعدات لدفعه.

210- Viv Groskop: https://www.theguardian.com/society/2007/jan/05/health.medicineandhealthbid.

211- Marten Stol, *Women in the Ancient Near East*, 2016.

ووسط نجمات هوليوود يرتفع الطلب على دادات مرضعات، نظرا لحقيقة أن كثيرا منهن غير مستعدات للإرضاع أو غير قادرات بسبب عمليات زراعة الثدي. ومع ذلك، هناك ضرورة في الولايات المتحدة لوجود رخصة؛ لأن الاستعانة بالرضاعة كخدمة يمكن اعتبارها إساءة للطفل. جرى تغريم امرأة في أوكلاهوما، كانت قد أرضعت طفل امرأة أخرى، بمبلغ خمسمائة دولار، بعد أن أدينت أولا بحكم السجن لمدة عام بسبب سوء أخلاقها.[212]

الإرضاع الخيري

هناك قصص لا نهاية لها عن الحلمات المرضعة غير الأنانية، والتي تمنح المرأة التي تمتلكها إشراقة إضافية. وفقا للتراث مر على النبي محمد العديد من المرضعات المتعاقبات. واحدة منهن كانت حليمة شديدة الفقر. خلال فترة جفاف كارثي وبدافع الحاجة، ذهبت مع نسوة غيرها إلى مدينة مكة، باحثة طوال الوقت عن وظيفة مرضعة؛ رغم أنها كانت بالكاد تستطيع تغذية طفلها. وعندما وصلت النسوة إلى مكة، عُرض عليهن جميعا، واحدة وراء أخرى، النبي كطفل بحاجة للرضاعة. رفضن جميعا؛ لأن اليتيم لا ينتج عنه إلا مزيد من المشقة. وبعد أن لم تجد أي طفل آخر كي ترضعه، عادت حليمة وقررت أن تأخذ اليتيم.

وما إن وضعته على صدرها «حتى بدأ اللبن يتدفق بطريقة إعجازية». أرضعت النبي على ثدي وابنها على الآخر، وشبع الطفلان كلاهما تماما. علاوة على ذلك، فإن الناقة التي لم تدر قطرة واحدة من اللبن طوال الطريق، امتلأ ضرعها مرة أخرى فجأة. بالتأكيد كانت على صدر حليمة «روح مباركة».[213]

إن الحب المضحي تماما من جانب البنات للأبوين أو والديّ الزوج هو موضوع مهم في القصص. وقد جرى تصوير الكِنة المثالية وهي ترضع حماتها الشهيرة كمثال للانسجام التام في الصين – مثال يعارض الحكمة التي يُضرب بها المثل عن علاقة

212- Groskop, ibid.

213- Kueny, chapter 4 and http://www.islamweb.net/prophet/index.php?page=showarticle&id=174579.

الزوجة الشابة بحماتها. كان إرضاع القريب المحتاج يُعتبر إحسانا بنويا مثاليا في تقاليد كثيرة حول العالم.[214]

تتغير الأجواء تماما، عندما يكون الوالد المحتاج من الجنس الآخر. في روما، كانت قصة سيمون وبيرو شائعة إلى حد كبير: سجين عجوز يُحكم عليه بالموت جوعا. يُسمح له بدخول الزوار، لكن إحضار الطعام ممنوع. ولإبقائه حيا، تزور بيرو أباها وترضعه كل يوم، لكن عندما يظل حيا بعد شهر، يتلصص سجان عليهما ويمسك بهما. يتأثر القضاة، الذين يبلغهم السجان، من هذا الحب الأبوي العظيم، حتى أنهم لا يعاقبون الفتاة على مخالفتها ويُطلَق سراح الرجل العجوز.

في العالم الغربي، أصبحت هذه القصة موضوعا صالحا في الفنون، جزئيا بسبب التوتر بين الإحسان النموذجي والإيروتيكية، وربما الإيحاءات السفاحية لأب يشرب من ثدي ابنته الفتيّ. لكن هناك مساحة أقل للارتباطات الإيروتيكية عندما يركز الفنان على الموت الوشيك للرجل المتداعي مع ملامح الشيخوخة والشعر الأشيب المشعث أو على القضبان الصدئة التي تحبس الرجل المسن في زنزانته البائسة.

في بعض اللوحات يرقد طفل الابنة النائم على أرضية الزنزانة (روبنز) أو ترضع أباها من الخارج، بالرغم من القضبان التي تفرقهما، كما في لوحة كارافاجيو *أعمال الرحمة السبعة* (1607). مؤخرا استلهم الفنان التركي فرهاد أوزغور Ferhad Özgür هذا الموقف الدراماتيكي في فيلم قصير – والذي أثار إعجاب مشاهدين كثيرين، باستثناء قلة (ربما من غير المعتادين على القصة القديمة) والذين أدانوا الفيلم باعتباره «إباحي مريض.»[215]

إن تاريخ لوحة شهيرة في متحف فرانز هالز في مدينة هارلم يبين كيف تتغير وجهات نظر الناس، عندما يعرفون معلومات أكثر عن الخلفية الثقافية لقصة أو لوحة. العمل الفني المرسوم عام 1591 على يد كورنيليس كورنلزون فان هارلم،

214- مع الشكر للزميل وعالم الصينيات Wilt Idema على توضيح المعلومات الخاصة بالصورة:
http://www.theepochtimes.com/n3/2043878- filial- piety- touches- heaven- stories- of- virtuous- daughters- in- law/.

215- https://www.youtube.com/watch?v=c33499mGtAk.

حمل في الأصل عنوان «الراهب والراهبة»، وكان يشار إليه أيضا باسم «الراهب المداعب للثدي» أو «الأخ كورنيليس وفتاته» بناء على التأويل. هل كان الأمر كله يتعلق «بمداعبة الحلمات» – كما يبدو أن كأس النبيذ والفاكهة المغوية في المقدمة يشيران؟ أم هل كانت معجزة تؤدى لإثبات أن راهبة طاهرة جرى اتهامها عن خطأ بالفاحشة المخزية؟ لأسباب تتعلق بالأدلة كان لا بد من إثبات أمومة الراهبة المزعومة بعصر اللبن من ثديها. والراهب الجالس قريبا من الراهبة ينجز مهمته بإخلاص، لكن الدليل يفشل: فمن ثدي الراهبة النقية بنظرتها السماوية، لا يسيل أي لبن؛ بل نبيذ أحمر يتقاطر على نحو إعجازي داخل الكأس. في النهاية أقنعت (معجزة هارلم) العالم ببراءة امرأة.

أمهات غير متوقعات

من ثدييّ الربة الأم جيمايا التي تبتهل إليها باحترام جماعة يوروبا النيجيرية تنبع كل الجداول التي تخصب الأرض، لكن الافتتان الذكوري بالثديين الإلهيين المغذيين يأتي مع مشاعر مختلطة. هي تستحق الاحترام، لكن أم كل السوائل تظل مخلوقا متقلبا يجب الاقتراب منه بحرص. تشير أغنية قديمة لجماعة يوروبا إلى قوى «الأمهات»، في صيغة الجمع، معترفة بالقوى الخاصة للنساء، المسنات أو السلفات أو المؤلهات، كما يشار إليهن في أغنية ملأى بالمخاوف الضمنية:

"الشرف، الشرف اليوم، أُووووو.
الشرف لأمي [...].
الأم التي يسبب مهبلها الخوف للجميع.
الأم التي يلتف شعر عانتها في عُقَد.
الأم التي تنصب فخا، تنصب فخا..."[216]

يشير المهبل المخيف إلى الخوف من البوابة الأولى وإلى «اللعنة» التقليدية التي

216- A.B. Ellis, *The Yoruba- speaking Peoples*, 1894: 43- 44; Drewal in African Arts 7 (2), 1974: 60.

ناقشناها سابقا في أوقات الأزمات (الفصل الخامس)، وهو ما كان ممارسا أيضا في تراث يوروبا.

ربط فرويد الربة الأم بالمراحل الأقدم للتطور: يرى الطفل الأم كمصدر للإشباع أو الزهد، يتوجه إليه نهم الشهوة الجنسية أحيانا عبر الأمنيات العدوانية الشفهية والسادية في الحياة اللاحقة.

أعادت ميلاني كلاين Melanie Klein كتابة بعض من أفكار فرويد عن الثدي وتطور الأنا لدى الأطفال الصغار. بالنسبة لها، كان الثدي هو أول خبرة هامة في حياة الطفل وجعلها هذا تهمش دور الأب. في البداية ذاتها، لا تكون الأم شيئا أكثر من ثديين للطفل: يظهران ويختفيان دون أن يكون له أدنى سيطرة على قدومهما وذهابهما. وفقا لميلاني، يتكون أول نشاط ذهني للطفل من خيالات يسقطها على الثديين ولذلك من المناسب تحليل مشاعره الخاصة بالحسد والكراهية بحرص فيما يتعلق بالثدي المرغوب. بانتزاعه من الثدي، يطور الطفل خوفا مبكرا، مثل أي خبرة محبطة جسديا أو نفسيا تعترض طريق الإشباع. تميز كلاين بين الثدي الطيب الكريم والثدي الشرير الرافض الذي يحتفظ باللبن لنفسه:

> "والآن، فإن ما يمكن أن يسميه المرء بالأثداء "الطيبة" تصبح نموذجا مبدئيا لما يُحس طوال الحياة أنه طيب وخيّر، بينما تشير الأثداء "الشريرة" إلى كل شيء شرير ومعذِّب. يمكن تفسير سبب هذا بحقيقة أنه، عندما يحول الطفل كراهيته تجاه الثدي المنكر أو "الشرير"، فإنه ينسب إلى الثدي نفسه كل كراهيته النشطة تجاهه – وهي عملية تُسمى *بالإسقاط*."[217]

في خيالاته الأولى يريد الطفل المحبط أن يلتهم ثدي أمه: هل يتخيل أنه يدمر الأم؟ بتوجيهه لعدائه نحوها، يكون في نفس الوقت مرعوبا من أن تقوم هي بالتهامه. إن الرضيع الجائع الذي يظل عالقا في رغبته في الفردوس المفقود للتوحد بثدي الأم لن يتخطى أبدا الشعور القلق بأنه لا يستطيع الحياة دونها بينما هي تستطيع بدونه.

إذا كانت القصص عن الخالقين الذكور والأثداء وحالات الحمل الإلهية الذكورية

217- Melanie Klein in: Simon Richter, *Missing the Breast* , 2006: 61.

تمثل أمنيات بالولادة والإرضاع، فالخبر الطيب هو أن تحقيق هذا يقترب. رغم أن العابرين جنسيا – المولودين إناثا والذين يصبحون ذكورا في مرحلة لاحقة من الحياة – يحملون، في المستقبل لن تكون النساء فقط هن من يشعرن بالحياة الجديدة ويحملنها داخل أجسادهن. قد يعني هذا أن آجلا أو عاجلا سيتشارك الرجال والنساء بالفعل الولادة والإرضاع ومهام الرعاية الأخرى. في تسعينيات القرن العشرين تنبأ الفسيولوجي والبيولوجي الثوري جارد دايموند Jared Diamond أن الجنس البشري «مرشح أساسي للرضاعة الذكرية»، لأنه بالاشتراك مع عمليات الحقن الهرمونية والتحفيز اليدوي لحلمتيّ الأب سيتم تحفيز الإمكانية الخامدة لكن الموجودة لإنتاج اللبن.[218]

تتضمن الأبوة المرضعة الوعد ببداية توازن جديد، وبداية النهاية لظلم قديم عطل الانسجام بين الأجناس. في مايو من عام 2016، بدأ الرجال الشباب في الصين التدريب: حيث وضعوا أطفالا رضع اصطناعيين على أثدائهم الذكورية العارية – مؤقتا فقط كاحتفال بعيد الأم.

218- Jared Diamond quoted in Richter 8- 9. http://pulse.ng/gist/in- china- men- experience- pains- of- child- birthbreastfeeding- at- event- photos- id5021870. html; http://www.volkskrant.nl/archief/- zwangerschap- mannen- wordtzeker- mogelijk~a542930/;

8

الثدييات

للنهر الذي حمله صاح الرجل العجوز: «ماما!»

(الأديغية)

وضع لينيوس البشر مع كل الثدييات الأخرى في تصنيف الثدييات mammalia، حيث لا تعني الكلمة اللاتينية *mamma* «الثدي» فقط بل تعني أيضا «الأم» أو «المرضعة». تبدأ العلاقة الحميمية بين الأم والطفل عند الثدي وتوجد في العبارات المشيرة إليها. وقد أرسل إليّ اللغويون من أجزاء مختلفة من العالم كلمات تربط الثدي واللبن في لغات مختلفة. الكلمة الصينية التي تعني اللبن هي (رو)، ويشار للثدي بكلمة (روفانج) التي تعني حرفيا «بيت اللبن». في لغة (كويشوا) إحدى لغات الأمريكيين الأصليين ترتبط كلمة (نونو) التي تعني الثدي الأمومي بالفعل «أن تشرب لبن الثدي». وفي إفريقيا أيضا كثيرا ما تتطابق الكلمات المستخدمة للثدي واللبن؛ مثلا في اللغة السواحيلية تعني كلمة (زيوا) الثدي وكلمة (مازيوا) اللبن. وينطبق الأمر نفسه على اللغات الأسترونيزية (في بحر الجنوب ومدغشقر ومعظم جزر جنوب شرق آسيا): صياغتان قديمتان (سوسو ونونوه) تظهران في شكل أو آخر. وكلاهما تعنيان «الثدي» (وليس الصدر)، وغالبا ما تحمل أيضا معنى اللبن والأم والتغذية. في لغات كثيرة تعني كلمة الأم أو ماما حرفيا «المرأة التي منحتني لبن الثدي».[219] وفي كل هذه المعاني لا توجد أي دلالات إيروتيكية.

219- مع الشكر للمتخصصين في الثقافة واللغة:
Sander Adelaar (Melbourne); Willem Adelaar (Leiden); Willem van der Molen (Jakarta); Aldin Mutembei (Dar es Salaam) and Kristofer Schipper (Fuzhou).

تطورت الرضاعة منذ ما يقرب من 200 مليون سنة كحماية ضد أشكال العدوى، ومازالت هناك عناصر في لبن الثدي تدعم الجهاز المناعي. وإذ لم يكن هناك أي تنظيم للأسرة، فما بين سن البلوغ وانقطاع الطمث كانت أثداء أمهاتنا الأوائل تنتج اللبن لحوالي نصف الوقت. في الإجمالي، كانت المرأة تقضي عشرة أعوام من حياتها تُرضع، وخلال فترة خصوبتها كانت تنتج حوالي 1350 لتر من اللبن.[220]

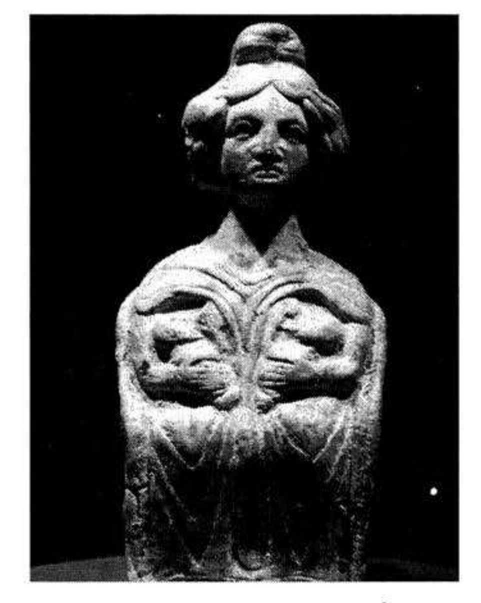
في ثقافات كثيرة كان هناك تحريم لممارسة الجنس مع النساء المرضعات لأطفال. كانت النساء ترضع أطفالهن لمدة عام أو اثنين على الأقل؛ بالنسبة لهؤلاء اللاتي لم يحملن مرة أخرى خلال بضعة شهور. فالرضاعة الطبيعية ليست وسيلة آمنة لمنع الحمل، لكن عندما يرضع الطفل من الثدي؛ تنطلق هرمونات (البرولاكتين والأوكسيتوسين) التي تقلل نمو خلية البيض وتعوق بناء بطانة الرحم.[221]

حتى في الأوساط الطبية كان يجري تخيل اللبن باعتباره «دما معالَجا». بما أن النساء لم يكن يحضن خلال فترات حملهن، فقد اعتُقد أن النساء كن يغيرن الدم إلى غذاء لأطفالهن. وقد تتعرض عملية تحويل الأمهات المرضعات الدم إلى لبن للخطر بممارسة الجنس: فقد تخل بتدفق اللبن، بل وقد تقتل الجنين حديث التكوين. وبفضل سوء التفاهم ذلك الشائع مُنحت النساء فترة قصيرة من الراحة، ولتكن مع طفل أو اثنين على ثدييها، قبل أن يعلن الحمل التالي عن نفسه.[222]

220- Geoffrey Miller, *The Mating Mind*, 2001: 242- 3.

221- تدريجيا سيشرب الطفل فترات أقل طولا أو بفواصل زمنية أكبر وبالتالي تزيد فرصة الحمل.
https://rondomzwangerschap.com/na- de- kraamtijd/anticonceptie- enborstvoeding/ borstvoeding- als- anticonceptie.

222- Thomas Laqueur, *Making Sex. Body and Gener from the Greeks to Freeud*, 1990:36; Yalom 70.



أم (ربة) جالسة ترضع طفلين.

القرن الثاني الميلادي.

بعكس البشر، تملك الثدييات الأخرى أثداء متدلية أسفل بطنها وبعيدا عن مجال الرؤية: فلديها فقط وظيفة إرضاعية وتصبح مسطحة مرة أخرى بعد فترة الرضاعة. وبما أن أسلافنا بدأوا المشي منتصبين، أصبحت الأعضاء التناسلية الذكورية والأثداء الأنثوية في مجال النظر مباشرة. ويظل تحديد الوقت التقريبي في مسار تطور البشر الذي اكتسبت فيه الأثداء الأنثوية شكلها الكامل عملا تخمينيا، حتى عندما لم تكن قد حظيت بعد بنعمة اللبن. بالنسبة للإنسان المنتصب، السابق على الإنسان العاقل، أصبحت الأثداء علامة صحة وخصوبة، وهو معيار انتقاء لاختيار الشريك.

لقد أصبحت الأثداء تدريجيا جزءا من المثل العليا للجمال والموضة القابلة للتغيير. لقد أدى الدور الجوهري للأثداء في مُثُل الجمال الأنثوي، تحت تأثير وسائل الإعلام، إلى أساطير جمال معاصرة مُلِّحة تخالف أفضل مصالح النساء وتطور مواهبهن، كما ترى ناعومي وولف Naomi Wolf في كتابها الذي حقق أفضل المبيعات *أسطورة الجمال The Beauty Myth*. لقد منحت الأثداء المثيرة ومازالت تمنح النساء، طالما كن شابات، نصيبهن الصغير من السلطة المتعذر الحصول عليه في أغلب المجالات الأخرى.

واحد من عجائب الدنيا السبع، مزار الربة اليونانية آرتيميس، يقع في مدينة إفسوس في تركيا الحالية. بسبب النتوءات المستديرة الكثيرة البارزة من واجهة الكثير من تماثيل آرتيميس، منحها اليونانيون لقب «الربة عديدة الأثداء». تحدث الأثداء المتعددة أيضا في البشر، وفي عالم الطب تُسمى هذه الظاهرة *polymastia*. ومع ذلك، خلال فترة البلوغ عادةً ما تنمو غدتان ثدييتان فقط لتصبحا ثديين:

«لو كنا فئرانا أو خنازير، لنما شريطانا اللبنيان التوأمان إلى مجموع ثمانية حلمات، لتلبية حاجات دفعة المواليد الكبيرة. أما الثدييات مثل الأفيال والأبقار والماعز والرئيسيات، التي تلد واحدا أو اثنين فقط في كل مرة، فتتطلب فقط غدتين ثدييتين، وهكذا يتراجع حجم شريط اللبن خلال التطور الجنيني.»[223]

لا تتطور الغدد الثديية الإضافية عادةً إلى أثداء بشرية تامة التكوين، لكن بعد الولادة قد تنتج اللبن. في عام 1886 في أوروبا جرى وصف أول حالة لامرأة في الثالثة والعشرين من عمرها ذات أثداء أخرى إلى جانب الاثنين المعتادين: بعد ولادتها الأولى لم يحدث شيء خاص، لكن بعد ولادتها الثانية بدأ الثمانية كلهم يفرزون اللبن.

جرى حكي كل أنواع القصص عن ظاهرة تعدد الأثداء *polymastia*. كانت النساء اللاتي يملكن أكثر من ثديين يُنظر إليهن كوحوش ويُقدَّمن في العروض. كتب الطبيب والفيلسوف فورتونيو ليسيتي Fortunio Liceti كتابا عن هذه الظاهرة نُشر في أمستردام عام 1665. وقيل أن آن بولين، الزوجة التعيسة لهنري الثامن التي جرى إعدامها بتهمة الزنا، كان لديها ثدي ثالث؛ وهي قصة أسهمت بلا شك في تشويه سمعتها. كانت النساء اللاتي لديهن أكثر من حلمتين يخاطرن باتهامهن بالسحر في القرون السابقة:

«كان صائدو الساحرات غالبا ما يعرون المشتبهات فيهن ويفحصونهن على الملأ بحثا عن علامات عيب بشع كان يقال أن الساحرات ينلنه بعد عقد

223- Nathalie Angier, *Woman: an Intimate Geography,* 1999: 141- 42.

تحالفهن مع الشيطان. [...] وقد يبحث الجلادون أيضا عن «حلمة الساحرات» وهي حلمة إضافية كان يُزعم استخدامها لإرضاع الحيوانات المساعدة للساحرة. في كلتي الحالتين، كان من السهل حتى على أقل العيوب البدنية أن تُسمى عملا للشيطان نفسه. الشامات والندوب والوحمات والقروح والحلمات الزائدة ورسومات الوشم كان يمكن لها جميعا أن تكفي، لذا نادرا ما خرج الفاحصون فارغي اليدين.»[224]

حتى اليوم يُخبز في إيطاليا بسكويت يشبه امرأة ذات ثلاثة أثداء (*بوباتسا فراسكاتانا*). وتقول الأسطورة أن اثنين منهما كانا ينتجان اللبن وواحدا ينتج النبيذ. في مدينة فراسكاتي يمكن العثور على هذه البسكويتات المتبلة المتشكلة على هيئة أنثوية في المخابز. وجدتُ واحدة في (متحف حضارات أوروبا والبحر المتوسط) بمارسيليا. يذكر الشرح أن اسمها هو جينا، في تذكير جميل بالثديين الشهيرين لنجمة السينما الشهيرة جينا لولوبريجيدا. وفقا لبعض التعليقات يعود الثدي الأيسر إلى عيد باخوس القديم، بينما يعتقد آخرون أنه ابتكار ألمعي للمرضعات في عصر النهضة: ثدي زائف مليء بالنبيذ يمكن أن يهدئ الأطفال على الفور ويدفعهم إلى النوم.

الرضاعة من نفس الثدي كتحريم للجنس

«حلاوة النهود تدوم حتى اللحود» كما تذهب مقولة عربية، لكن النهود ليست متاحة في الحياة كما يشتهي المرء، وجنَّة ترفض أن تفتح أبوابها قد تتحول إلى جحيم معذِّب. تُثقل تطورات الزمن الحديث كاهل المؤمنين التقليديين بالمعضلات، وتوحي بفتاوى تطلقها السلطات الدينية والقادة الروحيون ورجال الدين، وبقواعد ليس من السهل إطاعتها في الحياة اليومية.

مثال لواحدة من هذه الفتاوى منذ بضعة أعوام والتي استندت إلى التفاعل غير المرغوب بين الرجال والنساء في مكان العمل. لحل هذه المشكلة نصحت تلك الفتوى

224- Https://www.history.com/news/7- bizarre- witch- trial- tests; *Cultural Encyclopedia of the Breast*, 2014: 264ev

النساء بإرضاع زملائهم الذكور خمس مرات على الأقل. فبما أنه في التراث الإسلامي من المحرم إقامة أي علاقات جنسية بين رجل والمرأة التي أرضعته، فستستبعد هذه الوصفة العلاجية العلاقات الجنسية في مكان العمل. لم يُطلب رأي النساء أنفسهن، وعلاوة على ذلك أيّ امرأة عاملة يمكنها إنتاج اللبن بالأمر؟

من النظرة الأولى قد يبدو هذا اقتراحا غريبا، لكن أي شخص يعرف التراث يفهم أن هذه الفتوى كانت تحاول ترسيخ «رابطة لبن». هذه العلاقة تربط بقوة أفرادا ينتمون إلى جماعتين مختلفتين، لكنها أيضا تقلل إلى حد كبير المسافة بين الأقارب ولذلك تجعل من الأسهل التحكم في السلوك المتبادل. كان مقصودا بهذه الفتوى الحديثة أن تتحكم في سلوك الرجال والنساء خارج البيت، الآن بعد أن أصبح المزيد والمزيد من النساء المسلمات يدرسن ويعملن بدلا من قضاء أيامهن في البيت، وهو شيء كان غير قابل للتفكير فيه لقرون عديدة.

إن أمثلة علاقات «رابطة اللبن» التقليدية منتشرة، من أفغانستان والهند إلى شمال إفريقيا والبلقان. كان لبن الثدي، ذلك الغذاء الفريد، يشبع حاجات خاصة.[225] إن خلق رابطة لبن كهذه يمكن، على سبيل المثال، أن ينقذ علاقة على وشك التحطم:

«في جورجيا، إذا ظن زوج أن زوجته خائنة، كان يدعو العشيق المشتبه فيه إلى منزله، ويعري ثدي زوجته الأيمن، ويضع ملحا عليه، ويطلب من الرجل أن يُقبله. ولم يكن لدى المشتبه به اختيار: إذا قبّله، فسيكون مربوطا برابطة اللبن لتلك المرأة مدى الحياة وبالتالي لا يستطيع، تحت تهديد العقاب التأديبي، أن يمارس الجنس معها؛ وإذا لم يُقبِّله، فقد أدان نفسه وسيواجه عقابا تأديبيا. وبمجرد أن يتم هذا الفعل، كان الزوج يخاطب الاثنين: "أيها الرجل، انظر إلى أمك. أيها المرأة، انظري إلى ابنك!" وبمقدوره الآن أن يستريح ويطمئن؛ وبمقدور زوجته وابنه الجديد في الرضاع أن يتقابلا صراحةً دون خوف من إثارة أي شك؛ لأن زنا المحارم كان أمرا غير وارد.»[226]

225- Jeremy MacClancy, 'The Milk Tie', *Anthropology of food* [Online], 2 September 2003:229, URL:
https://journals.openedition.org/aof/339.

226- Ibid. 25.

مثال آخر: زجّت امرأة فلسطينية على الملأ بثديها في فم رجل غريب وهي تقول: «أنت ابني بكتاب الله، فقد شربت من ثديي.» وكان السبب وراء مثل هذا التبني الطقسي أن امرأة على الطريق مع رجل لا ينتمي إلى عائلتها القريبة، كانت قادرة هكذا أن تحمي اعتبارها.[227]

يوضح القرآن وأحاديث الرسول من لا يُسمح بالزواج منه من علاقات رابطة اللبن، لكن الفقهاء لم يتفقوا حول كمية اللبن اللازمة.[228] وهؤلاء الذين يعتقدون أن هذا هراء كامل، لا بد أن يفهموا أن هذه القاعدة كان مقصودا بها استبعاد العلاقات مع شخص من الجنس الآخر؛ عن طريق خلق رابطة حقيقية كرابطة الدم – بالمجادلة بأن اللبن والدم البشريين كلاهما مادتان ضروريتان للحياة. هذا التشابه المفترض بين الدم واللبن حوّل هذا النوع من العلاقات إلى نوع طبيعي وصالح مثل القرابة القائمة على أساس النَسَب.

بناء على هذا التحريم الإسلامي للعلاقات الجنسية بين رجل وامرأة قامت بإرضاعه ذات مرة، قام متخصص إسلامي بإصدار فتوى عام 2007 عن الرضاعة مؤمنا أنها الحل النموذجي للمشكلة المتنامية الخاصة بالتفاعل غير المرغوب بين الرجال والنساء في المجال العام. بعد خمس رضعات مشبعات سيكون الزميلان الذكر والأنثى المعنيان قد أسسا روابط لبن تمنع علاقتهما الجنسية في مكان العمل. وهكذا يمكن رفع التحريم الديني للاختلاط دون انتهاك الشريعة الإسلامية: بل وسيُسمح للنساء بكشف شعرهن في حضور الرجال الذين قمن بإرضاعهن.[229]

هذا المبادر، وهو متخصص في الحديث من جامعة الأزهر ذات المقام الرفيع بالقاهرة، أقام هذه الفتوى على تفسيرات قروسطية لوجهة نظر أقلية. واستندت «فتوى الإرضاع» هذه على الفصل الصارم بين الجنسين، مجادلة بأنه ما اجتمع رجل وامرأة ليسا قريبين مباشرين، إلا وكان ثالثهما الشيطان، وهذا يعني المشاكل دائما.

227- Granqvist in MacClancy a.w.23.

228- لمزيد من المعلومات انظر كتابي (المكشوف والمحجوب) ص 181 وما يليها.

229- Sam Shamoun, ´Islam and the nursing of adults´, https://www.answering-islam.org/Shamoun/nursing- ofadults.
htm; see above page 156.

في مصر أثارت هذه الفتوى موضع المناقشة لغطا كبيرا وجرت السخرية منها في وسائل الإعلام، وسرعان ما سحبتها لجنة من الأزهر رافضة إياها؛ لأنها تناقض مبادئ الإسلام والأخلاق.[230]

لا يبدو تقريبا أن المسلمين المعاصرين يشعرون بالانزعاج من فكرة وجود الشيطان خلال اللقاءات المتصلة بالعمل مع زميل من الجنس الآخر، بينما يستمر علماء الدين المتعصبون في الضغط على بعضهم البعض وعلى المؤمنين الآخرين ليتمسكوا بأحاديث حقيقية أو مزعومة للنبي محمد.[231] وتوضح التعليقات بالغة التنوع على هذه الفتوى أنه يجري الخلط بين الوظيفتين الأمومية والجنسية للأثداء وأنهما تعترضان طريق إحديهما الأخرى.

على المواقع الإسلامية كثيرا ما يسأل المؤمنون إن كان يمكن للرجل أن يشرب من لبن ثدي زوجته أم لا. هل هو حلال فقط لو بصقه المرء على الفور؟ وتناقض إجابات رجال الدين المسلمون إحداها الأخرى. من ناحية مسموح للزوج أن «يتحسس أو يداعب أو يرضع أو يفعل كل ما يشتهي [...] ولو أراد أن يشرب من ثدييها، فهذا مسموح به تحت شعار "العلاقات الحميمية المسموح بها"». لكن وفقا لبعض الأئمة، من الأفضل للرجل أن يتجنب شرب لبن ثدي زوجته، رغم أن هذا ليس له «أي تأثير». وكي يكونوا آمنين، يضيفون دائما عبارة «والله أعلم».[232]

الرجال والثدي المرضع

لا يبدو أن فعل «to nipple» يوجد في الإنجليزية، أما في هولندا فكان موجودا في القاموس حتى القرن التاسع عشر، ويعني «مداعبة ثديّ امرأة بكثافة من منطلق

230- BBC, 22 may 2007, https://news.bbc.co.uk/2/hi/middle- east/66815II.stm.

231- يمكن العثور على معلومات موسعة عن الفتوى المسحوبة حول الرضاعة الإلزامية للكبار في العمل في كتاب (المكشوف والمحجوب) ص 181 وما بعدها.

; https://islamqa.info/en/2864; https://islamqa.info/en/47721.

232- Https://islamqa.info/en/answers/47721/the- limits- within- which- a- married- couple- may- enjoy- intimacywith- one- another- and- the- ruling- on- a- man- suckling- from- his- wife.

الشهوة الخليعة». أصل الفعل *nippelen* من كلمة *nijpen*، والتي تعني «أن يقرص»، لكن nippling هي فعل ذلك بشكل لطيف ودون إيذاء. استخدمها الكاتب الهولندي جوست فان دين فوندل Joost van den Vondel، على سبيل المثال، في مسرحيته شمشون *أو الانتقام المقدس* (1660) *Samson or Holy Revenge*، عند الإشارة إلى قيام شمشون بمعانقة دليلة ومداعبة ثدييها بشغف.[233]

إن المداعبة الساخنة والعجن والتدليك أفعال تستثير إنتاج اللبن. ذهبت امرأة في الخامسة والستين من عمرها لعيادة طبيب أمراض نساء في أمستردام لأن اللبن يتدفق من ثدييها. ظنت أنها مصابة بالسرطان، لكن بعد سؤالها من طبيب أمراض النساء تبين أن أصل هذه الظاهرة البريئة هو أن زوجها لم يستطع أن يكف عن مداعبة ثدييها. وبسبب اهتمامه المحب بدأ اللبن في التدفق مرة أخرى عفويا. لا تحتاج المرأة حتى أن تكون حاملا كي تنتج اللبن.

قد تتطور الرضاعة الطبيعية للصغار إلى علاقة رضاعة نوستالجية بين الكبار. أين تنتهي الرضاعة الأمومية وتبدأ الرضاعة الإيروتيكية؟ من بحث عام 2005 تم إجراؤه بين سبعمائة رجل إنجليزي ظهر أن أكثر من ثلاثين في المائة لم يقوموا فقط بمداعبة شريكتهم بحماس، بل شربوا بسعادة من لبن الثدي سويا مع الطفل. وكان السبب الرئيسي الذي قدموه هو «الاحتياج العاطفي».[234] ولا يذكر البحث إن كان هؤلاء الرجال قد حصلوا على رضاعة طبيعية كافية في طفولتهم.

لتلبية هذا الاحتياج العاطفي بين الرجال البالغين، جرى تقديم نشاط أنثوي ومازال يُقدَّم. ويشار إليه بالتدليل أو بدعارة اللبن أو – بازدراء واضح – بالطفولية، خاصة عندما يرغب الرجل في الحبو عائدا إلى دور الرضيع المحمول على الثدي، ويكون مستعدا للدفع مقابل متعة تقدمها ماما (بل وأحيانا وهو مرتدٍ حفاضة، وكأنه يستنفذ رغبات سفاحية).[235]

233- http://www.collignon.tv/nippelen.htm; *Nieuw woordenboek der Nederlandsche taal*, 1864: 12- 24;

234- Lois Rogers, ´Earth dads give breast milk a try´. *The Sunday Times*, 13 March, 2005: https://wikipedia.ory/wiki/Erotic- lactation.

235- Ibid.

في عام 1903 نُشر كتاب باللغة الألمانية عنوانه (الزواج السعيد)، كان يوصى بحماس بالرضاعة الإيروتيكية كشكل طبيعي مزدوج من منع الحمل ومصدر للمتعة الجنسية. حظي الكتاب باستقبال جيد، لكن النقاد حذروا أيضا من خطر الاستثارة المَرَضية للمشاعر الجنسية لدى كلا الشريكين. وفي عام 1938 قام النازيون بمنع الكتاب باعتباره ضارا.

ذُكر تقديم لبن الثدي للكبار سابقا كعمل خيري للمسنين والمساجين المحتاجين. وفي إنجلترا يوجد بالفعل ذكر لحالات استُخدمت فيها الرضاعة الطبيعية كدواء يعود تاريخها إلى وقت مبكر يرجع إلى عام 1655، وجرت التوصية بها كعلاج لبالغين مرضى بشدة يعانون من أمراض العين والسل.[236]

وعلى مدى السنوات القليلة الماضية جرت إعادة اكتشاف فوائد الرضاعة الطبيعية للكبار في الصين. وعلى مواقع عديدة تُقدِّم خدمة المرضعات للبالغين المرضى وغير المرضى وكذلك للأطفال. ويمكن للزبائن الاختيار إن كانوا يريدون شرب اللبن من الثدي مباشرةً أم من كوب. ويجري توفير صور الأمهات الشابات للرجال كي يختاروا من بينهن. ولدى قيامك بالاشتراك في تطبيق الدردشة الجماعية «سموذي» على موقع ماذر ناتشر، ستتمكن دائما من العودة إلى أثدائك المفضلة. ومن وقت لآخر يجري القبض على مجموعة من النساء لقيامهن ببيع هذا المنتج على الإنترنت، كما ذُكر باستياء في عدة جرائد:

> «ذُكر أن المحتالين استأجروا أمهات لرُضَّع حديثي الولادة من أجل إرضاع الكبار، ووفقا لتقرير صحفي، أطعمت النساء أطفالهن بحليب مجفف كي يركزن على بيع لبن الثدي تجاريا. قامت وزارة الأمن العام الصينية بالتنسيق مع الشرطة للقبض على عصابتين متورطتين في هذه التجارة، كما قال التقرير. وقالت الشرطة إن أكثر من 200 شخص من جميع أنحاء البلاد دفعوا مقابل خدمات الرضاعة والدعارة المعلنة على المواقع. ووفقا لجريدة محلية، كانت هناك مواقع عديدة عرضت تقديم أمهات شابات لإرضاع الكبار مقابل

236- Ibid. Philosopher Carl Buttenstedt was the author of *Die Glücksehe- Die Offenbarung im Weibe,eine Naturstudie* ('The Happy Marriage'); Mary Prior, *Women in English Society*, 1500- 1800, 1991:6.

أجر.»[237]

هل الرضاعة الطبيعية هي الطريقة الجديدة لإظهار مقدار ثرائك الفاحش في الصين؟ في مدينة شنجن يقوم البالغون القادرون على ذلك باستئجار مرضعة شخصية، بسبب القيمة الغذائية الخاصة للبن الثدي. مع وظيفة شاقة وصحة شخصية سيئة ودخل عال يمكن للمرء أن يتخذ مرضعة للاستخدام الشخصي اليومي – مقابل مرتب ما بين 12000 إلى 20000 يوان في الشهر.[238]

وذكرت امرأة عملت في هذه التجارة بنفسها أن هناك نوعين من الزبائن، هؤلاء الذين يريدون اللبن فقط، وهو ما يُسمى بالخدمة النظيفة، وهؤلاء الذين يريدون المزيد، وهو ما يشار إليه بالخدمة القذرة. وكان هناك عدد من الأمهات لا يحصلن على زبائن منتظمين إلا إذا كن مستعدات أيضا لتقديم خدمات جنسية؛ وفقا لجريدة بكين نيوز.[239]

رد فعل أغلب مستخدمي الإنترنت الصينيين هو السخط: فهنا جرى انتهاك القيم الأخلاقية وعوملت النساء كسلع استهلاكية.[240] وهذا في وقت بذلت فيه الحكومة الصينية كل جهد ممكن لتشجيع الرضاعة الطبيعية بين الأمهات الشابات. خاصة بما أن بضعة فضائح خطيرة متعلقة بزجاجات اللبن الصناعي قد أدت إلى موت تراجيدي للأطفال.

في اليابان قام بونيو *بار* (بار لبن الأم) في طوكيو باستئجار النساء لخدمة زبائنه. ويتكون عملهن من صب وتقديم كوب من لبن الثدي مقابل حوالي 15 يورو أو تقديم اللبن مباشرة من الثدي إلى العميل مقابل 37.50 يورو. وفي الحالة الأخيرة تكون النساء مستعدات أيضا لفرك الشعر والهمس بالاسم والكلمات الحلوة في أذن الزبون

237- Https://ww.indiatoday.in/world/story/chinese- women- gang- sells- own- milk- to- men- with- breastfeeding- fetish- 2336860- 2015- 01- 01.

238- 9Https://qz.com.com/103834/in- china- whealthy- adults- drink- breast- milk- while- millions- of- infants- stick- withformula.

239- Https://ww.indiatoday.in/world/story/chinese- women- gang- sells- own- milk- to- men- with- breastfeeding- fetish- 2336860- 2015- 01- 01.

240- https://wikipedia.ory/wiki/Erotic- lactation.

وهو يرضع الحلمة. وأغلب الزبائن تكون أعمارهم ما بين ثلاثين وأربعين عاما.[241] والأمثلة من الصين واليابان ليست هي الاتفاقات الوحيدة المدفوعة أو الصفقات التجارية.

في أجزاء أخرى من العالم يبدو أيضا أن الرجال يحبون أن تحضنهم أم مرضعة. فقد اعترف رجل نيجيري أنه جرَّب الأمر ذات مرة مع فتاته السابقة وتبين أنها خبرة حميمية ومفيدة. وقد بحث عن المرأة مرة أخرى ويدفع الآن مقابل هذه الخدمة. ورغم أنه يعترف بأن هذه العلاقة تبدو محملة جنسيا، إلا أنها لا تعني المتعة الجنسية بالنسبة له، بل الحميمية. ووجد رجل آخر أن منظر زوجته وهي ترضع طفلهما الأول إيروتيكي جدا حتى أن «ثدييها وهما يقطران باللبن قد أثاراه.»[242]

ثمة مقال طويل على الموقع الإلكتروني لجريدة نيو تليجراف النيجيرية ناقش السؤال الجوهري: لمن ينتمي الثديان، للزوج أم للطفل؟ وجمع المقال عددا من التعليقات على حسد الآباء لمطالبة الأطفال واستيلائهم على الثديين اللذين يبدو أن الرجال يعتبرونهما ملكية خاصة بهم. واستعر النقاش في أسبوع الرضاعة الطبيعية العالمي (الأسبوع الأول من أغسطس) بعد أن قام مفوض الدولة للإعلام في لاجوس بتقديم نصيحة جادة للآباء كي يتوقفوا عن منافسة أطفالهم على ملكية الأثداء:

> «بدلا من التنافس مع الأطفال، ينبغي على الرجال أن يشجعوا زوجاتهم على الانخراط في الرضاعة الطبيعية الحصرية والتي هي حيوية للأطفال خاصةً خلال شهورهم الستة الأولى. ومع ذلك فإن بيانه أثار ردود فعل مختلطة من الرجال؛ حيث اعترض كثيرون بشدة على ما قاله بل وجادل البعض بأن أثداء زوجاتهم ملكية حصرية لهم وليست أطفالهم.»[243]

خلاصة ردود الفعل الفكاهية تكشف أن الرجل «بالطبع» هو مالك ثديّ زوجته:

241- 242Https://www.atlantico.fr/antlantico- light/japon- prendrez- biern- verre- lait- matemel- 1974264.html#9m3mpYQ4xxmSZqB6.99.

242- Https://allafrica.com/stories/201601201337.html

243- https://www.newtelegraphng.com/2017/08/breastfeeding- wives- breasts- not- babies- nigerian- men/

«أحتاج هذين الثديين أكثر من الطفل، لأنهما يخصانني وجزء من الثمن الذي دفعت المهر من أجله.» أو: «قد يستأجرهما الطفل لبعض الوقت، لكنهما ملكي!» و: «استدارتهما الدافئة ودفئهما هما السبب في أني أرضع ثديّ زوجتي، سواء كانت تطعم الطفل أم لا.» ويصر أغلب المعلقين صراحةً على أن «الثديين يخصان الرجل حصريا» أو أن «الرجال هو المالك الشرعي». أو بكلمات رجل أعمال: «الرجل هو الوصيّ الكامل على الثدي، لكن لا بد أن يلزم مؤخرة المسرح عندما يظهر الطفل في العرض. كلا الرجل والطفل يحتاجان الثدي؛ بينما يحتاج أحدهما إليه من أجل الغذاء وهذا لفترة ما، يحتاجه الآخر من أجل المتعة طوال الحياة. [...] يملك الطفل اللبن لكني أملك الثدي.»

في جريدة *The Nation* يتم التعامل مع الموضوع أيضا من وجهة نظر النساء، ويبدو أنهن يتفقن مع الرجال. مثال على ذلك:

> «لزوجي حق الشفعة. ورأيي أن الرجل يملك الثدي، وليس الطفل. عندما تكون امرأة في فترة الرضاعة الطبيعية، يمكن للطفل أن يطالب بملكية الثدي، (لكن) بعد فترة الرضاعة، يعود الثدي إلى الزوج حتى تحبل المرأة مرة أخرى. لذا، فإنه فقط خلال الرضاعة يمكن للطفل أن يطالب بالثدي. وفي غير ذلك، يملك الزوج الثدي.»[244]

أما صورة المرأة كمالكة لجسدها وأجزائه فهي غائبة تماما في تعليقات الذكور والإناث كليهما أعلاه.

يظل لبن الثدي ظاهرة مثيرة للاهتمام من جوانب كثيرة. لقد تمت تجربته حتى في أطباق الطعام. تعلن بعض المواقع عن وصفات لآيس كريم وزبد وجبن وزبادي بلبن الثدي، وفطائر وخبز وكعك، وريزوتو لبن الثدي بعش الغراب، ولازانيا لبن الثدي، ولبن ثدي مخفوق بالفواكه. وهناك مبادرتان استخدمتا لبن الثدي كمكون للإنتاج والبيع حظيتا بحياة قصيرة: جبن أمريكي وآيس كريم إنجليزي مصنوعان بلبن الثدي. جرى إنتاج الجبن بواسطة مالك مطعم في نيويورك بلبن من زوجته. وكان يقدم الجبن في

244- Placed by Precious Dikehowa: 'Should men stay off wives' breasts?', 23 Oktober 2015 in: thenationonlineng.net/should- men- stay- off- wives- breasts/.

مطعمه الخاص في مانهاتن كطبق مقبلات مع التين والفلفل المجري وأسماه جبن لبن الثدي. وعلى الفور تم توجيه إنذار إلى المطعم من وزارة الصحة بمدينة نيويورك التي منعت المزيد من الإنتاج والبيع. نفس المصير كان في انتظار طبق حلوى قُدم في مطعم بلندن. كان يُدعى آيس كريم لبن ثدي بيبي جاجا وكان ثمنه أربعة عشر جنيها. ورغم أنه كان مصنوعا من لبن منتقى بعناية ومُقدَّم من أمهات جرى فحصهن على يد (الخدمة الصحية الوطنية للتبرع بالدم)، إلا أن هذا الآيس كريم الخاص صودر في غضون بضع ساعات ومُنع بيعه. علاوة على ذلك، أقامت ليدي جاجا قضية ضده؛ لأن اسم المنتَج كان مشابها جدا لاسمها.[245]

قبل هذا، قامت صالة عرض فنية في نيويورك بتقديم جبن لزائريها مصنوعا من لبن الثدي. كان بها عمل فني مركب بعنوان (The Lady Cheese Shop / محل جبن السيدة) أقامته ميريام سيمون Miriam Simun، وكان مقصودا به إثارة أسئلة أخلاقية حول التكنولوجيا الحيوية الحديثة. وكانت تأمل أن يجعل جبنها الناس يفكرون مرتين حول الطرق المتنوعة التي جرى بواسطتها استخدام الجسد البشري كمصنع يتم داخله إنتاج الدم والشعر والمنيّ والبيض والأعضاء ليحصدها الآخرون.[246]

هذه الأسئلة لا تقل أهمية عند الحديث عن الثدييات الأخرى ويعيدنا هذا إلى الثدييات التي صنَّف لينيوس الجنس البشري كجزء منها. من بين كل الثدييات فقط البشر هم من وانتهم فكرة السماح للكبار بالرضاعة من أثداء الإناث نظير مقابل.

245- *Cultural Encyclopedia of the Breast* 65- 66.

246- Https://huffingtonpost.com/201103/05//human- breast- milk- cheese- n- 856866.html.

الجزء الثالث

السلطة والعجز

9

العنف: «هي تعرف السبب.»

آه يا سانت آجاثا، يا من قاومت العروض غير المرحب بها من خاطبين غير مرغوبين، وقاسيتِ الألم والعذاب من أجل إخلاصك لسيدنا، نحن نحتفل بإيمانك وكرامتك واستشهادك. احمينا من الاغتصاب والانتهاكات الأخرى، احرسينا من سرطان الثدي ومِحَن النساء الأخرى، والهمينا التغلب على الشدائد.[247]

يبدو أن العنف الذكوري ضد النساء موجود في كل مكان حول العالم بسبب الخيانة الأنثوية المزعومة أو الخوف من الهجر. ومن منطلق الخوف من النشاط الجنسي المنفلت للنساء وقدرتهن على الولادة، جرى بشكل واسع تقديم السيطرة الذكورية على الرحم كضرورة مطلقة، مع الجدال بأنه دون التدخل الذكوري سيتحول العالم إلى فوضى هائلة منفلتة.

الأم الملتهمة

في الأساطير المختلفة لأصل الأشياء "يخرج" الأسلاف الأوائل من وعاء أو يقطينة أو زجاجة أو قدْر أو بيضة. في القصص، تشير اليقطينة إلى كل من الاكتمال الخصب والتهديد الجشع. في كتابها الجميل *La mère dévorante* *الأم الملتهمة*، تحلل دينيس بولم Denise Paulme تنويعات قصة إفريقية عن موضوع يقطينة لا يمكن التحكم فيها. فهي تبتلع كل شيء وأي شيء، حتى ينجح كبش في شق هذا الوحش

247- Https://www.catholicculture.org/culture/liturgicalyear/calendar/day.cfm?date=2016- 02- 05.

الشره بنطحة رأس قوية ويحرر كل الأحياء من محبسهم في الداخل. إن الشراهة المرعبة لليقطينة لا يمكن القضاء عليها إلا بواسطة عنصر ذكري منقذ – كبش فحل أو حطّاب مفتول العضلات.[248]

بمعنى إيجابي، ترمز اليقطينة إلى الأم المثالية، لكن خبرة الحمل الأنثوية تثير الحاجة الذكورية للتعويض. ويتجلى التفوق الذكوري بالأساس خارج البيت «في نطاق الحياة العامة التي يُفضَّل إقصاء النساء منها.» مثل هذه القصص مليئة بالحوادث والدراما التي يتغلب فيها النظام الذكوري على الفوضى التي تُلام النساء عليها.[249]

هؤلاء الذين يريدون أن يُبقوا امتياز الولادة تحت السيطرة، يطبقون الآليات المعتادة: من ناحية يقللون من شأن النساء أينما أمكن ذلك، ومن ناحية أخرى يحذرون من القوة الأنثوية المدمرة. ويجري تجاهل التشابهات الكبيرة بين الرجال والنساء لأن التأكيد على الاختلافات الجنسية يُبقي الهيراركية سليمة دون مساس.

تعكس اليقطينة الملتهمة الخوف من الزوجات المنفلتات والأرحام النهمة، ذلك الخوف الذي يظهر أيضا في الممارسة التحليلية النفسية. فالحاجة إلى احتواء القوة الأنثوية تؤدي إلى تعليقات عدوانية على النساء الناجحات وأيضا، لسوء الحظ، إلى عنف بدني بالغ.[250]

خلف الباب الأمامي

لقد كان العنف ضد النساء موجودا دائما. تطور هذا الضعف البشري من حقيقة أن الرجال كانوا غالبا أقوى بدنيا وطوروا قوة عضلية أكبر من خلال الصيد، بينما اعتمدت النساء، الحوامل أو المحاطات بالأطفال، على «حام». لماذا لم يتوقف هذا العنف في المجتمعات الأقل اضطرابا؟ بصيغة أخرى، لماذا لَم يتوقف أبدا؟

248- Denise Paulme, *La m you are youère list of the dévorante*, 1975.

249- Paulme 282; Héritier II: 131- 2.

250- Jean Cournut, *Pourquoi les hommes ont peur des femmes. Essai sur le féminin érotico- maternel*, 2015; Lederer o.c. passim.

بالبحث عن إجابة لهذا السؤال، وصل علم النفس التطوري إلى استنتاج أن مزيجا من العدوانية والسلوك الجنسي الاستحواذي ينتج «كوكتيلا خطرا»:

"إن خطر العنف البدني والذي قد يكون قاتلا حتى يزيد نسبيا تبعا لقيمة شريك المرأة: فالنساء الشابات والجذابات يكون احتمال الإساءة إليهن من شريكهن أكبر بكثير من النساء الأكبر سنا أو غير الجذابات. وهذا صحيح خاصةً لو كانت المرأة أصغر بكثير من شريكها؛ لأن عمرها يجعل من السهل عليها أن تجد شريكا أكثر جاذبية [...]. إن نموذج هذه الأفعال من العنف والحقيقة العامة بأن الرجال الشباب حول العالم يكونون عدوانيين بشكل خاص ويرتكبون أعنف الجرائم [...] يلائمان نظرية الانتقاء الجنسي مثل قفاز.»[251]

تقليديا، تعرضت النساء الخصبات للتقييد بطرق كثيرة، بينما نالت النساء بعد سن اليأس مزيدا من الحرية وسُمح لهن أحيانا «بشرب البيرة كالرجال» كما اعتاد مَثَل من جاندا، التبت أن يحدد الاختلاف. ورغم الخلفيات الثقافية والدينية المختلفة، فقد فُرضت قيود متشابهة إلى حد كبير على النساء طوال التاريخ، كما لخصتها ببراعة جريت فوندرماسن Griet Vandermassen:

"ظواهر مثل الحجاب والطرحة، والبردة، والحبس، والختان الفرعوني، واستئصال البظر، والإشراف على النساء، والتقدير – أو الاشتراط – العالي لعفة الأنثى، ومفهوم النساء كملكية خاصة والزنا أو الاغتصاب كانتهاك للملكية، واحتقار العاهرات، ومساواة "حماية النساء" بـ "حمايتهن من الاتصال الجنسي" والقوانين التي تبرر العنف الذكوري إذا كان بسبب السلوك "المتهتك" لزوجاتهم أو بناتهم أو أخواتهم.»[252]

توضح الأمثلة القديمة والحديثة كيف كان يُنظر غالبا إلى الزوجات والعشيقات بشكل آلي كملكية للأزواج. في عهد أسرة مينج الحاكمة الصينية (1644–1368)، جمَّع بعض رؤوس العائلات من ذوي الخبرة وثائق سرية دوَّنوا فيها أفكارهم عن الحياة الجنسية داخل العائلة. وقد تم حفظ جزء من واحد من هذه الكتب. يلاحظ

251- Griet Vandermassen, *Darwin voor dames*, 2005:168- 169.

252- Vandermassen ibid.

الكاتب المجهول أن كل إنسان لديه عيوب، ويشمل هذا النساء. ولا بد من توبيخهن، لكن المرأة التي لا تحسن استغلال حياتها تستحق الضرب: يجب أن ترقد المرأة على بطنها فوق أريكة، ويُحل بنطالها، وسوف تتلقى خمس أو ست ضربات على مؤخرتها، وفقا للقواعد – ليس على ظهرها ولا على فخذيها:

"ومع ذلك من وقت لآخر هناك رجال عند تطبيق العقاب على محظية يجردونها من ملابسها تماما ويربطونها إلى عمود بالحبال ويجلدونها دون تمييز حتى يتفجر اللحم وتُغطى بالدماء. وهذا لن يؤذي النساء فقط لكن الرجل نفسه؛ لأنه بهذا الشكل تنحط مآوي نساء المرء إلى حجرات تعذيب مثل تلك التي في المحكمة. وينبغي تجنب هذا بجميع الوسائل.»[253]

مازال المثل القائل: «اضرب زوجتك بانتظام، وإذا لم تعرف السبب، فستعرف هي السبب.» شائعا في غرب إفريقيا. سمعته لأول مرة مقتبسا على سبيل المزاح في داكار حيث أكد لي محدثي من شعب وولوف أنه من أصل عربي. ثمة مثال أوروبي مشابه هو الرسالة الإيبيرية: «لكي تُبقي زوجتك على المسار الصحيح، اضربها، وإذا خرجت عن المسار، اضربها.» إنه يعكس نفس العقلية التي في المثال الغرب إفريقي؛ والتي وصلت إلى أمريكا منذ زمن بعيد عن طريق المستوطنين الإسبان واحتواها بسلاسة التراث الشفاهي في بويرتو ريكو. لقد جرى ترويج العنف ضد النساء دون خجل في أمثال من كل مكان تقريبا:

لمن يضرب زوجته، يُحسِّن الرب الطعام. (روسي)

النساء وشرائح اللحم؛ كلما ضربتهن أكثر، كلما زادت نضارتهن. (ألماني)

المرأة والكلب وشجرة الجوز، كلما ضربتها، كلما صارت أفضل. (أوروبا الغربية والولايات المتحدة)

الضرب بالعصا ينتج زوجات فاضلات. (صيني)

امرأة مضروبة ستكون زوجة أفضل. (كوري)

253- Van Gulik 269.

مسامير العربة ورأس المرأة لا تعمل إلا عند دقها بقوة. (راجستاني، الهند)[254]

قد تبدو مثل هذه العبارات القاسية أشبه بحديث/تبجح خشن لإثارة إعجاب الأصدقاء، لكن العنف الجسدي لم يكن أبدا مجرد مسألة تفاخر ذكوري. كان العنف ضد النساء جزءا من الطريقة التي تعلم بها الرجل، باعتباره المالك الشرعي للزوجات والبنات، أن يمارس سلطته. وتعكس الأمثال المتعلقة بالعدوانية ضد النساء – خاصة الزوجات – منطق تلك العقلية «التقليدية» دون تحفظ أو حرج. مازالت نساء كثيرات يُضربن على يد الرجال، وبشكل أساسي على يد شركائهن الحميمين أو أقاربهن الأقربين، كما تؤكد العديد من دراسات الأمم المتحدة.[255]

تتعرض النساء لخطر زائد في البيئات حيث:

- يُمنح الرجال مكانة أعلى من النساء،
- يمتلك الشركاء أنفسهم تاريخا من العنف المنزلي،
- توجد أيديولوجيا لمطالبة الذكور بالعنف،
- تملك النساء سبلا قليلة أو منعدمة للوصول إلى العمل المأجور،
- يمارس الرجال سلوكا مسيطرا بالغا،
- يوجد اعتقاد راسخ بعمق في شرف العائلة وحِمل جرائم القتل بسبب الشرف في حالة الانتهاك،
- العقوبات القانونية ضد العنف الجنسي ضعيفة.[256]

تؤكد أمثال كثيرة أن العنف ضد النساء هو تقليد جرى تمريره منذ زمن سحيق.

254- من أجل المزيد من أمثال العنف انظر الفصل الرابع في كتاب (إياك والزواج من كبيرة القدمين). ومن أجل أمثال من حول العالم عن العنف:

www.womeninproverbsworldwide.com.

255- http://www.unwomen.org/en/what- we- do/ending- violence- against- women/facts- and- figures.

256- http://www.who.int/mediacentre/factsheets/fs239/en/, updated November 2017.

وهو بالتأكيد ليس «الثمرة المُرَّة للحرية الجنسية في أواخر ستينيات القرن العشرين» كما زعم الأساقفة الإسبان في عام 2005، عندما بدأت الحكومة الإسبانية أخيرا في العمل على تقليل العنف العدواني سيء السمعة في البلاد. وبالتوازي مع نفس الخط الفكري، أعلن مطران إسباني في عام 2016 أن العنف المنزلي كان نتاجا للنساء الساعيات إلى الطلاق – وهو بيان شعر بأنه مضطر إلى إطلاقه بعد أن خُنقت امرأة في الثالثة والأربعين من عمرها على يد زوجها ذي الواحد والأربعين عاما.[257]

لحسن الحظ، هناك تعليقات دينية أخرى كذلك: بعد أن أدان القساوسة صراحةً العنف ضد النساء في تسعينيات القرن العشرين، تحدث مؤتمر الأساقفة الرومان الكاثوليك في الولايات المتحدة رسميا ضده في عام 2002: «نعلن بقدر ما يمكننا من وضوح وقوة أن العنف ضد النساء، داخل وخارج البيت، غير مبرر *أبدا*. إن العنف بأي شكل – بدني أو جنسي أو نفسي أو شفهي – هو عمل آثم؛ وغالبا هو جريمة كذلك. لقد دعونا إلى ثورة أخلاقية لاستبدال ثقافة العنف. ونحن نعترف بأن العنف له أشكال كثيرة، وأسباب كثيرة، وضحايا كثيرون – رجال ونساء كذلك. تُعلِّم الكنيسة الكاثوليكية أبناءها أن العنف ضد شخص آخر بأي شكل يفشل في معاملة هذا الشخص كامرء يستحق الحب. وبدلا من ذلك، يعامَل الشخص كأداة مستخدمة. [...] ورغم أن العنف يمكن أن يكون موجها نحو الرجال، إلا أنه يميل إلى إيذاء النساء والأطفال بشكل أكبر.»[258]

مثل هذه البيانات الرسمية من رجال الدين لها أهمية كبيرة اليوم، في الإسلام أيضا، حيث مازال «تأديب» النساء شيئا موصى به محليا ومبررا كتراث. تميل الآراء المتشددة إلى الرجوع إلى نصوص أحاديث يقال إن النبي محمد قال فيها: «لا يجلد أحدكم امرأته جَلد العبد». لذا، يحار المؤمنون المعاصرون حول ما هو مسموح وما هو غير مسموح؟ ولماذا؟ وها هي إجابة متشددة:

257- https://www.huffingtonpost.com/entry/archbishop-domestic-violence-spain_us_568bc89ee4b06fa6888374d8

258- http://www.usccb.org/issues-and-action/marriage-and-family/marriage/domestic-violence/when-i-call-forhelp.cfm; https://en.wikipedia.org/wiki/United_States_Conference_of_Catholic_Bishops.

"نظرا لفهمها الأضعف وطبيعتها العنيدة، سمح الإسلام تحت ظروف خاصة ومن أجل المصلحة بالتوبيخ، بل وبالعقاب البدني الخفيف في الحالات القصوى. وهذا هو الملاذ الأخير الذي قد يلجأ إليه المرء، عندما تكون الإجراءات الأخرى قد فشلت في وضعها على المسار الصحيح. [...] تبين الخبرة أن المرأة سريعة الغضب بالطبيعة ومن السهل استثارتها. لقد تشكلت هكذا بحيث يكون من السهل أن تنجرح مشاعرها، وعلى عكس هذا يمتلك الرجل عقلا أكبر ويمكنه تحمل الكثير من المضايقات.»[259]

في العديد من الكتب الإسلامية والكثير من المواقع الإلكترونية تحذير يقول إن «المرأة لم تُخلق كي تساء معاملتها وتُضرب.» ومع ذلك فإن الرسائل المتشددة تحبذ بوضوح الهيراركية التقليدية، مصرة على أنه، في التوجيهات التي قدمها النبي محمد، مُنح الرجال الأولوية على النساء: «لو كان الاثنان على قدم المساواة، سينتج عن تساوي المكانة في السلطة تفكك البيت». وبما أنه لا يمكن أن يكون هناك ملكان في مملكة واحدة، لا بد أن يكون الرجل هو الملك في البيت، وعند الضرورة، مسموح له بضرب زوجته؛ وليكن هذا فقط «ضربا خفيفا» و«بطريقة لا تخدش لحما». وليس عليه أن يجيب عن سبب هذا أمام أي شخص. كما ذُكر عن عمر بن الخطاب: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يُسأل الرجل فيمَ ضرب زوجته.»[260]

في الوقت نفسه، يجري التأكيد على التغيرات لصالح النساء بفضل الإسلام في ضوء السياق العربي ما قبل الإسلام:

"حيث لم تكن النساء تتمتع بمكانة أعلى من حيوانات الركوب والنقل، واعتاد الرجال على إساءة معاملتهن بقدر ما يشاؤون، وكان ضربهن وإلحاق الإصابات البدنية بهن شيئا معتادا. لكن مع صدور الأمر الإلهي، ذهبت كل أشكال الظلم والقهر [...] واستراحت النساء كثيرا جدا.»[261]

259- Mufti Zafeeruddin Miftahi, *Modesty and Chastity in Islam*, 1993:143.

260- Ibid. 141- 145. Kitab Al- Nikah, Book 11, Number 2139- 42 in http://www.answeringchristianity.com/beating_yes.htm.

261- Ibid 147.

بالطبع ليست هناك نهاية لتحسين وضع المرأة. مع الجدل بأن وضع الرجل كملك في بيته لا بد أن يظل دون تأثر، يستمر رجال الدين الإسلاميون المتشددون في الرجوع إلى تقاليد قديمة، بينما يتجه مزيد من المؤمنين المعاصرين وبشكل أكبر مما سبق إلى استشارة الأئمة بأسئلة حرجة تتعلق بهذه الأفكار العزيزة لديهم. وبحثا عن حلفاء، قام بعض المفسرين المتشددين حتى بالبحث في الكتاب المقدس عن نصوص تبرر العنف ضد النساء من وجهة نظر مسيحية، دون أن يجدوا دعما مقنعا للتقويم البدني للنساء.[262]

إن المنطق المتشدد الذي يرى أن كل شيء يجب أن يظل كما كان في زمن النبي محمد – يحفظ الحق الإسلامي للزوج في معاقبة زوجته أو زوجاته بدنيا. من حسن الحظ أن هناك الآن بلدانا، مثل تونس، حيث مازال القرآن مصدر إلهام؛ لكنه لم يعد يُرى كبرنامج عمل حرفي للمجتمع الحديث. شيء واحد أكيد: كل حجة معاصرة قوية يقدمها المسلمون ورجال الدين الآخرون المؤثرون في مواجهة الأخذ بتوصيات العنف القديمة حرفيا ضد النساء ستسهم في حماية النساء المعاصرات المثقلات بالتعدي من قبل شركائهن أو اللاتي ينتهي بهن الأمر كضحايا للموت. وتستمر أصداء العنف الوحشي والمفرط ضد النساء في التردد من كافة أنحاء العالم.

حتى النصف الثاني من القرن الماضي، لم تكن هناك حتى قوانين في أغلب البلاد لمواجهة العنف المنزلي. كان هذا العنف يُعتبر طبيعيا وكان الناس يشيحون بوجوههم إلى الناحية الأخرى؛ لأنه: «عندما يتعارك الزوج والزوجة، ابق مبتعدا.» (مقولة قديمة في هولندا). الاختلاف الجوهري ليس فقط في أن التشريعات ضد العنف موجودة الآن في بلدان كثيرة، بل أيضا في أن الموضوع مطروح للنقاش بصراحة أكبر من قبل.

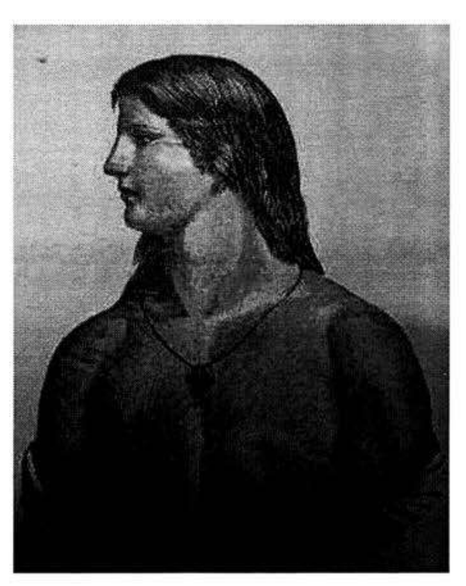
262- http://islamiat101.blogspot.nl/201212//wife- beating- in- bible- and- christianity.html; http://www.answeringchristianity.com/beating.htm.

قلاّعات الصدور وأدوات تعذيب أخرى

كثيرا ما مُنحت العدوانية الذكورية سلطانا خاصا على أجزاء الجسد التي لم يملكها الرجال أنفسهم، كما يمكن استنتاج هذا من ذخيرة محزنة إلى حد ما من المعلومات عن البتر والاغتصاب. في كتاب *De Vrouw in Natuur- en Volkenkunde* (المرأة في الفيزياء والإثنولوجيا، المنشور في بداية القرن العشرين) يصف المؤلفون تقاليد بشعة لقطع الثدي – دون تفسير الدوافع المحلية الكامنة لسوء الحظ:

> "في أستراليا، تُنتزع حلمات الفتيات الصغيرات لجعل الرضاعة أمرا مستحيلا. حتى في القرن الماضي كان هناك بتر رهيب في طائفة الأقباط المسيحيين في روسيا كان يجري [فيها] استئصال حلمات فتيات في العاشرة والتاسعة وحتى في السابعة من أعمارهن؛ وعندما كانت القضية تصل إلى المحكمة، كانت هؤلاء الطفلات يصررن بعناد أنهن من قمن بهذا البتر بأنفسهن [...]. من الواضح أن السر المقدس كان يلعب دورا كبيرا في ديانتهم. وبدلا من خبز القربان المقدس، كانوا يُمنحون قطعة صغيرة من ثدي فتاة دامٍ.»

قد يبدو هذا أمرا لا يُصدق، لكن الكتاب يضم رسوما توضيحية.



فتاة قبطية، في حوالي العشرين من العمر، بثديين مبتورين.
طباعة، نهاية القرن التاسع عشر

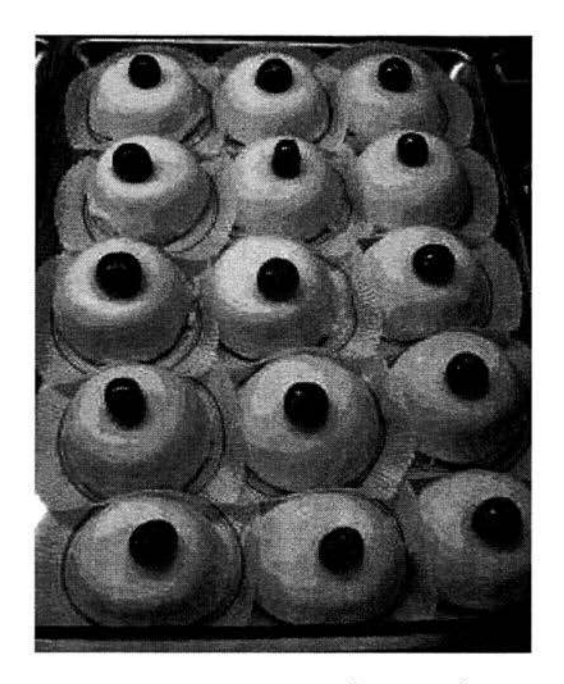
في الأساطير المسيحية عن القديسين، يعتدي الحكام «الوثنيون» على الفتيات الجميلات والتقيات اللاتي ينتهي بهن الأمر شهيدات ورعات. ثمة مثال مبكر متوفر في قصص عديدة عن سانت أجاثا (251-225) واستشهادها، يعود تاريخها إلى القرن السادس. وُلدت هذه الشهيدة الشهيرة في صقلية وأصبحت واحدة من أوائل المسيحيات المطوبات. بعد أن رفضت هذه العذراء المثالية ذات الأصل النبيل عروضا من الحاكم الروماني غير المسيحي وأبت أن تتزوجه، عذبها حتى الموت:

"وخلال أعمال التعذيب تلك صلَّت: "من أجل حب العفة عُلقت من المخلعة. ساعدني يا سيدي يا إلهي، وهم يقطعون ثدييّ" ووبخت أجاثا الحاكم على همجيته: "أيها الطاغية الكافر القاسي المخزي، ألا تستحي من أن تسلب امرأة من ذلك الذي أرضعتك أمك منه؟ "[(263)]

ماتت أجاثا من جرَّاء تعذيبها. ومازالت النساء اللاتي في مواقف يائسة يدعونها في صلواتهن، مثلما نرى في تصدير هذا الفصل. والرمز الأساسي لسانت أجاثا هو الأثداء على طبق، بينما تصورها الرسومات واللوحات حاملة ثدييها الممزقين على طبق من فضة أو تمسك بيد الكماشة الممزقة لواحد من ثدييها المقبوض عليهما. ثمة رسم توضيحي في مخطوط قروسطي يُظهر رجلين يمزق كل واحد منهما واحدا من ثدييها عن جسدها الضعيف.

في الخامس من فبراير، يوم عيد هذه القديسة، يمر موكب يحمل تمثالا لها بالحجم الطبيعي مزينا بثروة من المجوهرات عبر شوارع مدينة كاتانيا، محاطا بآلاف من الأشخاص الباكين والنائحين المبتهلين إليها. وفي يوم عيدها ينهمك الناس في أكل حلوى إسفنجية لذيذة على شكل ثدي عذراء مغطى بعجينة سكر مقرمشة ومتوج بثمرة كرز حمراء مسكَّرة – للإبقاء على ذكرى مصير سانت أجاثا القاسي حية في الذاكرة. في الأصل كانت الراهبات هن من يصنعن هذه الحلوى، والآن هذه الحلوى المسماة ميني دي فيرجيني *Minni di Virgini* متاحة لدى محلات الحلوانية.

263- Https://www.catholicculture.org/culture/liturgicalyear/calendar/day.cfm?date=2016- 02- 05.



أثداء سانت أجاثا، حلوى صقلية تقليدية

توضح أدوات التعذيب الحديدية في المتاحف أن وضع شخص ما على المخلعة لا يحدث فقط في القصص. في العصور الوسطى الأوروبية اختُرعت بعض الأدوات خصيصا للأثداء أو الأرحام. كانت قلّاعة الصدر، المكونة من كماشتين حديديتين بكلابات، تُستخدم إما باردة أو محمَّاة لوسم الثديين المكشوفين لأم غير متزوجة أو للضغط على أنثى مشتبه بها متهمة بالتجديف أو الهرطقة أو الزنا أو القيام بالإجهاض:

"كان مقصودا بهذه الأداة أن تبتر بقسوة وألم ثديَيّ المرأة: "وإذا لم تُقتل الضحية ستحصل على ندوب مدى الحياة لأن ثدييها كانا يمزَّقان حرفيا." وهناك تنويعة أخرى شائعة لقلاعة الصدر يشار إليها غالبا باسم "العنكبوت" وهي أداة مشابهة تعلق على جدار. ويتم تثبيت ثديي الضحية بالكلابات وتُجذب المرأة على يد الجلاد بعيدا عن الجدار، ليزيلهما بنجاح.»(264)

264- In Medieval Times and Castles, 2008 http://www.medievality.com/breast-ripper.html; http://www.medievality.com/breast- ripper.html.

كانت المرأة التي تُجبَر على الخضوع لهذا التعذيب تشوَّه بفظاعة لبقية حياتها، إن لم تسلم الروح في الحال.

ثمة أداة أخرى كان اسمها «كمثرى الخوف». ثمة نموذج صغير منها كان يُستخدم موضعيا في فم أو شرج الرجال؛ لكن نموذجا أكبر كان يتم الدفع به عبر فرج المرأة إلى داخل رحمها. من الخارج، كان يتم بعد ذلك ربط لولب بإحكام أكبر وأكبر، ونتيجة لهذا تنفتح في الداخل النصال الحادة لهذه الأداة التي تتخذ شكل الكمثرى. كان التعذيب بالكمثرى يشوه التجويف المبتلى على نحو لا يمكن إصلاحه – وكثيرا ما تكون النتيجة قاتلة دائما.

مازالت العدوانية تجاه الأثداء والأرحام والأعضاء التناسلية تحدث، وليس فقط في نزوات البورنو. في مناطق من سوريا والعراق حيث تغلبت حركة داعش، وحتى وقت قريب، كان يجري اغتصاب وتعذيب الفتيات المسيحيات واليزيديات على يد من يُدعون بمالكيهم، الذين يعاملونهن كرقيق للجنس. وفقا لتفسيرهم للقرآن، لا يمثل اغتصاب العبدة إثما. وأحيانا كان يتم قطع «الأثداء وغيرها من أعضاء الجسد الحساسة» على سبيل العقاب. تتوافق رؤى داعش المعاصرة مع رؤى ثقافية أو دينية تقليدية للمرأة باعتبارها مجرد منطقة عورة واحدة كبيرة: لا ينبغي أن يرى جسدها أحد غير مالكها الشرعي، والنساء اللاتي يعصين شرط عدم الظهور يُعاقَبن.[265]

ثمة مثال متطرف لهذه العقلية من القرن السابع عشر موجود في تاريخ سجله الرحَّالة الهولندي يان يونسون سترايس Jan Janszoon Struys. حصل هذا البحَّار القادم من شمال هولندا على وظيفة في بناء أسطول القيصر الروسي في أستراخان. وذات يوم حوصرت هذه المدينة بواسطة القوزاق وانتهى الأمر به عبدا في داجستان. هناك كان يوجد خان مسلم يحكم كتابع لشاه إيران.

في كتاب بعنوان *Drie aanmerkelijke en seer rampspoedige Reysen* (ثلاثة أسفار كبيرة وخطيرة جدا، أمستردام، 1676) حكى سترايس عن حادثة صادمة في المنطقة: وجدت محظية بولندية لتاجر فارسي طريقة للهرب إلى القنصل

265- http://shoebat.com/201416/09//muslims- take- christian- girls- cut- breasts/.

البولندي. أعطى الخان إذنا للتاجر كي يستعيد الفتاة و»يفعل بها أي شيء يريده«. اختار أن يسلخ عارها الوسخ حية وعلق جلدها المسلوخ على حائط حجرة منفصلة كتحذير لكل محظياته الأخريات.

في عام 1673 عاد ستاريس إلى هولندا كرجل حر وعلق على هذه الواقعة التراجيدية في قصة رحلاته: «رغم أنهم أقذر الرجال وأكثرهم شهوانية وعدم وفاء لقيم الزواج، إلا أنهم مع ذلك يريدون من زوجاتهم أن يكن مستقيمات وعفيفات ومخلصات.» وضع كتابه لوحة مطبوعة واقعية لتعذيب هذه المرأة الرهيب. على يمين اللوحة يجري سلخ جلد المرأة المربوطة بأكمله، وثيابها وخفها على أرضية الغرفة. وفي الحجرة المجاورة يشرح التاجر الفارسي لمحظياته المجتمعات أن مصيرا مشابها ينتظرهن، إذا خطر ببالهن أن يحاولن الهروب بهذه الطريقة.[266]



على اليمين: امرأة يتم سلخ جلدها على سبيل العقاب.
على اليسار: «المالك» يعرض جلد المرأة المسلوخ بعناية كرادع للنسوة الأخريات في حريمه.
نقش نحاسي، 1676.

266- Jan Janszoon Struys, Drie aanmerkelijke en seer rampspoedige Reysen. Amsterdam: 1676; re- edition: 2014.
مع الشكر لأرنود فروليك Arnoud Vrolijk القيم على المخطوطات الشرقية، مكتبات جامعة ليدن.

في ذلك القرن السابع عشر نفسه، وقعت أشكال من التعذيب لا تقل بشاعة في أوروبا. كثيرا ما تم قطع أثداء النساء المتهمات بالسحر، قبل أن يصعدن إلى كومة حطب المحرقة. وهناك حالة فاضحة هي تاريخ عائلة بابنهايمر البافارية، وهم منظفو مراحيض متجولون. قبل أن تُحرق الأم آنا باعتبارها ساحرة، قطع الجلادون ثدييها وحشوا كليهما أولا في فمها وبعد ذلك في فم ابنيها ليسخروا من دورها كأم.

في كل مكان في العالم توجد أمهات لفتيات مراهقات قلقات من رجال شبقين قد لا يبعدون أياديهم عن هؤلاء الفتيات البريئات. في عدد من الحالات، تكون الأمهات على حق. ونتيجة لقلقهن حيال خير وسلام بناتهن، يشرعن أحيانا في إجراءات أمنية كارثية لمنع السيناريوهات الأسوأ. أحد هذه الإجراءات هو التقليد الخاص بتسطيح الصدر، وهو تقليد يحدث بشكل أساسي في المناطق الريفية في الكاميرون وبعض البلاد الإفريقية الأخرى:

> "كيّ الصدر ممارسة لتسطيح الثديين تُجرى على الفتيات المراهقات باستخدام تدليك الضغط الثابت بأشياء ساخنة كالحجارة وقشر جوز الهند والهاونات والملاعق وحتى المطارق. وعادة ما يتبع هذا التدليك استخدام قشور فاكهة ساخنة وربط الصدر بإحكام لجعل صدر الفتاة يبدو مسطحا.»[267]

وتهدف الأمهات إلى إخفاء النمو الجنسي للفتاة وتقليل جاذبيتهن الجنسية. وكما هو الحال مع الختان الفرعوني واستئصال البظر، تتحكم الأمهات أو الخالات أو الجدات في أجساد فتيات عائلاتهن في مسائل كيّ الصدر. النوايا طيبة: فعن طريق تشويه الصدر تحاول الأمهات جعل بناتهن أقل جاذبية كي يحميتهن من الاعتداء الجنسي والاغتصاب، من عدوى الإيدز ومن الحمل غير المرغوب، على أمل أن يبقين وقتا أطول في المدرسة ويتمكنّ من الاعتناء بأنفسهن وبأطفالهن في الحياة. ومع ذلك، فإن ممارسة الكيّ هذه تنتج بالأساس تأثيرات سلبية، من البثور المؤلمة وحالات العدوى إلى الخراجات، ومن تدمير الغدد الثديية والندوب الخفية إلى توتر ما بعد الصدمات.[268] في بعض المناطق، تقاسي أكثر من نصف الفتيات من هذا العلاج

267- *Cultural Encyclopedia of the Breast* 68ev.

268- https://newint.org/features/2013/05/01/tales- of- taboo/.

الخطر. على فترات متقطعة تقاد حملات لإيقاف هذه الممارسة، لكن مازال لا يوجد أي قانون يحظر هذا التقليد الضار. القوانين خطوة أولى جيدة، دون أن تكون ضمانة كافية لإبطال الممارسات المشينة.

الاعتداء الجنسي في أوقات الحرب

كل الأمثلة المبينة حتى الآن للاعتداءات المؤثرة على أنوثة الفتيات والنساء وبسبب كونهن نساء حدثت في مواقف ليس بها صراعات مسلحة.

الاغتصاب شيء ثابت في التاريخ، بالضبط مثل المعاملة غير المتساوية للرجال والنساء أمام القانون: ففي أغلب القضايا يكون على الضحية أن تتحمل مسؤولية أكبر من الجاني. يرى البعض الاغتصاب كإستراتيجية ذكورية للتحكم في النساء. بالنسبة للنساء، تتحول الندوب النفسية للاغتصاب إلى أن تكون أكثر إيلاما من ندوب الاعتداء البدني «العادي». في وقت الحرب، تتضخم المخاوف «العادية» بشكل دراماتيكي؛ خاصةً لأن الاغتصاب يتحول إلى سلاح. في الصراعات الحربية، كانت النساء والأطفال دائما فريسة سهلة للسلوك الجنسي الوحشي. في مدينة كورنيليا الألمانية على نهر نيكار، قتل الهون تحت قيادة أتيلا (406-453) كل الرجال، ثم اغتصبوا النساء قبل أن يجتثوا أثداءهن. ومنذ ذلك الوقت تُدعى المدينة القديمة (ويمبفين)، وهو تحريف للكلمة الألمانية *Weiberpein* التي تعني «ألم النساء».

تقع مثل هذه الجرائم أيضا في التاريخ الأحدث. قرب نهاية الحرب العالمية الثانية، اغتصب جنود الجيش الأحمر مائة ألف امرأة في الطريق إلى برلين. بعد ذلك انتحرت مئات النساء. مقتنعات بأنهن قد فقدن شرفهن، شُجعت الفتيات (غالبا عن طريق آبائهن) على القيام بالانتحار. أما الرجال الذين كانت زوجاتهم من الضحايا فأحيانا كانوا يقتلون الأسرة كلها وبعد ذلك يقتلون أنفسهم. كان يُنظر إلى المرأة المغتصَبة كامرأة مدنَّسة.[269]

إن الاغتصاب المتسلسل سلاح كارثي لا يُذل الضحية فقط بعمق بل أسرتها كذلك.

269- Jolande Withuis in newspaper *Trouw*, 25 november 2017.

حتى وقت قريب، لم تكن هذه الجريمة تؤخذ بجدية ولم تكن تُعتبر جريمة حرب. من وقت لآخر، يقوم شهود العيان من مناطق الحرب برفع أطراف الحجاب الثقيل الذي يغطي أغلب الجرائم الجنسية. وها هي ثلاثة أمثلة من أجزاء مختلفة من العالم:

ضحية رواندية تقوم بدور شاهد في محكمة رواندا: «إذا كنتِ تنصتين إلى الراديو الآن وتسمعين عن الحرب في البلاد الأخرى حيث يُستخدم الاغتصاب كسلاح، فنحن نعرف أن الصمت يقتلك ببطء؛ لكنك عندما تتكلمين عنه، يُشفى الجرح تدريجيا.»[270]

نادية مراد، ضحية لعبودية الجنس في العراق، عازمة على إخبار العالم بكل فظائع داعش التي تعرضت لها: «... أنا مستعدة للشهادة وإخبار المحكمة بما فعله بي وبكل الفتيات اليزيديات.» منذ عام 2016، وهي ملتزمة بكرامة ضحايا الاتجار في البشر باعتبارها سفيرة النوايا الحسنة الأولى للأمم المتحدة.

ممتاز بيجوم، إحدى ضحايا الروهينيجيا للعنف العسكري البورمي الوحشي، ترفض أيضا أن تظل صامتة: «... أريد أن أخبر العالم كل شيء فعله الجنود... اغتصبونا وقتلونا. نحن نريد العدالة.»[271]

كل الصراعات الحديثة، من المأساة البوسنية الصربية إلى الحروب في سوريا والعراق والكونغو، تبين أن الاغتصاب مازال مستخدما كسلاح. في الحرب الأهلية في جنوب السودان (2013 - إلى الآن) لم تقم جماعات المعارضة والعصابات الإجرامية فقط بمطاردة واصطياد النساء والفتيات، بل جنود جيش جنوب السودان فعلوا الأمر نفسه – بإذن من قيادات عليا في الجيش – للتعويض عن المرتبات غير المدفوعة.

تختار أغلب النساء أن يبقين صامتات بشأن العنف الجنسي لأنهن يعرفن أن الضحايا السابقات هجرهن أزواجهن وتم طردهن من المجتمع المحلي بمجرد أن

270- https://www.theguardian.com/film/2015/oct/09/rwanda- genocide-documentary- uncondemned- filmmakerdeath.

271- http://www.independent.co.uk/news/world/asia/rohingya- crisis- women- rape-muslims- burma- militarysoldiers- ethnic- cleansing- genocide- a8103441.html.

عُرفت الأخبار السيئة. وهكذا يُعاقَبن مرتين.[272]

الفيلم الوثائقي الجميل *ماما كولونيل* (مهرجان أمستردام الدولي للأفلام الوثائقية 2017) للمخرج ديودو هامادي Dieudo Hamadi يكسر التابو، بفضل الكونغولية هونورين مانيول Honorine Manyole، التي سترأس الشرطة في كيسانجاني. تذهب إلى السوق بمكبر صوت وتخاطب نساء السوق اللاتي تعرضن للصدمة على الملأ: لا تبقين منغلقات على أنفسكن، تعالين وتكلمن عما حدث لكُن. تنزلق الكاميرا مارةً بعيون رأت فظائع حرب لا يمكن تخيلها وبوجوه دمرها حزن لا يمكن استيعابه. بفضل الأذن المصغية بصبر لهذه الضابطة الشرطية الكبيرة، تقابل هؤلاء النساء لأول مرة شخصا متفهما إلى أي حد أدت فظائع عنف الحرب الجنسي إلى تدمير حياتهن تماما. أن يقوم شخص ما بأخذ قصصهن الرهيبة عن الحرب مأخذ الجد أمر هام لكل واحدة منهن شخصيا، لكن جعل هذه الاعتداءات معروفة على الملأ يمكن أن يكون محررا لمجتمع بأكمله.

طوال التاريخ، اعتبر الحكام الصغار والكبار دائما أجساد وقوة عمل رعاياهم تحت تصرفهم. ولا يبدو أنهم يعتبرون هؤلاء الذين ينتمون إلى الجماعة أو الطبقة أو العِرق أو الجندر التابع بشرا مثلهم. والتجاوزات في زمن الحرب أمثلة بالغة على هذا.

في أساطير البدايات، يعكس صراع السلطة تغير العلاقات المجتمعية. ينعكس الخوف والارتياب في دعوة للعنف ضد كائن أنثوي مسيطر أو أعلى. في القصة البابلية، يذبح الإله مردوخ بعنف الأم الأولى تيامات، وهو مجرد مثال واحد للإثبات المذهل لمن يكون في موقع القيادة.

يبدو أن الشخص الذي يكون في موقع السلطة يكون أقل ميلا إلى أن يضع في حسبانه الأشخاص الذين لديه أو لديها السلطة عليهم. في كتابه *مفارقة القوة* *The Power Paradox* (2017)، يرى عالم النفس الأمريكي داتشر كيلتنر

272- OHCHR and UNMISS, 'Violations and abuses of international human rights law and violations of international humanitarian rights law in the context of the fighting in Juba, South Sudan, in July 2016 (January 2017); https://www.theguardian.com/global- development/2016/jul/29/women- south- sudan- raped- un- compoundjuba- kill- me- instead; http://www.independent.co.uk/topic/south- sudan.

Dacher Keltner أن السلطة تجعل الناس أقل تعاطفا. في مقابلة مع جريدة في هولندا، أخذ سلوك دونالد ترامب كمثال: «تركيزه في الأساس على الاحتفاظ بالسلطة. وهو يتخذ قرارات متهورة ويقوم بتعليقات غير محترمة ويحكي قصصا تمجد الذات – وكلها علامات على إساءة استخدام السلطة، الأمر الذي يثير التوتر والقلق لدى الآخرين. والتوتر هو سمة بارزة للعجز.»[273]

في مسار التاريخ، يحتل الرجال عادةً المناصب المسيطرة. إذا كان لدى النساء بشكل طبيعي تعاطف أكبر مما لدى الرجال، هل تراهم طوروا بشكل أساسي هذه الموهبة لأنه كانت لديهن القليل من السلطة أو لم تكن لديهن على الإطلاق؟ سيكون لطيفا بالنسبة للنساء في القمة أن يستمرين في تغذية وإشاعة التعاطف في مواقع السلطة وألا يتركن هذه الموهبة تتقوض مع تزايد سلطتهن – لكن لا يوجد ميل بشري غريب على النساء. هن أيضا يسئن استخدام مواقع السلطة، كما أثبتت المجندات الأمريكيات، مثلا، في سلوكهن إزاء السجناء الذكور في العراق وفي خليج جوانتانامو. في الجيش، تستمر النساء في التدرب بشكل على خاص على تقنيات الاستجواب التي تُعتبر مذلة بالنسبة للرجال أصحاب التقاليد الإسلامية.[274] لا، السلطة ليست مشروطة بالأعضاء التناسلية الذكورية و، نعم، كل شخص يسير في الحياة بجرعة لا بأس بها من العدوانية. وهذا لا يغير حقيقة أنه حتى الآن قام الرجال باغتصاب نساء أكثر مما حدث بالعكس.

إن ثقافة الاغتصاب نبتٌ لتقاليد عتيقة من عدم المساواة، لكن الثقافة الشائعة ووسائل الإعلام والألعاب والبورنو والصور الإعلانية كثيرا ما تستمر في الاستجابة للجنس والعنف الجنسي بتخيل النساء كسلع مادية متاحة للاستخدام.

يمكن أن يتحول الخوف والعجز الجنسي الذكوري إلى احتقار وعنف، لأن الإحباط يوجَّه بشكل تفضيلي إلى الشخص الذي تمتلك السلطة عليه. في حالات كثيرة، يبدو أن أعضاء الأسرة والأجداد والأمهات يتعاونون على زواج الأطفال وختان البنات وغيرها من أشكال العنف بسبب التقاليد التي لا تتزعزع وشرف العائلة. أو يشجعون أو حتى

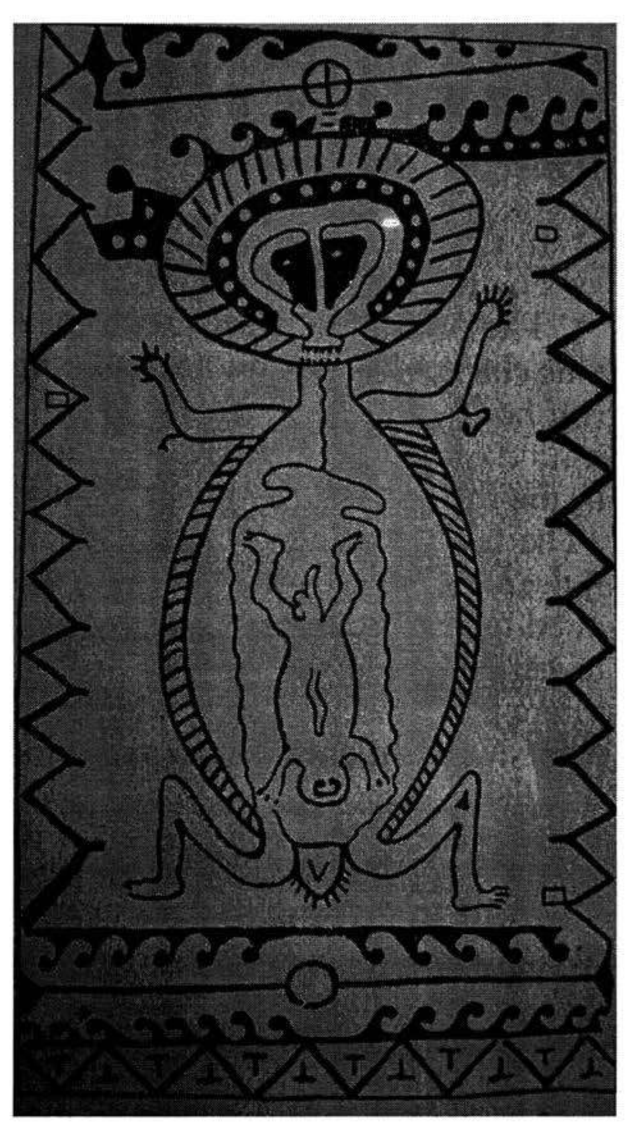
273- Interview NRC- Handelsblad 9- 10 december 2017.

274- Coco Fusco, *A Field Guide for Female Interrogators*, 2008.

يجبرون الفتيات على الدعارة لأن بقية العائلة معرضة لخطر الموت جوعا.

بالنظر إلى الوراء، يوجد اختلاف واحد ملحوظ مع الماضي: مزيد من ضحايا العنف يتكلمون دون خوف، وأصواتهم – المخنوقة سابقا تحت غطاء التاريخ – تغدو أقل عرضة للتجاهل أو السخرية أو لهز الأكتاف أو النظر إليها بلامبالاة أو عدم تصديق. علامة أمل.





أمنية بجنين ذكر معلق بحبل سريٍ داخل جسد أنثوي.
باب مرسوم ومنحوت، غينيا الجديدة، القرن التاسع عشر.

10

أسبقية مبكرة معرضة للخطر

ليلة كاملة من المخاض وبعدها ابنة فقط. (إسباني)

قالت الأخت الكبرى: «نحن لم نفقد شيئا بالفعل، لأننا نتذكر الأمر كله. دعيهم يحصلون على هذا الجزء. ألم نزل مقدستين [...]؟ مازلنا نملك رحميّنا، أليس كذلك؟ واتفقت معها الأخت الصغرى.»

(أسطورة بدايات من والومبا)

تتضمن فوضى الحياة علاقات متناقضة بين نحن/هم، يجري فيها التأكيد على الاختلافات أكثر من التشابهات - الاختلافات في الجندر، واللغة، والثقافة، واللون، والطبقة، والدين، إلخ. لنحصر أنفسنا في اختلافات الجندر: تقارن البنات والأولاد الصغار بالفعل وبطريقة متبادلة بين اختلافاتهم وأحيانا يحسدون بعضهم البعض. أو يتعجبون لماذا لا يملكون كلا من القضيب والرحم. بفضل فرويد أصبح حسد القضيب مفهوما شائعا، لكن خبرة حسد الرحم جرى إثباتها مرارا وتكرارا.[275]

آه لا... إنها بنت!

الصورة من غينيا الجديدة، صريحة في أمنيتها بنسل ذكر، وتعكس الرؤية التقليدية واسعة الانتشار بأن الطفل الذكر مرحب به أكثر من الطفلة الأنثى، وهي رؤية قديمة

275- كما أشار الأنثروبولوجيون (مثل مارجريت ميد) وعلماء النفس (مثل بتلهايم). انظر أيضا:
Sierksma 1979, chapter 1. About androgyny, Hermann Baumann o.c.

قدم المجتمع الأبوي.[276] منذ حوالي أربعة آلاف عام، كانت هذه الرؤية شائعة بالفعل، كما هو مثبت في البشارات الميمونة والمشؤومة المحفوظة بالخط المسماري على ألواح الطين في بلاد الرافدين:

إذا كان قضيب الرجل طويلا وسميكا، سينجب أبناء ذكورا.

إذا كانت أنف المرأة متناسقة، [ستلد] أبناء ذكورا.

إذا مارس الرجل الجنس مع امرأة على أرض محروثة بلا بذار، ستلد بنتا؛ وإذا نام معها في حقل أو حديقة [على أرض مزروعة]، ستلد ابنا.[277]

لأسباب متعددة، جرى استقبال ولادة الابن بحماس أكبر بكثير من استقبال الابنة. ولا يتعلق تفضيل الأطفال من نوع معين فقط ببنية المجتمع والقدرة التقليدية على الوصول إلى مصادر الدخل، بل أيضا بالأفكار المتصلبة (سواء بوحي من الدين أم لا) التي تضع الرجال «بشكل طبيعي» في مستوى أعلى من النساء. في ثقافات كثيرة، جرى توريث هذا الحب المعبَّر عنه حرفيا للأبناء عبر أجيال وأجيال وطوال قرون وقرون، لدرجة أن أمهات كثيرات حول العالم مازلن يستقين مكانتهن الاجتماعية ذات الإنجاز الأعلى من إنجابهن للأولاد. لا عجب أن النساء أنفسهن تواطأن مع ذلك التفضيل، وقد غُسلت عقولهن بالتأكيد بواسطة تلك العقلية القائمة على تمنّي الولد، كما جرى التعبير عنها وتأكيدها صراحةً وبصوت عال في الأمثال الشعبية، مثلا في أوروبا:

ذلك الذي يترك ولدا خلفه ليس ميتا بالفعل. (دانمركي)
أبناء كثيرون، بركات كثيرة من الله؛ بنات كثيرات، مصائب كثيرة. (ألماني)
عندما تولد بنت، حتى الأسقُف تبكي. (بلغاري)
عندما تلد زوجة ابنا، حتى جدران البيت تبتهج. (أرمني)

في أجزاء أخرى من العالم يقال للناس أيضا أن يبكوا عند مهد الابنة ويبتهجوا عند

276- Plate XXXIX in F.S.A. de Clercq and J.D.E. Schmelz, 1893.

277- مع الشكر على المعلومات الشخصية لعالم الأشوريات مارتين ستول Marten Stol.

ميلاد الابن. وعيوب الابنة واسعة النطاق: فهي «طفل ضائع» (بنغالي) و«مصيبة» (صيني) و«قريبة لا أحد» (مونجو) و«رماد سجائر» (عربي) وما إلى ذلك.[278] ومازالت العبارات التالية شائعة في العالم العربي:

عندما تولد بنت، تبكي عتبة الدار أربعين يوما.

كل ابنة حفنة من المشاكل.

صلوا على النبي لحد ما ييجي الصبي.

ورغم أنه وفقا للقرآن يسهم الرجال والنساء كلاهما في ظهور الحياة، والله فقط هو من ينفخ سر الحياة، إلا أن الفقهاء والأطباء المسلمين في القرون الوسطى مالوا إلى تقديم الأم باعتبارها الشريك السلبي الذي تُزرع فيه بذرة الذكر المميز، كما رأينا. يقارن العالم المسلم الفارسي الأصل ابن سينا (980-1037) بين الأعضاء التناسلية الذكرية والأنثوية ويخلص إلى أن مجموعة منها «كاملة وتمتد إلى الخارج، بينما الأخرى ناقصة وتنسحب إلى الداخل، كما لو أنها عضو ذكري مقلوب»[279] في تقاليد عديدة، مازال الآباء يرون ميلاد البنات كإراقة مخزية لماء الوجه أمام الرجال الآخرين في محيطهم.

في آسيا، يجري التعليق على المولودات الفتيات غالبا بطرق شديدة السلبية، مثلا في الصين:

ابن واحد أحدب أفضل من ثماني عشرة ابنة من الذهب.

ابن غبي أفضل من ابنة ماكرة.

حمل الولد نعمة، وحمل البنت مصيبة.

أو في الهند:

الفتاة الفاضلة هي من تعاني وتموت دون صوت. (بنغالي)

الكاذبون والكاذبات يلدون البنات. (تيلوجو)

278- لمزيد من التفاصيل انظر كتابي (إياك والزواج من كبيرة القدمين) الفصل الثاني.

279- Quoted in Kueny 51; see Laqueur 1990 for similar ideas among western scholars.

عندما تولد ابنة، لا تهتم بها؛ ستنمو كالصبار؛ وعندما يولد ابن، اهتم به جيدا، كما تفعل بشجرة ورد. (راجستاني)

المثل الأخير يعكس عقلية شائعة ليس فقط في راجستان بل أيضا في مقاطعات هندية أخرى، خاصة في الشمال المحافظ حيث يتلقى الناس القليل من التعليم المدرسي أو لا يذهبون إلى المدارس إطلاقا وتسود الثقافة الأبوية.

وتعكس إحصائيات المواليد المعاصرة العواقب الكارثية لتلك الرسائل السلبية الثابتة حول البنات. فالتفضيل الهندي عميق الجذور للابن على الابنة لم يؤد فقط إلى حالات إجهاض انتقائية، بل أيضا إلى معدل وفيات أعلى بين الفتيات الصغيرات. في الفترة من عام 2000 إلى 2005، كان عدد يتراوح ما بين 169.002 و193.000 فتاة يمتن في الهند كل عام قبل أن يبلغن الخامسة من العمر. نتيجة الإهمال، يمكن لحوالي 22 % من حالات الوفاة بين الفتيات تحت سن الخامسة في الهند أن تُعزى إلى التمييز الجنسي، وفقا للباحثين. تموت الفتيات أكثر من الأولاد قبل سن الخامسة بنسبة أربعين في المائة؛ لأنهن لا يتلقين الرعاية الطبية أو الغذاء. وفي بعض الحالات، يرتفع معدل وفيات مفرط إلى حوالي ثلاثين حالة وفاة لكل ألف فتاة، كما أظهرت دراسة عام 2018 في مجلة ذي *لانسيت جلوبال هيلث*:

"إن التأثير الهائل للتحيز الجندري على الوفيات في الهند يسلط الضوء على الحاجة إلى المشاركة الأكثر استباقية في قضية التمييز الجنسي بعد الولادة والتركيز على المقاطعات الشمالية. والجدير بالذكر أن هذه المناطق ليست هي نفسها الأكثر تأثرا بمعدل الانحراف الجنسي عند الميلاد.»[280]

في البلدان الآسيوية الكبيرة ثمة خلل خطير في نسبة الذكور إلى الإناث: في مقابل كل ألف ولد في الهند ستجد حوالي 930 فتاة وفي بعض المناطق أقل بمائة. يبلغ المدى بتقدير الأبناء على البنات حدٌ أن الفتاة لا تحصل حتى على فرصة أن تبدأ

280- Christophe Z Guilmoto, Nandita Saikia, Vandana Tamrakar, Jayanta Kumar Bora, Excess under- 5 female
mortality across India: a spatial analysis using 2011 census data. In: *The Lancet Global Heal your a village in
the north* June 2018:e650. [Volume 6, ISSUE 6, Pe650- e658, June 01, 2018].

حياتها.

منذ اختراع الكشف على الحمل بالموجات فوق الصوتية، يتزايد عدد حالات الإجهاض. في المناطق الريفية ولحسن الحظ صارت الآن عملية خنق المولودة الفتاة مباشرة بعد أول أنفاسها أقل شيوعا بكثير – وهي عملية تُسمى «المنشفة المبتلة» ويُسمح من أجلها للقابلة بطلب أجرة زائدة بسيطة. لكن هناك وسائل أخرى: تحطيم عنق الطفلة، أو إغراقها، أو تسميمها. (أما المساعدة في ولادة الولد فتكافأ بضعف الأجر). في الفيلم الوثائقي الحديث الغني بالمعلومات «It"s a girl/إنها فتاة" تعترف القابلات في بعض ولايات الهند بصراحة أنهن كن يتقاضين أجرا لقاء قتل حوالي نصف المولودات الفتيات اللاتي ساعدن في قدومهن إلى العالم.[281]

في الهند، تُجرى أكثر من مليون عملية إجهاض انتقائي بسبب الجنس سنويا. هذا التفضيل التقليدي للأبناء بالاشتراك مع الاستخدام الهائل على نحو متزايد للموجات فوق الصوتية في الكشف عن الحمل – للاكتشاف المبكر إن كان الجنين ولدا أم بنتا – قد أديا إلى «نقص دراماتيكي في عدد النساء» في كل أنحاء آسيا، وهو التطور المرعب الذي أثير لأول مرة عام 1990 على يد الاقتصادي الهندي والفائز بجائزة نوبل أمارتيا سين Amartya Sen في مقال في نيويورك ريفيو أوف بوكس (1990) بعنوان «اختفاء أكثر من مائة مليون امرأة». ويقدر باحثو الأمم المتحدة أن أكثر من مائتي مليون امرأة قد «اختفين» في هذه الأثناء – قضى عليهن الإجهاض الانتقائي بسبب الجنس، ووأد البنات، والتغذية الأقل، والإهمال في الطفولة.

في الهند، جرى تمرير قوانين تمنع قتل الأجنة الانتقائي بسبب الجنس ووأد البنات. ويعود تاريخ (قانون حظر المهور) إلى عام 1961 – وكان المقصود منه تقليل نسبة قتل البنات بسبب العادة القديمة الخاصة بتقديم مهر إلى زوج المستقبل. ومع ذلك، فإن الإرادة السياسية لتطبيق هذه القوانين بالفعل ناقصة في الغالب. مازال الأطباء يقومون بإجراء الأشعة فوق الصوتية، وتجري رشوة الشرطة والمحاكم. أحد الأسباب الأساسية لتفضيل الأبناء الذكور له طبيعة دينية: في الهندوسية لا يمكن إلا لنجل ذكر أن يشعل الوتد عند حرق الجثة وبالتالي يضمن أن ينتهي الأمر على نحو جيد للروح المفارقة.

281- Https://www.youtube.com/watch?v=azdUcyCkpYI.

بالرغم من المعرفة الطبية الفعلية المتزايدة، مازال «اللوم» على إنجاب طفلة أنثى يُلقى غالبا على عاتق المرأة. ونتيجة لهذا، تحت ضغط من العائلة والمجتمع المحيط، يهجر الرجال في جنوب آسيا أحيانا زوجاتهم وينشئون أسرة جديدة آملين في الحصول على ابن ذكر. ومازال هنود كثيرون في البلدان الغربية، على درجة عالية من التعليم والثراء، يفضلون الأبناء على البنات. عمليا، نتج عن هذا التفضيل غير العقلاني عدم توازن خطير في نسبة الذكور إلى الإناث: ويؤدي فائض العُزاب إلى سلوك عنيف، وفي المناطق التي تصل فيها النسبة إلى الدرجة الأكثر إزعاجا، تزداد معدلات الجريمة.

توجد هذه المشكلة أيضا في الصين: في المتوسط لكل ألف ومائتي ولد تولد ألف بنت، وفي بعض المناطق تصل النسبة حتى إلى ألف وثلاثمائة مقابل ألف. في مقاطعة تشينغهاي بالصين الغربية منذ بضعة أعوام، أخبرني الطلاب أنه وفقا لحسابات حديثة، بحلول عام 2020 سيكون عدد الرجال أكبر من النساء بـ 40 مليون رجل. كان هؤلاء الشباب قلقين جدا: هل سيتمكنون أبدا من العثور على زوجة؟ يغدو هذا الأمر بالفعل صعبا على نحو متزايد بالنسبة للرجال عديمي الخبرة الذين يشار إليهم في الصين بتعبير يعني «الأغصان العارية»: فمتوسط أعمارهم المتوقع أقصر، وكثيرون منهم يصبحون مكتئبين وأحيانا عدوانيين.

في الوقت نفسه، يتنامى الإتجار في النساء وتجارة الرقيق الجنسي في كل مكان في العالم، حيث يجري خطف البنات أو إغواؤهن أو بيعهن كعاهرات. في بعض الحالات، تشتري العائلات الفقيرة بنتا واحدة لتخدم كعروس لكل الرجال في بيت معين. وكلما زاد الخلل في نسبة الذكور إلى الإناث، كلما بدأ مزيد من الرجال البحث عن عرائس أصغر وأصغر. ويعني هذا أن الفتيات يذهبن إلى المدارس فترة أقصر، ولا يحصلن على أي وظائف، ويكون عليهن أن يلدن قبل أن تستعد أجسادهن. وبين الشابات ينتج عن هذا المسار من الأحداث نسبة عالية من الانتحار.[282]

ما الحل؟ يمكن أن تتغير الآراء السلبية عن الفتيات والبنات. في كوريا الجنوبية

282- Lakshmi Vijayakumar, Suicide in Women, Indian Journal of Psychiatry, pp.233-238; https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC4539867/.

حيث اختل التوازن بين أعداد الأولاد والبنات، بذلت الحكومة جهدا كبيرا لضبط نماذج التفكير الاجتماعية والتقاليد الثقافية. وقد تحسن الموقف هناك بدرجة كبيرة. بمساءلة تفضيل الأبناء، وبتوجيه الاهتمام دائما نحو المشكلة في وسائل الإعلام وفي التعليم، يبدو أن الجيل الجديد يشب بعقلية مختلفة. يُظهر هذا الإجراء الحكومي أن المناقشة الصبورة حول أصول وعواقب التقاليد تساهم بنجاح في ضبط نماذج العقلية التي بلغت من العمر قرونا.[283]

النقص

لا بد أن الكمال في قالب الخنوثة أمنية بشرية أزلية، وإلا لم تكن لتوجد كل هذه القصص التي كان فيها الأسلاف الأوائل متنعمين بالجنسين معا. إن الأساطير التي تدور حول آباء العالم، بأشكالها المتعددة من الوحدة ثنائية الجنس، تمثل الكون ككائن له مكون ذكوري وأنثوي، ككائن إلهي له سمات الجنسين البشريين معا، كما هو الحال مع الإله الهندوسي براهما:

"في البدء، لم يكن هناك شيء غير النفس الكبيرة: براهمان. أي أنه لم يكن هناك أي شيء موجود غير براهمان. [...] وعندئذ نظر براهمان حوله ولم ير شيئا. فشعر بالخوف. [...] كان براهمان وحيدا [و] اتخذ شكل براهما، الخالق. لم يشعر براهما بأي بهجة، فالأشخاص الوحيدون لا يشعرون بالبهجة قط. اشتاق إلى أحد يحفظ صحبته وشقت أفكاره الجسد المؤقت الذي كان يستخدمه إلى نصفين، مثل نصفيّ العلبة الصدفية عندما ينفتحان. أحد النصفين كان ذكرا والآخر أنثى. إلى يومنا هذا، يكون الزوجان السعيدان أشبه بنصفيّ كائن واحد مع وجود براهما فيهما معا."[284]

جارتي في مدينة لومومباشي، الكاتبة والباحثة الكونغولية كليمنتين فيك نزوجي Clémentine Faïk Nzuji حكت لي قصة أخرى عن الفقد البشري للكمال ثنائي

283- Son Preference and Sex ratios: http://www.womanstats.org/maps.html.

284- أصل هذه الأسطورة القديمة من بريهادارانياكا أوبانيشاد، ربما يعود تاريخها إلى حوالي 1500 ق. م. والفقرة المقتبسة من: Parallel Myths, 1994:39- 40.

الجنس. في ثقافة شعبها (شعب لوبا)، كان الجد الأول، مفيدي موكولو «كائنا خنثى عظيما» وفي أسطورة لوبا عاش الجد الأول في سعادة تامة في حديقة جميلة حيث كانت توجد نخلة رائعة في مكان خلاء مُضاء. شيء واحد فقط لم يكن مسموحا به في هذه الحديقة: المشي في دائرة كاملة حول النخلة الظليلة في منتصف الحديقة كان سيقلقل هذا الانسجام التام. وحتما أدى هذا التحريم إلى وسوسة:

"أراد جدنا الأول السعيد تماما شيئا واحدا فقط: أن يدور دورة كاملة سيرا حول النخلة، وذات يوم بدأ هذا الكائن البشري الأول السير حول النخلة الساكنة. وعنددما وصل إلى نقطة البدء مرة أخرى، انشق جدنا نصفين. أصبح أحد النصفين رجلا، والنصف الآخر امرأة. ومنذ هذا الوقت، يشعر الرجال والنساء بالحنين لهذه الوحدة المفقودة، وهو الفردوس الذي يستعيدونه أحيانا لفترة قصيرة في أحدهما الآخر. (لوبا، جمهورية الكونغو الديمقراطية)

بفضل خبرة الاكتمال الأولى تلك يستمر الرجال والنساء في الشعور بالانجذاب إلى بعضهم البعض.

في كتاب أفلاطون *الندوة* *Symposium* المكتوب حوالي 385 ق.م، يُكرِّس الحوار على العشاء لموضوع ثنائية الجنس والحب والجاذبية الجنسية في قصة تفسر لماذا يظل الرجال وكذلك النساء يبحثون عن اكتمالهم المفقود. وهنا، يقوم الحب المثالي بتجسير الفجوة بين رجل وامرأة أو بين شخصين من نفس الجنس.

في أوقات الأزمات، غالبا ما تلجأ الثقافات إلى طقوس يرتدي فيها الرجال ملابس النساء أو يتصرفون مثلهن، اعتقادا بأن إمكانيات الذكر والأنثى مجموعة في شخص واحد ستزيد من قوة حياة المجتمع، جدلاً بأن واحد زائد واحد يساوي ما هو أكثر بكثير من اثنين. إن دمج قوة الحياة الجنسية يفتح أبوابا تظل مغلقة أمام الأشخاص العاديين. من أجل الوصول إلى هذه القوة، تُجمع عناصر كلا الجنسين طقسيا في شخص واحد – مثل وضع بذرة ذكرية على ثدييّ أنثى أو دعك دم الحيض على أجساد الأولاد الصغار، أو يقوم شخص من الجنس الآخر بأكل بظر مقطوع؛ معتقدين أن

القوى الخنثوية تولّد حيوية إضافية.[285]

تميل كل المجتمعات تقريبا إلى دفع العمليات الهرمونية للأطفال في اتجاه جنس ما أو الآخر. وغالبا ما تكون طقوس بلوغ الأولاد أكثر شمولا من طقوس بلوغ البنات التي تشير فترات حيضهن بوضوح إلى بداية المراهقة.

ويمكن رؤية نقص سمات الجنس الآخر كمصدر إزعاج إضافي في المجتمعات التي يكون فيها جنس ما أكثر قيمة أو يتمتع بمزايا أكبر من الجنس الآخر. لذلك تبدو الغيرة من الجنس المهيمن أكثر وضوحا من الغيرة من الجنس الأقل قيمة. لا شك أن الفتيات يشعرن (أو ظللن يشعرن) بالحسد تجاه الامتيازات البديهية للأولاد الذين سُمح لهم بحرية أكبر وفرص أكثر، لسبب بسيط هو أن الأولاد تلقوا تعليما أكثر، واستطاعوا السفر وحدهم دون وصمهم أو فقدهم شرفهم، وكانت لديهم القدرة على الوصول إلى عدد من المجالات الذكورية التي أعلن عدم قدرة الفتيات على الوصول إليها. إن الخرائط العالمية لمشروع (إحصاءات النساء WomanStats) هي براهين ساطعة الوضوح للعواقب العالمية لذلك التأكيد الأزلي على الاختلافات بين الجنسين.

في صلاة الصباح يعبر الرجال اليهود المتشددون عن امتنانهم: «مبارك أنت يا سيدنا وإلهنا، يا حاكم الكون، أنت يا من لم تجعلني امرأة.» وتلاحظ مقولة كردية شائعة أنه «من الأفضل أن تكون رجلا ليوم واحد عن أن تكون امرأة لعشرة أيام.» وتوافق امرأة من مملكة بوتان جرت معها مقابلة شخصية على: «أن تولدي كامرأة معناه حياة مهدرة» وثمة مقولة قديمة من منطقة آشانتي في غانا: «لن أعود كأنثى» تعكس تفضيل النساء لوضع أفضل في الحياة القادمة. وتعكس أغلب التقاليد الشفهية هيراركية جندرية فيما يتعلق بديهيا بمن يكون المتحدثون ومن يكون الصامتون، حافظو المعرفة والجهلة، المسافرون وهؤلاء الذين يبقون في البيت – كما لو كان هذا هو النظام الطبيعي للأشياء الذي لا يمكن الرجوع عنه.

من المفهوم إلى حد كبير أن الباحثين قد أولوا اهتماما أقل للحسد الذكوري تجاه النساء والوظائف الجسدية الأنثوية عن العكس. حتى وقت متأخر من القرن الماضي،

285- دراسة تفصيلية عن الخنوثة: Baumann o.c.

كان أغلب الأنثروبولوجيين من الرجال ومن المحتمل أنهم تعاموا عن الحسد الذكوري تجاه النساء.[286] لكن هذا النوع من الحسد موجود، وإلا فلماذا بدأت ثقافات عديدة منذ زمن بعيد البحث عن حلول للقلق والغيرة الذكوريين نتيجة للاختلافات الجندرية؟

أحد الابتكارات الأكثر شيوعا لتزويد اليافعين بطريقة للتعامل مع غيرة الجنس الآخر ولتأسيس الدور المطلوب في المجتمع كانت هي تقديم طقوس البلوغ.

ختان الصبيان موجود في ثقافات كثيرة جدا حول العالم، وعادة قرب فترة البلوغ، لدرجة أن هذه العادة يبدو وكأنها تلبي حاجة عميقة. وتعمل طقوس البلوغ أحيانا «كدليل» على أن الرجال أنفسهم يلدون الأبناء دون أي تدخل أنثوي: فالطفل الذي يجري إدخاله «يموت عن طفولته» (mourir à l"enfance) ويولد الآن فقط بالفعل لأول مرة، بفضل والده. إنه مدين بحياته لوالده.[287]

هذا الشكل من التفكير التواق يضع عبارة باولو تشيرتالدو في القرون الوسطى الغربية والتي سبق اقتباسها – عن الابن الذي يجب أن يطيع والده الذي أنجبه «حتى لو أن والدته ساعدت في ذلك» – في سياق أوسع بكثير. ويظل من المدهش أن مثل هذه الأشكال من المنطق نادرا ما جرى تفسيرها كنوع من الحسد للرحم.

إن طقوس دخول الذكور عالم الرجال أكثر شمولا في كل مكان تقريبا من طقوس دخول الإناث عالم النساء، وعادة ما تحدث خلال فترة البلوغ، تلك الفترة التي تمر فيها الفتيات بأول نزيف شهري لهن. لا يخلو الأمر من مغزى كون القليل من الدم يسيل عندما يجري قطع القلفة. في هذه العملية تجري أحيانا محاكاة حرفية «لسلوك الولادة» الأنثوي؛ بين قبائل الياتمول في بابوا غينيا الجديدة، يتم حتى إلقاء فرج كبير على رؤوس الأولاد خلال طقس دخولهم عالم الرجال. هذا التأكيد على الذكورة و(إعادة) الولادة «كرجل حقيقي» أو الولادة الذكورية للأولاد في طقوس الختان

286- انظر مثلا: Perceiving Women, 1981.

287- Bettelheim, Symbolic Wounds, p.104ff.
بالطبع ليست الغيرة هي الدافع الوحيد لطقوس البلوغ بالنسبة للذكر، فهي تتصل أيضا بالخصوبة والاهتمام بكل الأحياء.

تتوافق كثيرا مع المشاعر السلبية الواضحة تجاه النساء.[288]

في العالم الغربي أيضا، كان هناك ميل للتفكير بأن ولادة البنات كانت بسبب نقص في الخصوبة، ويعود الفضل في ذلك جزئيا إلى تأثير أرسطو. في عمله الشهير عن الحيوانات، المكتوب ما بين 347 و322 ق.م، أمد هذا الفيلسوف العالم بعبارات قوية عن الاختلافات الهائلة بين الرجال والنساء:

"لأن الإناث أضعف وأبرد في الطبيعة [من الذكور]، ويجب علينا أن ننظر إلى الشخصية الأنثوية كنوع من النقص الطبيعي. وبالتالي فإنه بينما يكون الحيوان في داخل الأم يتطور ببطء بسبب برودته (لأن التطور طهو، والحرارة هي ما تطهو، وما يكون أكثر سخونة يُطهى بسهولة)؛ لكن بعد الولادة يصل الحيوان إلى النضج والشيخوخة بسبب ضعفه، لأن كل الأشياء الأدنى تصل سريعا إلى كمالها أو نهايتها، وهذا صحيح بالنسبة للأعمال الفنية كما هو صحيح لما تشكله الطبيعة."[289]

سواء بوحي من هذا الفيلسوف أو من فلاسفة يونانيين آخرين، استمر الأطباء الغربيون والعلماء الآخرون في القيام بأبحاث إمبيريقية، من منطلق وجهات نظر كثيرا ما تشوشها بوضوح انحيازاتهم الخاصة. بفضل الأفكار الراسخة تقليديا، جرى تصوير الجسد الأنثوي كانحراف عن الجسد «الطبيعي» أو كتنويعة أقل اكتمالا أو حتى أدنى منزلة من الجسد الذكوري. ويبدو كما لو أن الحسد الذكوري، لا شعوريا، قد أدى إلى الإيمان الأقوى أبدا بالبذرة الذكورية باعتبارها الإسهام الأساسي في حياة الطفل. واعتُبر إسهام النساء في الحمل والولادة أقل أهمية أو حتى جديرا بالإهمال.

عند دراسة الأساطير والشروح الأخرى حول الجسد الأنثوي المتوارثة حول العالم، لا يمكن للمرء تجاهل الموروثات التي جلبها حسد الرحم. فهي تجعل من الممكن فهم لماذا اخترع الرجال وفرضوا قواعد تستبعد النساء من الممارسات الدينية وغيرها من الممارسات المهنية. كان السبب المعتاد (ومازال في بعض التقاليد) أن الرجال

288- Sierksma, *Religie, Sexualiteit en Agressie*, 1979:105 an.d 57; Bettelheim 111ff.

289- Aristotle, *On the Generation of Animals*, Book Four, 6. Translation from the Greek: Ebooks University of Adelaide, Australia.

فقط من يملكون العقول اللازمة لهذه المهن والممارسات، لنفس السبب الذي جعلهم رجالا. مؤلفون مثل فرانسواز إريتييه في عملها الهام المكون من جزئين (مذكر/ مؤنث) وروبرت ماك إلفين Robert McElvain في كتابه بذرة حواء *Eve"s Seed* يرون العكس تماما: هذه النماذج من التفكير تنشأ مما لم يكن الرجال قادرين على فعله بدنيا: ولادة ذرية المجتمع وإرضاع أطفاله.

لقد زُود كلا الجنسين بأدوات جنسية مختلفة؛ لكن لماذا لا يمكن للناس أن يكونوا مختلفين وفي نفس الوقت يعاملون بعضهم البعض كأنداد متساوين؟ استمر فرويد في التشديد على الاختلافات الجنسية وأكد مرة أخرى تلك القرون من المنطق السلطوي بأن النساء «أقل مرتبة» من الرجال. فتأكيده على الحسد الأنثوي للقضيب وزعمه أن البنات يلمن أمهاتهن على إرسالهن «ناقصات على هذا النحو المثير للشفقة» إلى العالم – قد يكون نابعا كذلك من حسده اللا شعوري هو نفسه للرحم.[290]

في أثناء ممارستهم لعملهم، يصادف الأطباء والمعالجون النفسيون رجالا يشعرون بالغيرة من النساء. في حفلات الأطفال التنكرية، يضع الأولاد أحيانا مخدات أسفل كنزاتهم ليبينوا أن لديهم أثداء أو بطونا حبلى. وهناك هؤلاء الذين يعترفون بصراحة أنهم يحسدون الفتيات ذوات الأثداء اللاتي سيلدن أطفالا لاحقا: «يكرهونهن من أجل هذا، ويحلمون بالعنف؛ بقطع الأثداء أو انتزاع المهابل.» ويشعرن بالإحباط من النساء اللاتي لا يقدرن عروضهم أو لمجرد أنه غير مسموح لهم بلمس هذه الأثداء.[291]

لا شك أنه كانت هناك حاجة لا تقاوم للرسالة القائلة بأن الرجال أعلى شأنا من النساء وأنه من المنطقي بالنسبة للرجال أن يكونوا في السلطة.

سرقة سر النساء

في مجتمعات كثيرة، تستند الهيمنة على معرفة خاصة أو جماعة سرية يتشارك أعضاؤها رابطة معينة. خلال طقوس فترة البلوغ، يصبح الصغار شركاء في هذه

290- McElvaine Chapter 12.

291- Oral information and literature, e.g. in ; Lederer a.w. 55- 56, 153; Bettelheim 39ev.

المعرفة السرية: ولكي ينتموا إلى الجماعة السرية، لا بد على أعضاء المستقبل أولا أن يمروا بطقس القبول.

يظل السر مؤثرا طالما ظل مخفيا عن الغرباء. والقصص التي تدور حول موضوع سر النساء المسروق تحكي أنه «ذات مرة منذ زمن بعيد» كانت النساء هن المسيطرات؛ لأنهن كن يمتلكن سرا خاصا، حتى تمكن الرجال من سرقته منهن. ومنذ ذلك الوقت، صار الرجال في موقع السلطة، وسيظلون هكذا طالما نجحوا في حراسة السر بينهم بحرص وضمنوا ألا يقع أبدا في أيدي النساء من جديد مرة أخرى.

بالطبع ليست هذه بالمهمة السهلة. لذا تتلقى النساء التهديدات: فمجرد الرؤية أو اللمس بالصدفة لشي/أشياء سرية سيجعلهن يسقطن ميتات على الفور، ومعرفة السر أو حتى التخمين المبهم بما يتعلق به الأمر كله سيكون سببا كافيا لقتلهن. وعادة ما تتخذ الأسرار الشكل الملموس لأشياء مادية؛ مثل أقنعة الأسلاف والأبواق والنايات والتنانير المجدولة من الليف، آلات النفير أو الرنين، كوخ طقسي أو قِرَب مقدسة.[292] وفقا للقصص، كانت هذه الأشياء السرية أو رموز السلطة في الأصل ملكا للنساء، قامت النساء بتصورها واختراعها وصنعها. وأحيانا لا يكون السر حتى شيئا ملموسا، بل يتكون من أغان طقسية أو مقدسة تغنيها النساء حصريا في احتفال خاص بهن. وفي بعض الحالات، يقدم السر إشارة مباشرة إلى السلطة الاستبدادية للنساء، والتي يستولي عليها بمهارة رجال شجعان بعد الكثير من المعاناة الذكورية. مثلا بجعل كل النساء حوامل في نفس الوقت – كما في قصة جيكويو من كينيا المذكورة من قبل.

تدور أسطورة البدايات لجماعة وولامبا من السكان الأصليين لأستراليا حول هذه السرقة في (زمن الحلم)؛ الزمن الذي كان فيه الديانجاوول – الأسلاف الأوائل – وهم أخ وأختان يسافرون معا عبر أستراليا غير المأهولة. في الطريق، تخرج باستمرار أعداد كبيرة من النسل من رحميّ الأختيت الخصبتين على نحو استثنائي، والأخ هو من يقوم بوضع هؤلاء الأطفال على العشب المحلي: والأطفال المولودون في ذلك المكان هم الأسلاف الأوائل للعشائر التي تعيش هناك منذ ذلك الوقت.

292- آلة نفخ موسيقية طقسية قديمة يعود تاريخها إلى العصر الحجري القديم. عُثر عليها في أوروبا وآسيا وشبه القارة الهندية وإفريقيا والأمريكتين وأستراليا: https://en.wikipedia.org/wiki/Bullroarer.

ولا مزيد من الأخبار عن السليلات من الإناث، حيث تركز القصة على مجموعة من الأبناء المولودين من رحميّ الأختين، ينضمون إلى جدهم الأول: الأخ الديانجاوول. كرجال مع بعضهم البعض، يشكون من أنهم لا يملكون «أي شيء»، ولا حتى رموزا خاصة بهم، بينما تملك النساء «كل شيء». ولهذا يقررون الاستيلاء على *نجينمارا* (حُصُر مطوية تمثل الرحم) وتضم *رانجا* (أوتاد مقدسة، رموز للقضيب). وذات يوم، بحثا عن الطعام، تترك الأختان رموزهما دون حراسة في المعسكر، ويستغل الأخ ورفاقه هذه الفرصة خير استغلال. وعندئذ تفقد الأختان الرموز الجبارة لخصوبتهما غير المحدودة وقدرتهما على الخلق.

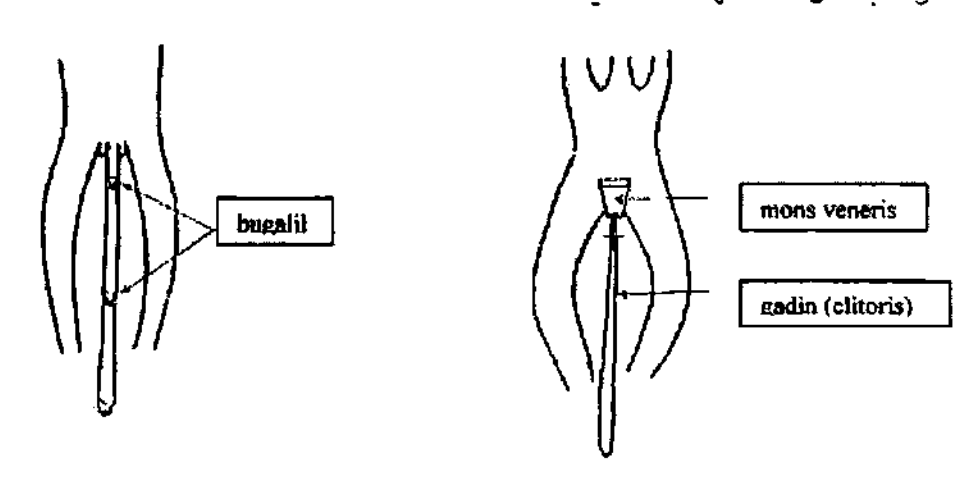
عندما تكتشف المرأتان السرقة، تجريان إلى المكان الذي يجلس فيه الأخ مع الرجال الآخرين. وبمجرد أن يروا المرأتين قادمتين، يبدأ الرجال في غناء الأغاني المقدسة. وبقيامهم بهذا، يثبتون أنه من الآن فصاعدا – بسرقتهم لرموز الخصوبة – قد انتزعوا أيضا من الأختين سلطة تنفيذ الطقس المقدس الذي كان أنثويا بشكل حصري من قبل. تتساءل الأخت الصغرى في قلق عما يفعلانه الآن بعد أن فقدتا رموزهما المقدسة وسلطتهما الطقسية، لكن وفقا للأخت الكبرى لم يكن هذا كارثيا على الإطلاق:

> "نحن نعرف كل شيء. نحن لم نفقد شيئا بالفعل، لأننا نتذكر الأمر كله. ويمكننا أن ندعهم يحصلون على هذا الجزء. ألم نزل مقدستين، حتى لو فقدنا قِرَبنا؟ مازلنا نملك رحميّنا، أليس كذلك؟ واتفقت معها الأخت الصغرى.»[293]

يكشف هذا التعليق كل ما يدور حوله الأمر؛ سلطة منح الحياة. هما بالتأكيد لم تفقداها، لكن في القصة تشير السرقة الرمزية إلى انقلاب جوهري في العلاقات الذكورية/الأنثوية وكذلك في تقسيم العمل. لقد قام الرجال دائما بجمع الطعام للنساء وطحن الجوز لعجن الخبز. وقد قاموا أيضا برعاية الأطفال، لكن من الآن فصاعدا أصبح كل هذا عمل النساء. الجدير بالاهتمام أن انقلاب الأدوار كان ممكنا فقط بفضل سرقة السلطة المقدسة التي من الآن فصاعدا صارت تنتمي إلى الرجال. وهناك المزيد.

293- هذا ملخص دقيق للقصة الطويلة والتفصيلية للسكان الأصليين والمدونة في:
Ronald M. Berndt, Djanggawul. *An Aboriginal Religious Cult of North- Eastern Arnhem Land*, 1952; the quote is on pp 40- 41; the image on p.25.

هناك تفصيلة هامة في القصة وهي أن الأخ «يستولي» على جسديّ الأختين عن طريق التقصير البالغ لبظريهما المذهلين. بشكل تقليدي، كان لدى الأخ قضيب طويل على نحو استثنائي، بينما كانت الأختان تمتلكان بظرين ممدودين على نحو لا يقل إدهاشا. ومثل أخيهما بفضل قضيبه، كانت الأختان أيضا تتركان آثارا في الرمل أينما سارتا، بفضل أعضائهما التناسلية الملفتة.



على اليمين: البظر المذهل للأخت الكبرى، على اليسار: القضيب المذهل للأخ الديانجوول
رسومات الرواة من السكان الأصليين، حوالي 1950.

لا تقول القصة إن كانت المرأتان ببظريهما المشذبين قد أُعجبتا أو استمتعتا بأداءات الأخ. ويرى الأخ أنه من الآن فصاعدا لم يعد هناك أي شيء تخفيه النساء وأن الرجل لديه حرية الوصول إلى الفرج. ومن المثير للاهتمام أن البظرين الطويلين اللذين قطعهما الأخ كانا المعادل للوتدين وكانا يشبهانهما بالضبط (الوتدان الرامزان للقضيب) في القِرَب أو الحُصُر المقدسة، وقد ضاعا الآن إلى الأبد بالنسبة للنساء. هذا يسلب النساء من «ذكورتهن» – وفقا للمنطق القائل بأن المرأة ذات البظر هي امرأة ذات قضيب. أما الأخ الديانجاوول فمازال لديه القضيب الطويل الخاص به: وفي الطريق يلقي به فوق كتفه ويلفه حول رقبته، بالضبط كما كان من قبل.

يبدو أن قصة وولامبا تؤكد وضعا راهنا جديدا، لكن المظاهر تخدع، لأنه لم يجرِ التغلب على الخوف:

294- Ibid.

«في الأسطورة تصطاد النساء السمك بالجلوس في الماء وأرجلهن منفرجة وصيد ضحاياهن في هذه المصيدة التي لا تخطئ [...]. في الحياة اليومية يشار إلى المرأة المضاجِعة بأنها المرأة التي تصيد سمكة. وثمة رمز مشابه هو الحوت، الذي قلّما تفلت من فمه سمكة صغيرة.»

تذكرنا هذه الإشارات بالأم الملتهمة المخيفة ذات «المهبل المسنن».[295]

خلال أعياد الخصوبة السنوية يرقص رجال السكان الأصليين في حلقة للاحتفال بذكرى الانقلاب الرمزي لعلاقات السلطة. ويهجمون على *النجينمارا* (القِرَب أو الحُصُر) *بالرانجا* الخاصة بهم (أوتادهم)، بينما تتلوى النساء والأطفال لفترة تحت الحُصُر الملفوفة ويقلدون الأطفال غير المولودين الذين، مثل كل الأسلاف، يظهرون من الأرحام الخصبة للأختين الديانجاوول. يبين الرجال شاهرو العصيّ أنهم المتحكمون في طقس الخصوبة، لكن الرواة من السكان الأصليين، وهم رجال أنفسهم، يعتقدون أن النساء ينبغي في الحقيقة أن يقدن الطقس: «مازلنا نعرف أنهن القادة الحقيقيون» لأن «الرجال سرقوا الأمر كله.»[296]

بالإضافة إلى الشعوب في أستراليا، مثل وولامبا وأراندا، يتكرر موضوع سرقة الأدوات في غرب إفريقيا وبابوا غينيا الجديدة وفي أمريكا الوسطى والجنوبية. تتقاسم الأساطير موضوعات مشتركة وفي النهاية تصل الرسالة أدناه، الملخصة من أساطير أمريكية جنوبية، إلى نفس النتيجة في كل مكان:

«أولا، الأشياء المقدسة التي تخص الرجال (الأقنعة والأبواق والأكواخ الطقسية والأغاني وما شابه) اختُرعت في الأصل على يد النساء وكانت ملكهن؛ أو إذا كانت في الأصل مصنوعة على يد الرجال، فإن من اكتشف أسرارها هن النساء اللاتي دنسن قدسيتها برؤيتها أو لمسها [...] كان التجسس على الأدوات المقدسة بمثابة أمر إعدام لكل منتهكي التحريم.

الموضوع الثاني المتخلل لهذه الأساطير هو أن موقع السلطة مرتبط بمالكي

295- Sierksma 1979:180

296- See Berndt 2- 3 en 40.

أسرار القبيلة، وأن هؤلاء الجالسين في مقعد السلطة، سواء إناث أم ذكور، قد يتمتعون أيضا بحياة من الراحة النسبية. والأبواق والأكواخ هما شارة هذه السلطة، التي تسمح لجنس بالهيمنة على الآخر. كيفما كانت بدايتها، تنتهي الأساطير على نحو ثابت بالرجال في موقع السلطة. إما يقوم الرجال بالاستيلاء على رموز السلطة من النساء ويقيمون أنفسهم مالكين أنفسهم للاحتفال وأدواته، أو يطبقون عقوبات عنيفة على النساء اللاتي تجرأن على تحدي السلطة الذكورية. ولا تفوز النساء بمعركة السلطة في أي نسخة. بدلا من ذلك، يبقين للأبد خاضعات للإرهاب الذكوري، مختبئات في أكواخهن، خائفات من النظر خارجا على الأرواح المقنعة والأسلاف النافخين في الأبواق.»[297]

في بعض الثقافات غُرس الخوف المرضي في الأطفال والنساء، معتقدين أن مرأى هذه الرموز للسلطة قاتل. فالرجال المرتدون لأقنعة الأسلاف يمثلون هم أنفسهم أرواح الأسلاف القوية. وفقط في حفل قبولهم يعرف الأولاد أن هذه الأرواح الراقصة ما هي إلا رجال عاديون.

في روايته (الأشياء تتداعى) يشير الكاتب النيجيري تشينوا أتشيبي إلى هذا الطقس التقليدي في مجتمعه الخاص مجتمع شعب إيجبو، حيث يُدعى الراقصون المقنّعون باسم *إجووجوو*:

«دقت الطبول من جديد وهبَّ صوت الناي. كان بيت *الإجووجوو* الآن يعج بأصوات مرتعشة [تملأ] الهواء بينما أرواح الأجداد، الخارجة للتو من الأرض، تحيي بعضها البعض بلغتها السرية. كان بيت الإجووإجوو الذي خرجوا إليه يواجه الغابة، بعيدا عن الحشد [...]

وعندئذ ظهر *الإجووإجوو*. أطلقت النساء والأطفال صيحة عظيمة وولوا أدبارهم. كان أمرا غريزيا. فرت امرأة بمجرد أن لاح في مجال البصر واحد من *الإجووإجوو*، وعندما، كما في ذلك اليوم، خرجت تسعة من أكبر الأرواح المقنّعة كما هو مخطط معا. كان مشهدا مرعبا.»[298]

297- Bamberger quoted in Weigle 281.

298- Achebe 62- 63.

أحيانا يتخذ دفاع الرجال عن معرفتهم السرية ضد الغريبات الإناث أشكالا مفرطة. في كتابه *النيء والمطبوخ* *Le cru et le cuit* يصف ليفي ستراوس قصة مرعبة من تشاماكوكو (باراجواي/البرازيل) يقع فيها على غير المتوقع سر الرجال مرتدي الأقنعة من جديد في أيدي النساء. والمرأة من تشاماكوكو التي تجد هذا السر الجبار هي أم جرى اغتصابها منذ وقت قصير على يد ابنها هي نفسها:

«كان شاب راقدا مريضا في أرجوحته عندما رأى للحظة قصيرة فرج أمه. كانت قد تسلقت سقف الكوخ لتضبط كسوته. اشتعلت فيه الرغبة، فانتظر حتى نزلت مرة أخرى واغتصبها.»[299]

بعد الاغتصاب مباشرة، يمر الابن بلحظة ضعف تستغلها الأم بمهارة وتسرق سر الأقنعة – المعرفة المحرمة على النساء، والمقصود منها أن تقال بين الرجال فقط: «وبما أن الأسطورة نفسها تضم سر الأقنعة، كانت مشاركتها مع الجنس الآخر ستعرض للخطر المجتمع الخاضع للهيمنة الذكورية والذي كان الرجال يشعرون بوضوح أنه دائما على شفا الانهيار.»[300]

بمجرد أن يدرك الرجال أن هذه الأم تعرف سرهم وأنها قد شاركته أيضا مع النساء الأخريات، يصابون بصدمة عميقة لدرجة أنه لا يبدو أمامهم أي حل آخر غير قتل كل النساء. تنجح امرأة واحدة في النجاة من المذبحة، لكن هذه بالطبع ليست نهاية القصة.

ذات يوم تجذب المرأة الوحيدة التي مازالت حية انتباه رجل سائر تحت الشجرة التي تختبئ فيها. يعتري الرجل انتصاب شديد لدرجة أنه يفشل في تسلق الشجرة إليها ويفشل بقية الرجال المندفعين كذلك. وأخيرا يمسكون بالمرأة، ويغتصبونها ويقطعونها قطعا ينتهي بها الأمر منقوعة في المنيّ تحت الشجرة. ويختار كل رجل قطعة من هذا اللحم المنقوع في البذار ويعود بها إلى القرية، ويضعها داخل بيته. بعد ذلك يكون عليهم مرة أخرى أن يذهبوا معا لصيد السمك. وعند عودتهم، يجدون نساء كاملات قد نبتن من كل جزء من جسد المرأة المقتولة والمقطوعة: الثديان

299- In Lévi- Strauss, *Le Cru et le Cuit*, 1964:120.

300- Bierhorst, 2002:137.

والبطن والفخذان تحولوا إلى نساء سمينات، بينما تذكرنا الرفيعات بأنهن كن ذات مرة أصابع يدين وقدمين.

هكذا نشأت حياة جديدة من آخر امرأة منتجة للحياة باقية حتى بعد قتلها، المرأة الوحيدة التي كانت مازالت تعرف سر الرجال وبالتالي تسببت في ذعر رهيب. القصة مستوحاة مباشرة ومتصلة بالزراعة الأقدم. حيث تُخلق وفرة من الحيوات الجديدة بتقطيع الجسد الميت إلى قطع؛ بنفس الطريقة بالضبط التي كانت النساء تقسم بها الدرنات وتدسها في الأرض لتنمو نباتات جديدة.

الساعون وراء لقمة العيش (الذكور والإناث)

الصيد أقدم من الزراعة وكان التقسيم المعتاد للعمل أن يذهب الرجال إلى الصيد وتجمع النساء الطعام. كانت الزراعة الأولى شيئا غير مسبوق. كان اكتشاف أنه عن طريق بذر البذور قرب البيت ودس نسائل الموز وقطع الدرنات في الأرض يمكنك أن تزرع أشجار موز جديدة وتحصد درنات جديدة نقطة تحول حقيقية في التاريخ الثقافي. ترى سيركزما Sierksma وآخرون أن الزراعة اختراع نسائي. أو بكلمات راوٍ هندي في منطقة أورينيكو: «النساء اللاتي يلدن الأطفال هن أيضا أفضل من يعرف كيف يمكن مضاعفة النباتات.»[301]

ولأن الرجال كانوا، غالبا، ما يعودون من الصيد بأياد خاوية، كانت النساء تعتني بالنصيب الأكبر من إمدادات الطعام بفضل المحاصيل التي كن يحصدنها من قطعة أرضهن، وتغيرت العلاقات بين الجنسين:

> «كان اختراع الزراعة يعني عتق النساء، ووجد الرجال في هذه الثقافات الاستوائية القديمة صعوبة في التأقلم مع الأمر مثلما وجدها زملاؤهم في الجنس في القرن العشرين. وبالتالي، في المناطق المحيطة بخط الاستواء، بدأت الزراعة تصبح أهم من الصيد، وحنق الرجال أحيانا على النساء اللاتي

301- Sierksma 1962:144.

جرحن إحساسهم ألا غنى عنهم.»[302]

إن الصيادين الذين كانوا يشعرون بالتفوق في كسب لقمة العيش، في أُسر كانت حتى ذلك الوقت تعتمد اقتصاديا عليهم وحدهم أو بشكل أساسي، لا بد أنهم شعروا بأن المساهمة الغذائية للنساء تمثل تهديدا. كان المجتمع السري الذكوري يعمل كشكل من الهجوم المضاد الذي لا يمكن الاستغناء عنه نفسيا للحفاظ على التفوق البديهي الذي لم يعد موجودا. إن القصص التي تدور حول السلطة السرية تشير إلى الخوف وتعكس غياب الأمان. وبفضل سر مهيب، جدد الرجال حقهم المزعوم في السلطة، مع كل الامتيازات المشتقة منها. وبفضل الخدعة الجديدة تمكن الرجال من جعل النساء والأطفال يقومون بعمل بغيض من أجلهم.

عاجلا أو آجلا في كل تنويعات القصة، ينجح الرجال في سرقة أسرار النساء. والمغزى هو أنه كانت هناك فوضى قبل أن يتولى الرجال الأمر، وبإعادة حكي الأسطورة، تتأكد علاقات السلطة الموجودة مرة بعد مرة. بفضل وظيفتها الملزمة، ضخمت أساطير كثيرة الاختلافات بين الجنسين وبالتالي اخترعت قواعد جرى بواسطتها تقسيم كل المهام بشكل هيراركي وفقا للنوع والسن والطبقة.

خلال طقوس دخولهم عالم الرجال، يتلقى الأولاد، الذين تأثروا بقوة في طفولتهم بأمهاتهم وبالنساء الأخريات في المجتمع المحيط، نبأ أنه لا بد ألا يلعب النفوذ والسلطة الأنثويان أي دور في حياتهم. بين أفراد شعب سالكنام في تييرا ديل فويجو، يقال للأولاد حتى خلال طقس دخولهم عالم الرجال أنهم لا ينبغي أبدا أن يتركوا زوجاتهم يشاركنهم في أفكارهم الخاصة، «لأنكم لو فعلتم هذا قد يستعيدون السلطة التي كانت لديهم في الماضي.»[303] لكي يتعلموا أن يكونوا رجالا، على الأولاد الذين تلقوا في حياتهم كأطفال الرعاية الأمومية بشكل أساسي أن يتعلموا ألا يكونوا نساء.

أحد الطرق للتعامل مع ذلك التغير المربك في فترة البلوغ كان هو تطوير الفظاظة والسلوك المزدري تجاه النساء. إن الحاجة «لتدمير» النساء لفظيا واضحة بشكل مذهل في الحكمة الشائعة وقد ألهمت حتى ذلك التحذير الإسباني الكاشف والذي

302- Ibid.145

303- Bierhorst 162.

يتخذ شكل المثل السائر أن الرجال الأقوياء لا ينبغي أن يتمادوا في توجيه كل هذه الإهانات إلى الجنس الآخر: «عندما تتكلم عن النساء، فكر في أمك.» تبين دراسات عديدة أن هذه المشكلة تقل بل وتختفي عندما يلعب الرجال دورا أكثر فعالية في المراحل المبكرة من حياة أبنائهم.[304]

يفسر باحثون عديدون العدوانية والهيمنة بين الرجال كرد فعل نفسي ديناميكي للوعي الذكوري بالسلطة الأنثوية. إن الترتيبات المؤسسية التي تجسد الهيمنة الذكورية والتبرير الثقافي للهيمنة الذكورية لا تتأكد فقط بواسطة أساطير الخلق والبدايات، بل أيضا بالثقافة الشائعة في العموم وبالأمثال الشعبية الكثيرة المزدرية حول السلطة الأنثوية المهددة على وجه الخصوص. لا بد أن تأثير الرسائل السلبية المستمرة حول النساء كان هائلا طوال قرون. ومازالت أصداؤها تتردد في كل أنحاء العالم ومازالت أغلبية النساء المعاصرات يعتقدن أن المرأة لا تستطيع تولي موقع قيادي.

ما السبب وراء الحاجة الذكورية لقصص تؤمِّن الأسرار والسلطة من النساء ولمَ هذا الميل طويل الأمد لاستبعاد النساء من المجال العام؟ كانت الحجة في أسطورة وولامبا أن النساء كن يملكن «كل شيء». وما كانوا يقصدونه هو أنه بالإضافة إلى «قضيبهن الصغير» كان لديهن أرحام تأتي بكل النسل البشري، الذكور والإناث على السواء. هذا الخلل، المنظور إليه كظلم عظيم، كان لا بد من تعديله باستبعاد الأداء الأنثوي في أي مجال آخر. وقد شجع «نقصهن» الرجال على كبح سلطة النساء بفضل الأساطير والقصص السلطوية، والنظريات العلمية، والتعليقات، والقواعد الدينية، والنكات والمحظورات الاجتماعية، والتخلص من الخصائص الأنثوية غير المرغوبة، وجعل الأداءات الذكورية تبدو أكثر تفوقا بكل الطرق.

من القيادة إلى التخلف في الوراء

توضح أسطورة لشعب تشوكتشي بوضوح القلق الذكوري حيال عدم التساوي في

304- J. and B. Whiting, *Children of Six Cultures: A Psycho- Cultural Analysis* (1979:193); Peggy Reeves Sanday, *Female Power and Male Dominance*; Jean Stockard and Miriam M. Johnson 1979:210.

القدرة على الخلق. يرى الخالق الذكر (راڤين) زوجته تنتفخ لأول مرة وبعد ذلك تلد طفلين تسميهما الناس، وتبدو راضية بشدة على نحو غريب.

يزعجه نشاطها في منح الحياة إلى درجة كبيرة حتى أنه يشعر بدافع شديد يثور داخله كي يخلق أيضا شيئا بنفسه، ويزداد الأمر إلحاحا عندما تطلب منه زوجته أن يصنع أرضا يمكن لأطفالهما العيش عليها. يتشكك راڤين بعمق إن كان باستطاعته أن يفعل هذا ويسخر الأطفال منه. في النهاية يحل مشكلته بالتبرز والتبول بكل قوته حتى يُنهَك جسده تماما. وبهذه الطريقة يصنع جبالا ووديانا وأنهارا ومحيطات وبحيرات – عالم يضع عليه بفخر أول الأطفال البشر الذين ولدتهم زوجته.[305]

تتطور أساطير البدايات عن مصالح سائدة. كانت الربة الأم الخالقة تُقدَّم ذات مرة باعتبارها جسدا مستقلا خالقا للحياة. في البدء زحفت كل الحياة الجديدة خارجة من قنوات ولادتها دون مساهمة من ذكر. وفي النهاية اختفت هذه الربة الأم من المشهد في كل مكان تقريبا وجرى استبدالها في الديانات التوحيدية كخالقة للحياة بإله مستقل مذكر غالبا.

ألم تكن الحياة لتغدو أكثر قابلية للتحكم بكثير لو، بكونك رجلا، تمكن المرء من السيطرة على عملية التكاثر بأكملها؟ تتساءل بهذا كل أنواع القصص، غالبا فيما بين السطور، لكن بعض الكُتَّاب يعترفون صراحةً بهذه الحاجة إلى التحكم. في الفلسفة اليونانية القديمة، كانت فكرة الدونية الفطرية للنساء شائعة للغاية حتى أن الكاتب والراوي المغني اليوناني هسيودوس (منتصف القرن الثامن ق.م) وصف «جنس النساء» بأنه وباء بالنسبة «للبشرية». ووجد أنه مما يؤسف له بشدة أن الرجل لا يستطيع أن ينجب نوعه دون تدخل المرأة.[306]

حقيقة أن النساء يلدن الأبناء والبنات تنويعة على المبدأ الذي وصفه المؤرخ يان

305- في مقاله 'Earth Diver: Creation of the Mythopoeic Male' يشير آلان دوندس Alan Dundes إلى أفكار إريك فروم ومحللين نفسيين آخرين، 1980:279.

306- Hesiod 7- 9 and Semonides in Lloyd/Jones, Hugh. Females of the Species, 1975:18ev.

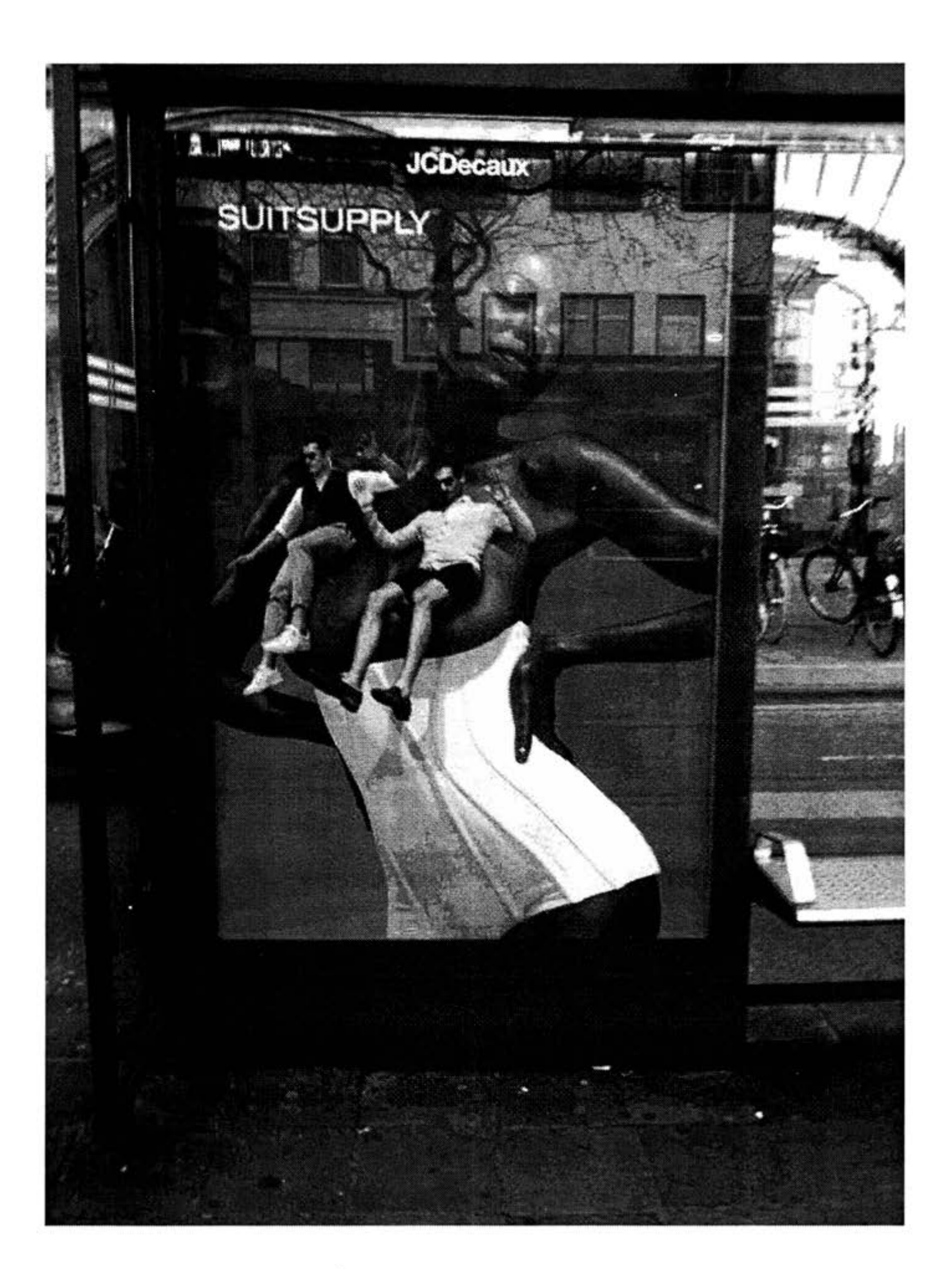
رومين Jan Romein بأنه «القيادة الكابحة» في التاريخ.[307] إن «القيادة الإنجابية» الأنثوية قد شجعت النوع الذكوري على الذهاب فيما وراء القدرة على الولادة إلى أكبر قدر ممكن من المساحات الأخرى – الاقتصاد، السياسة، العلوم، الفن والثقافة؛ وذلك على سبيل المثال لا الحصر. وقد استمر استبعاد النساء في كل هذه المجالات طوال عصور. جزئيا بفضل التماسك الذي لا يهتز لكثير من الأساطير، في نظام عالمي جرى خلقه ورفع نوعا فوق الآخر من منطلق حاجة هائلة للتعويض.

ورغم تعرضهن للاحتجاز والإعاقة، مارست النساء أحيانا سلطة أكبر مما كن واعيات بها: سلطة صغيرة النطاق كأمهات أو زوجات أو عشيقات، مع رجال أشبه بفرائس مكرهة أو ضحايا لا حيلة لها.

دائما ما يبرز الخوف الذكوري من السلطة الأنثوية في الثقافة الشائعة، كما تبين نكتة معاصرة:

> «بعد الموت، لا بد أن يطرق الرجال على واحدة من البوابتين السماويتين المخصصتين لهم. إحدى البوابتين للرجال الذين قمعتهم النساء في مدة حياتهم، والأخرى للرجال الذين لم تقمعهم أبدا النساء أو الزوجات في مدة حياتهم. ينظر القديس بطرس إلى من يصلون حديثا. في البداية يختلس النظر عبر شق في إحدى البوابتين حيث صف هائل من الرجال ينتظر بصبر. كلهم قمعتهم زوجاتهم خلال مدة حياتهم. يغلق بطرس الباب بسرعة مرة أخرى وبعد ذلك يلقي نظرة على البوابة المخصصة للرجال الذين لم تقمعهم أبدا النساء أو الزوجات في مدة حياتهم. رجل واحد فقط هزيل يقف بصبر وينتظر هناك. يسأله بطرس مندهشا بعض الشيء: «إيه، ماذا تفعل هنا؟» يهمس الرجل مطأطئًا رأسه في حرج: «قبل أن أموت مباشرة، أمرتني زوجتي أن أقف في هذا الصف.»

307- Jan Romein in: ‘De dialektiek van de vooruitgang’, 1937:9- 64.



ملصق إعلاني على موقف ترام في أمستردام

11

لمن يكون المجال العام؟

ينظر الرجال إلى النساء. وتنظر النساء إلى الطريقة التي يُنظر بها إليهن.[...] لا يحدد هذا فقط العلاقات بين الرجال والنساء، بل أيضا العلاقة بين المرأة ونفسها. المراقِب داخل المرأة ذكر؛ والمراقَبة أنثى. وهذا يحولها إلى شيء، وبمزيد من التحديد إلى شيء يُنظر إليه: إلى تحفة».[308]

ملصق عند محطة ترام: امرأة سمراء بعينين مغلقتين لا ترتدي إلا مشد خصر ضيقا بلون أخضر فاتح أسفل ثدييها مباشرة. وينزلق رجلان في كامل ثيابهما على تليّها المكشوفين. على ملصقات أخرى من نفس السلسلة الإعلانية، امرأة لها ثدي جميل يتدلى من فستان أزرق فاتح ليمتع رجلا يرتدي حُلة أنيقة إلى جوارها. أو: من أجل الرجل الأنيق الثياب في مقدمة الصورة، تجلس امرأة بجذع عارٍ في الخلفية. في السلسلة بأكملها، ثمة رجل يرتدي ثيابه بعناية وامرأة متعرية قليلا أو كثيرا. أحيانا يكون الرجل مرتديا ثياب الخروج ويقرأ كتابا على الأريكة بينما تتمدد إلى جانبه امرأة ترتدي طوقا وجوربا واحدا. تخيل هذا: أنك تقرأ بأناقة مرتديا حُلة جذابة وتجيئك هي عارية تقريبا، كمكافأة إضافية. هناك تنويعات من هذه الصورة الآن في كل مكان في المجال العام وكذلك في وسائل الإعلام؛ لو كانت تأثيراتها على المبيعات أقل ربحا، لم نكن لنراها حولنا بكل هذه الكثرة.[309]

308- John Berger, *Ways of Seeing* (1972) 2008:47.

309- Https://designyourtrust.com/20171970/04/s- macho- male- models- their- rarely- clothed- fawning- ladies/.

دون أن يلاحظها أحد كعش الغراب في الخريف، تظهر المواقع الإلكترونية عن الأثداء من اللامكان. مواقع تعلم النساء حيلا مثيرة جنسيا أو تقدم نصائح حسنة النوايا. يخبرن النساء فقيرات «المواهب» أن يأكلن الكثير من الفاكهة: خاصةً الفراولة والرمان والموز التي من المفترض أنها تحتوي على *فوائد للأثداء*. وتوصف الأثداء نفسها كفواكه، من الخوخ إلى التفاح إلى البطيخ. وفقا لقصص الخلق في اليهودية والمسيحية والإسلام، فإن الفاكهة المحرمة التي أغوت حواء بها آدم ترتبط آليا بثدييها المغويين. في رسم توضيحي توراتي من القرن السادس عشر، تعطي حواء التفاحة لآدم بيدها اليمنى بينما تقدم له ثديها الأيمن بيدها اليسرى.



برنارد سالومون Bernard Salomon، حواء تغوي آدم، ليون، 1561.

كما أن ربط الأثداء بحلوى البودينج أو الكعك لا يقل شيوعا. في الفيلم الفرنسي *المأدبة الكبيرة La grande bouffe* (1973) يلعب الممثل فيليب نويريه Philippe Noiret دور قاض يموت بين ذراعيّ ممثلة ذات جسد مثير، بينما يأكل حلوى بودينج على شكل ثديين. في اليابان المعاصرة، يباع الثدي كحلوى لذيذة: كعكتا بودينج شاحبتان على شكل ربوتين عند أعلى صدر الفتاة المرسومة على العبوة يجذبان الانتباه؛ تجري تعبئتهما بشكل منفصل في بلاستيك مقوى، وعلى كل واحدة منهما نقطة وردية في المنتصف. أعلى اليسار رسالة تقول: «كل بحب» وعلى اليمين تحذير:

«الكوب هش، لذا كن حذرا.»[310]

لقد نمت الإعلانات المثيرة جنسيا في القرن العشرين لتغدو تجارة عالمية. وقد ركز المعلنون غالبا على النساء كأشياء جذابة. ولتعريض الناس لمئات الصور الإعلانية كل أسبوع، أنفقوا أكثر من 50 مليار دولار سنويا.[311] إن الشعارات المصاحبة موحية للغاية ومكررة بشدة غالبا لدرجة أنه من الصعب ألا نؤمن بهذا الواقع العالمي الزائف.

تحاصر صناعة الإعلانات النساء بين قواعد العفة القديمة ومتطلبات الجمال الجديدة (التي لا تقل إلحاحا). وسط أمهاتنا الأوائل، كانت الأثداء تتدلى عارية وبلامبالاة كمصادر غذاء بسيط للرُضَّع، لكن الآن تركز المجلات على النهود المثيرة كأشياء إيروتيكية لجذب انتباه الجمهور.

بالضبط مثل الأنوف أو الأفواه أو السيقان أو الأقدام أو القضبان؛ توجد أثداء وبطون وفروج على كل شكل وحجم، لكن معايير المجتمع تملي تنوعها. على المواقع الإلكترونية لجرّاحي التجميل، تتطاير التعليقات الإيجابية داخلة من جميع الجوانب: «أنا أحب أحب ثديّ الجديدين بمظهرهما الطبيعي... اسعي من أجله!» توضح امرأة من جامايكا أنها كانت تريد طوال حياتها تكبير ثدييها، لأنها شعرت أنها واقعة في مصيدة التردد التي بلا قرار: «أنا سعيدة للغاية لأني وجدت أخيرا ذاتي الحقيقية.»

وثمة طالبة سعيدة أيضا لأنها قامت بتشذيب فرجها. بعد كثير من المناشدة والتوسل، توافق أمها – وهي نفسها ممرضة – على دفع ثمن العملية؛ الأم التي بذلت أقصى ما لديها لسنوات عديدة كي تقنع ابنتها أنها تبدو طبيعية على نحو نموذجي وستتغلب على شكها.

في الأسابيع السابقة على العملية، تشعر الفتاة بالتشويق: بالرغم من أن عليها المذاكرة للامتحانات وكتابة أوراق عديدة، لكن كل هذا يبدو غير هام بالنسبة لعملية

310- Https://weirdasianews.com/200607/12//japanese- breast- pudding- yummy/.

311- Amber E. Deane, ʹAdvertisingʹ. In *Encyclopedia of the Breast* 4- 9; Florence Amalou, *Le livre noir de la Pub*,2001 .

فرجها.[312] لقد تنامى بشدة الخوف من عدم تلبية المعايير الخيالية للمجتمع حد أنه قزَّم من أهمية دبلومتها الدراسية.

بين النساء الطبيعيات المتمتعات بصحة جيدة، تختلف الفروج بشكل كبير من ناحية الشكل واللون والحجم، كما يمكن أن نرى في *الشونجا* (الصور الإيروتيكية) في نحت خشبي لهودويوشي، مرسومة «على الطبيعة» بدقة عظيمة. اثنان منهما على الأقل سيكونان بحاجة للتدخل الجراحي، وفقا لإملاءات جراحة التجميل اليوم.

فتيات كثيرات يدمرن احترامهن للذات باتخاذ صور البورنو كنموذج مفروض، غير واعيات بأن هذه الفروج لا بد من اختزالها وتصغيرها رقميا إلى خط مستقيم لكي تلبي الشروط القياسية للقبول في عالم المبيعات في المجلات وعلى الإنترنت. بهذه المعاناة من الصورة السلبية للذات، تقارن الفتيات أنفسهن بنموذج الفتاة اليافعة المشذبة رقميا. وتفسر الفتيات فاقدات الثقة هذا الخط المستقيم باعتباره إلزاما من المستحيل تجاهله.

يؤكد علماء النفس التطوري أن الرجال انجذبوا إلى النساء الشابات والجذابات جسديا ذوات الملامح المتناسقة – «بشرة فتية لا شائبة فيها، شفاه ممتلئة، شعر لامع، أسنان بيضاء، خطوة رشيقة، نهود متماسكة» – حيث كان يتم تأويل هذه الملامح كعلامات خصوبة. وبدأت النساء يستجبن لهذه العلامات بالتجميل المطابق – ومازالت نساء كثيرات يفعلن هذا.[313]

ما التوقعات التي يخلقها نظام اجتماعي يؤكد بالأساس على الاختلافات بين البنات والأولاد ويصر على أن البنات ينبغي أن يكن جميلات ومطيعات وغير خشنات وقويات وطموحات كالرجال؟ بالنسبة للرجال، تعني نفس الرسالة أنهم لا بد أن يكبتوا الملامح «الأنثوية» المزعومة؛ حتى لا يُنبذون باعتبارهم «ضعفاء» أو «مخنثين».

رأى فرويد الرغبة الأنثوية في امتلاك مجوهرات لامعة وديكوليتيهات جذابة وماكياج

312- Https://www.realself.com/review/miami- fl- breast- augmentation- boob- deprived; https://xojane.com/ithappened- to- me/it- happened- me- i- had- labiaplasty- surgery; https://en.wikipedia.org/wiki/Labiaplasty#cite- noteracgp- 13.

313- Vandermassen 166.

مغوٍ كعلامات لنرجسية مفرطة لدى النساء. في أغلب الثقافات اعتاد الرجال أن يزينوا أجسادهم كذلك، لكن منذ الثورة الفرنسية طمحوا – أولا في العالم الغربي وتدريجيا في أماكن أخرى – إلى درجة عالية من التماثل. وكان على الاهتمام بالزينة والملابس المبهرجة الذي اعتادوا أن يتشاركوه مع النساء أن يفسح الطريق لمزيد من الأزياء الموحدة التي تدعم الإنجازات المهنية والفوائد الاجتماعية وأن يكون الرجل عضوا ذا قيمة في المجتمع بدلا من أن يكون من أهل البطالة غير المجدية.[314]

تضيف الصور الإعلانية مزيدا من الحطب إلى النار، إلى الخوف من عدم التأقلم. ويتحول الرجال أيضا إلى الاعتقاد بأن المظهر هو كل شيء، لكن حتى الآن فإن النساء بالأساس هن من يتعرضن لغسيل الدماغ ليعتقدن أن مظهرك هو ما يحدد سعادتك في كل مجالات الحياة.

رعب الخارج

فكرة أن جسدك لا يتوافق مع القالب والمعيار «النموذجي»، تجعل النساء يعملن على مظهرهن أكثر من قبل. فينفقن مزيدا من المال على الملابس والماكياج، ويجبرن أجسادهن على الدخول في مشدات الموضة.

تعاني الأمهات من كوابيس تلقينية عن الشيخوخة ويدربن بناتهن على الكيفية التي يظهرن بها مثيرات ويستخدمن الماكياج المغوي ليبدون أصغر وأصغر سنا. في مسابقات ملكات الجمال الصغيرات، يُلقى بالفتيات في مواجهة بعضهن البعض كنسوة فاتنات يرتدين الميني بكيني. أدوات الماكياج والكريمات المضادة للتجاعيد متاحة بالفعل من سن 8-12 ويعتقد عدد من الفتيات أن التقدم في العمر يعني «أن تزدادي عمرا وقبحا».[315]

إن مقدار «طبيعية» المظهر الأنثوي في المجتمعات الغربية يعتمد على السياق والموقف:

314- مزيد من التفاصيل في الفصل الثامن من كتابي (المكشوف والمحجوب).

315- Mona Chollet, *Beauté fatale. Les nouveaux visages d'une aliénation féminine*, 2015:43

«أفضل وقت للتسامح مع الملامح "الطبيعية" هو في الفترات التي يكون فيها توزيع الأدوار الجندرية في حالته الأكثر بديهية: النساء في البيت، والرجال في الخارج. كانت فترة الخمسينيات [الأوروبية] من القرن العشرين المحافظة جدا مازالت مغرمة بالمخلوقات ذات الأجساد الممتلئة. وبالعكس، عندما تخاطر النساء بالدخول في المساحات الرجالية تقليديا ويشغلن مكانا أكبر في الحياة الاجتماعية، يبدو كما لو أن عليهن تعويض الخلل الناتج بتقليل المكان الذي تشغله أجسادهن في تلك المساحة نفسها.»[316]

منذ ارتبط الجسد الأنثوي الأمومي المغذي طوال العصور وبشكل أساسي بالبيئة المنزلية أو حُبس فيها، يبدو كما لو أن النساء شعرن بالحاجة إلى جسد من نوع مختلف ليهربن من قيود التاريخ – بالتكيف داخل جسد لا يمكن بعد ذلك أن يرتبط بقدراتهن على الإنجاب المثيرة للحسد. دخل هذا الجسد فجأة في نطاق «طاقة الإنتاج الثقافي» التي نادرا ما كان يُسمح لهن بالدخول إليها، لأنها أعلنت كمساحة غير مناسبة للنساء.

سواء كان يدور الهمس بها فقط بين النساء أو هكذا يبدو، فإن الرسالة الدائرة والمنتشرة هي أنه كان عليكِ أن تتخلي عن الجسد الأمومي الممتلئ بأن تبدين «مثل صبي بنهدين صغيرين» بكلمات طبيب نفسي متخصص في اضطرابات الأكل. بعض الوكالات تحذر أي عارضة شابة يبدأ وركاها وثدياها في الازدياد حجما بأن تحترس: «أنتِ تتحولين إلى امرأة» – وهو تطور لا بد من تجنبه بأي ثمن. وبدلا من ذلك، من الأفضل أن تعذبي نفسك بنظم غذائية وأدوية خطيرة وأحيانا قاتلة.

ثمة قصص معاصرة عن فتيات ناحلات بارزات العظام تُظهر تنويعة جديدة للخضوع الأنثوي غير المشروط *«لشرط إنساني condition humaine»* يجعلهن منظورات إليهن ومفعولات بهن بدلا من أن يكن ناظرات وفاعلات في العالم بأنفسهن.[317]

بالنظر إلى الوراء عبر التاريخ، يتساءل المرء إن كان هناك جديد تحت الشمس. إن خطوط الجسد النموذجية للعارضات المعاصرات، المثيرة لفقدان الشهية العصابي،

316- Ibid. 148, referring to Susan Bordo›s *Unbearable Weight*.

317- Ibid.149.

تذكرنا بالممارسات الزاهدة التي استسلمت لها الفتيات والسيدات المثاليات في القرون الأولى للمسيحية لكي ينلن الاحترام. في ذلك الوقت، كان يوصى بالصوم بشدة لتحسين عفة الجميع، لكن النساء اتخذن من رفض الطعام طريقة جديدة لرفع مكانتهن منخفضة القيمة.

تمادت بعض الشابات إلى درجة أن أثداءهن ذبلت وانقطع حيضهن. بطمسهن لقوالبهن الأنثوية، أصبحن بدنيا أقرب إلى الرجال، مضللات أنفسهن سدىً بأنهن أخيرا سيعامَلن كأنداد في المجتمع، كما كان قد وعد المطران باسيليوس (القرن الرابع):

«رغم أنهن مكسوات بجسد أنثوي، إلا أنهن عن طريق الزهد قد هزمن الشكل الناشئ عنه من أجل خاطر الروح، وجعلن أنفسهن يبدين كالرجال من خلال الفضيلة، بالضبط مثلما خلقت أرواحهم متساوية. وبالضبط مثلما يعبر الرجال، من خلال الزهد، من كونهم رجالا إلى مرتبة الملائكة؛ فكذلك أيضا تعبر هؤلاء النساء، من خلال الزهد، من كونهن نساء إلى نفس المرتبة كالرجال.»[318]

ومع ذلك، لمنع سوء التفاهم، أضاف المطران على الفور أن المساواة في الحياة الدنيا مقصود بها الروح فقط: وفي الحياة الأخرى فقط سيصبح كلا الجنسين «متساويين بكل الأشكال». إن المنظور اليائس للمعانيات من فقدان الشهية العصابي يُذكرنا بالجهود المستحيلة لأسلافهن الزاهدات. والرسالة واضحة غير قابلة للإلغاء: يمكنك أن تحاولي بأقصى ما لديك أن تفقدي شكلك ومظهرك ووظائفك الأنثوية من منطلق كراهية الذات، لكنك ستظلين مواطنة من الدرجة الثانية، طالما أنك محبوسة في جسد أنثوي. النساء الزاهدات في القرون الوسطى – وبعضهن جرى تحويلهن إلى قديسات – قدمن مثالا وقدوة للنساء العاديات اللاتي استمررن في الأكل والحيض عندما لم يكن حوامل. وكما هو الحال بالضبط مع الإعلانات المعاصرة، مضت الصورة الرائجة للفتيات الزاهدات النحيلات للغاية يدا بيد مع الصور السلبية للنساء في المجتمع.[319]

318- Quoted in Theresa Shaw 237.

319- السابق، مزيد من المعلومات الموسعة عن السلبية تجاه مظهر النساء في التقليد الغربي في كتاب إمبرتكو إيكو (تاريخ القبح) الفصل الرابع:

Umberto Eco's History of Ugliness, chapter iv.

هل يعني هذا أن بداخل نساء القرون الوسطى كان هناك بالفعل مراقب ذكر صغير يراقبهن؟

كل ما تعتبره الإعلانات اليوم مرغوبا أو قيما بالنسبة للنساء يتعامل بالأساس مع مظهرهن: «يريد كل واحد أن يكون جميلا فقط، ألا تعتقدي هذا؟» تقول صوفي (التي لا تريد أن يظهر اسمها الثاني في الصحيفة). على هاتفك الجوال، على حاسوبك، على الإنستجرام، على الفيسبوك: كل العارضات والفتيات الرشيقات بأجسادهن ووجوهن النموذجية. وفي النهاية، تريدين أن تكوني واحدة منهن.[320]

لهؤلاء العارضات والفتيات الرشيقات يكون رد فعل الرجال «طبيعيا»: «فقط أبدأ في تقبيلهن. الأمر مثل المغناطيس. تقبيل فقط. لا أنتظر حتى. وعندما تكون نجما، يتركنك تفعل هذا. يمكنك أن تفعل أي شيء. *تمسك بهن من فروجهن*. يمكنك أن تفعل أي شيء» وفقا للمرشح دونالد ترامب قبل أعوام من انتخابه رئيسا للولايات المتحدة.[321]

تكسر الشاعرة الإنجليزية فريدا هيوز Frieda Hughs هذه الحلقة المفرغة بقصيدة عن الأثداء السليكون النموذجية. ليس على امرأة بمثل هذين الثديين أن تنطق كلمة، لأن الجميع يفهمون لغتها غير المنطوقة مباشرة. حتى تقرر مالكة الثديين النموذجين، في المقطع الأخير، أن تقفز داخل الأحداث:

«وعندما انتهت أخيرا من لقطة التصوير
وضعت – برقة – ثدييها
بلحمهما البلاستيكي اللامع
على المنضدة أمام المصور.
ورحلت.»[322]



320- NRC *Handelsblad*, 10- 11 September 2016.

321- *The Washington Post*, 7th Oktober 2016.

322- Https://www.poetryinternationalweb.net/pi/site/poem/item/555: Frieda Hughes, 'Breasts', from the volume *Stonepicker*, 2001.

من مؤتمر دولي حول نتائج العولمة عام 2000 في دار السلام، بقيت معي عبارتان بارزتان لشخصين إفريقيين. كانت إحداهما: «العولمة مثل الدواء: إذا تناولت منه ما هو أكثر من اللازم، ستمرض؛ وإذا أخذت منه أقل من اللازم، ستموت.» والعبارة الأخرى صورت سلطة الإعلانات الهائلة في تشبيه قاتم: «العولمة مثل الاغتصاب: لا يمكنك أن تفعل شيئا حياله، لذا من الأفضل أن تتكئ بظهرك إلى الوراء وتستمتع.»

منذ القرن العشرين، تدور المعلومات والمنتجات والصور حول العالم بسرعة البرق. وتملك الرسائل التجارية الغربية أثرا عالميا. ينطبق هذا بالأخص على صور الأثداء. منذ أقل من قرن، كان الرجال والنساء في المناطق الاستوائية عادة ما يسيرون عراة. كانت الأثداء العارية من أجل إرضاع الأطفال، وهذا ما كانت تفعله النساء دون إحراج أحد؛ في السوق أو بينما يعملن في الأرض أو في أي مكان على الطريق. حتى في المناطق التي كانت تغطى فيها الأثداء غالبا بسبب البرد، شب الأطفال لقرون على صورة الأمهات واضعات الرُضَّع على الأثداء.

أما اليوم، فالنساء العاملات المتزايدات يتحولن إلى زجاجات الإرضاع عندما تنتهي أجازات الرضاعة الخاصة بهن، بينما تعاني النساء اللاتي يرضعن أطفالهن في المجال العام على نحو متزايد من نظرات الاستياء أو يشعرن بالإحراج في المجتمعات التي كانت الرضاعة الطبيعية فيها أمرا عاديا تماما. لقد أثرت الصور الإعلانية الإيروتيكية على طبيعية الثدي المرضع، ليس فقط في العالم الغربي. إنها صور تنشر الارتباك وتعزز الطريقة الأحادية التي ينظر بها الرجال الآن إلى النساء والنساء إلى أنفسهن.

على الإنترنت، تحكي النساء المرضعات مشاعرهن المختلطة ومشاعر الناس الآخرين، من الزبائن الشاكين في المطاعم إلى الركاب المحملقين في المواصلات العامة، في ردود فعل تتراوح بين الانزعاج والاستياء أو حتى تصل إلى المنع الصريح للإرضاع. إن التعليقات على الإرضاع والحرج الناتج عنها بين الأمهات في كل مكان الآن.

في لندن أرضعت امرأة إنجليزية طفلها ذا الاثني عشر شهرا بتكتم في حجرة الطعام بفندق خمس نجوم. أتى إليها المدير على الفور: كان عليها أن تغطي صدرها بمنديل

المائدة. نشرت الأم صورا قبل وبعد تغطية صدرها بمنديل المائدة على الفيسبوك. فجاءت الأمهات النشطات إلى الفندق ليرضعن أطفالهن بجوار المدخل.

حتى وقت قريب، بدت الأثداء والرضاعة الطبيعية ظاهرة يومية في الصين. كتبت باحثة أمريكية في عام 2000:

«من بحثي في الصين، من الواضح للغاية أن الثدي أقل اتساما بالطابع الجنسي بكثير عما هو عليه في الثقافة الأمريكية [...] فهو لا يكون مخفيا ولا مكشوفا بأي طريقة خاصة في فساتين النساء أو ملابسهن الداخلية. في قرى كثيرة، تجلس النساء في الشمس وأثداؤهن مكشوفة، والنساء الأكبر سنا سيخرجن لغسل الملابس وصدورهن مكشوفة، وكل هذا لا علاقة له إطلاقا بالإثارة الإيروتيكية.»[323]

يبدو هذا مثاليا، لكن في آسيا المعاصرة، تتبدل الأوقات على نحو لا يمكن إنكاره. كانت امرأة صينية مؤخرا ترضع طفلها في قطار مزدحم عندما صورها راكب معها وفضحها على (ويبو)؛ النسخة الصينية من تويتر، بالنص التالي: «دعيني أذكرك أن هذا هو مترو بكين وليس الأوتوبيس الذي يجري في أرجاء قريتك.» انتشرت الصورة كالفيروس وأشعلت جدلا صاخبا حول الرضاعة الطبيعية. رفض كثيرون سلوك الأم؛ لأنها عرضت علانية «أعضاءها الجنسية». وبالعكس، دافع البعض عنها واعتبروا أن مشاركة هذه الصورة الحميمة على الإنترنت دون إذنها أمر مخزٍ، ومن بين هؤلاء طبيبة كانت أيضا أمًا: «الأثداء ليست أعضاء جنسية والأطفال بحاجة إلى الإطعام عندما يكونون جائعين. إنها أم عظيمة.» من الواضح أن المواطنين الصينيين يجدون منظر طفل على ثدي أمه محرجا مثلهم بالضبط مثل كثير من الغربيين المعاصرين.

في إفريقيا كانت الرضاعة الطبيعية أيضا عادية تماما، وعادة ما اعتُبرت الطريقة الوحيدة المقبولة لتغذية الأطفال خلال العامين الأوليين من الحياة. فعلتها كل أم وكانت النساء فخورات بذلك، لكن إفريقيا تتغير بسرعة مثلها مثل آسيا. في إفريقيا يمكن أن ينفجر جدال ساخن على الفور، كما وُصف مؤخرا في صحيفة *فانجارد*

323- Emily Martin, in Angier 139.

Vanguard النيجيرية مسلطة الضوء على نزعة شائعة بين نساء المدن الحديثة: أم شابة، خائفة من إرضاع طفلها في المواصلات العامة، انتهى بها الأمر إلى سيناريو محرج عندما ظلت تتظاهر ألا شيء هناك، مهما علا صراخ وبكاء طفلها.

«ضعي الطفل على الثدي أو الثدي على الطفل» – بمعنى أنه يمكنك حل المشكلة بأكثر من طريقة – كما يقول مثل شائع لدى شعب يوروبا. خاطب الركاب الذكور المرأة بصوت عال، متهمين إياها بالقسوة والغلظة. وصاح أحدهم بازدراء وبلغة اليوروبا: «لماذا تحاولين أن تنكري على هذا الطفل ما هو ملكه بالطبيعة؟» وتعجب رجل عجوز صراحةً: «ماذا في ثديك لم تره عين من قبل؟ أتوسل إليك، أرضعي هذا الطفل!» فقط بعد ضغوط كثيرة استسلمت المرأة، مكرهة.[324] لماذا كانت هذه المرأة غير راغبة إلى هذا الحد في إرضاع طفلها على الملأ؟ وفقا للمقال في صحيفة *فانجارد*، هذا تطور جديد بسبب المعلنين العولميين عن لبن الأطفال المستورد وانتشار صور الأثداء الإيروتيكية الأمر الذي جعل النساء المتعلمات ينكرن على أطفالهن هذا «الحق الطبيعي». منذ بدء الذاكرة الإنسانية، لم يكن لوظيفة الأثداء في التغذية أي شيء محرج. لقد صارت وظيفتا الأثداء، التغذية والإغواء، متعارضتين أكثر من أي وقت مضى، إلى الدرجة التي أصبحت واحدة منهما فقط هي المقبولة على الملأ، أو ولا واحدة منهما.

الهند بلد ضخم، وتؤكد بعض الأمهات الهنديات أن الرضاعة الطبيعية شائعة في بلدهن وليست موضوعا للمناقشة. وتشكو أخريات من الرجال المترصدين الذين يجعلون النساء المرضعات يشعرن بالحرج. هنا، مثلها مثل الصين، يوجد اختلاف كبير بين نساء المدن الحديثة ونساء القرى اللاتي «لا يرتدين ملابس داخلية» ويخرجن أثداءهن بطريقة روتينية في أي مكان ليرضعن أطفالهن بمجرد أن يبكون. أما في المناطق الحضرية، لم تعد أمهات الطبقة العليا والنساء ذوات التعليم العالي يرضعن

324- https://www.vanguardngr.com/2011/08/exclusive- breast- feeding- whither- nigeria- in- the- campaign/

أطفالهن على الملأ.[325]

يكتب طبيب أفغاني أن الرضاعة الطبيعية في بلده صعبة لأن الإسلام يأمر النساء بتغطية أجسادهن بالكامل، رغم أن الإرضاع المتكتم في الأماكن العامة مسموح به في البلاد الإسلامية. في إيران الحجاب إلزامي، لكن الأمهات يرضعن أطفالهن في الشوارع وفي المواصلات العامة بوضع جزء من (الشادور) ليغطي الجذع والطفل: «وهنا لا يُعتبر هذا "فعلا جنسيا"، لكن في الأماكن العامة يقل عدد الشابات اللاتي يفعلن هذا على نحو مطرد.» كما قيل لي في طهران.

في البلاد المحظور فيها الإرضاع في الأماكن العامة، مثل السعودية ودول الخليج، يتصاعد التحكم الذكوري في رغباتهم بوضوح. يحكي رجل هندي تجربته في المنطقة:

«كنت مسافرا إلى دبي بالطائرة. وكان طفلي مازال في مرحلة الرضاعة وقتها. كانت زوجتي مترددة، لكن لدى رؤية الطفل يبكي بدأت في إرضاعه. غطيتها والطفل بصحيفة. لكن الرجل الجالس في الصف الآخر كان يحملق كحيوان. تعجبت كيف يمكن لهذا الشخص أن يحدق بكل هذا التهور في امرأة تطعم طفلا. شعرت بغضب شديد وأني على شفا أن أفقد السيطرة، أردت أن ألكمه. لكني ظللت متحكما في نفسي، وتساءلت فقط لو أن شخصا حدق في ثدييّ زوجته عند إطعام طفلهما، ماذا سيكون رد فعله؟ لا بد أن ينضج هؤلاء الأشخاص!»[326]

على العكس، ثمة شخص سعودي من جدة ممتلئ بالتعاطف مع الرجل المحملق:

«لو أن امرأة تطعم طفلها والناس يرونها، بالطبع سيحبون أن يروا ثديها أكثر

325- باستثناء الملاحظات في نيجيريا وإيران تأتي الاقتباسات والتعليقات في هذه الفقرة عن الرضاعة الطبيعية من:

https://www.007b.com/public- breastfeeding- world.php.

هذا الموقع الإليكتروني الثري والمريح يعرض أثداء من كل نوع ليوضح أن الأثداء أعضاء عادية تماما من الجسد ومقصود بها تغذية الأطفال.

326- https://www.007b.com/public- breastfeeding- world.php#asia
https://www.facebook.com/groups/breastfeeding.muslim.mothers

وأكثر وربما يهتاجون ويودون ممارسة الجنس مع هذه السيدة التي تُرضع. وأعتقد أنه ليس من الجيد أن تُرضع أي سيدة أطفالها في الأماكن العامة. وإذا كانت تريد، نعم، يمكنها الانتقال إلى مكان لا يمكن لأحد أن يراها فيه.»[327]

ماذا كان السعودي المذكور أعلاه ليعتقد في عضوة البرلمان الآيسلندية التي كانت تُرضع ابنتها ذات الستة أسابيع في البرلمان عندما استدعيت على غير توقع لتشرح بالتفصيل مقترحا كانت قد قدمته في وقت سابق؟ ظلت الطفلة ترضع بينما قدمت الأم الشرح المطلوب. لم ينظر أحد خلسة. في البرازيل، أرضعت الوزيرة مانويلا دافيلا Manuela D"Avila طفلها في (الجمعية الوطنية)، وفي أستراليا غير (مجلس النواب) مؤخرا قواعد المجلس ليسمح بالرضاعة الطبيعية والرضاعة من زجاجات، وهو الأمر الذي كان غير مسموح به سابقا.

يطالب النشطاء بحق الرضاعة في الأماكن العامة. في هونج كونج، تظاهرت مائة أم شابة مؤخرا ضد التعصب المتزايد بإرضاع أطفالهن على الملأ بتنظيم تجمع خاطف. في نهاية نفس الأسبوع، وفي الولايات المتحدة، تجمعت مجموعة من المجندات أمام نصب جيفرسون التذكاري في واشنطن العاصمة، مرتديات الزي العسكري، وقمن بإرضاع أطفالهن أمام الجميع لجذب الانتباه إلى وضع الأمهات الشابات في الجيش.[328]

هذا الولوع المرضي ضيق الأفق بالوظيفة الإيروتيكية للثدي يستمر في إرباك الأمهات الشابات. أفضل نصيحة هي أن تتجاهلي الأمر فقط، وتُذكري نفسك بكلمات أم مرضعة: «النساء اللاتي يخرجن إلى الملاهي الليلية يكشفن من أثدائهن ما هو أكثر مما تكشفه أم مرضعة.»

هل تحظى النساء باحترام أكبر في المجتمعات التي يُرى فيها الثدي كرمز قوي للتغذية والرعاية المحبة عن المجتمعات التي لا يُرى فيها الثدي إلا كشيء إيروتيكي؟

327- Ibid.

328- Https://www.vogue.com/13435454/breastfeeding- public- womens- rights- hong- kong- flash- mob- jeffersonmemorial- active- duty/?mbid=social- facebook.

هكذا تتساءل مارجريت مايلز مؤلفة كتاب (بهجة معقدة).[329] سؤال مناسب في عصر تستقر فيه الأثداء المعلَنة آليا داخل ملف العقل البشري الخاص بالإيروتيكية والجنس. لا أحد يفكر في ثدي أم مرضعة عندما تبرز امرأة ثديا من فستانها الأنيق في أحد الإعلانات. ومع ذلك، بالعودة إلى التاريخ يجد المرء بعض الأمثلة المبكرة لنفس هذا الابتكار الإغوائي. مثلا في كنيسة (الضريح المقدس) في بارليتًا، في جنوب إيطاليا، حيث تصور جدارية قديمة من القرون الوسطى ثلاث نساء جميلات، يفعلن أقصى ما لديهن لإغواء القديس أنطوني بعرض ثدي أيمن جذاب، ربما لمداعبته. بأياديهن اليسرى وكأنهن يقدمن طبقا كانت كل واحدة منهن تقدم ثديا له. ونتيجة مقاومته الشجاعة للإغراء، كوفئ بالتكريس قديسا. قديما في ذلك الوقت كان الشيطان بكل جبروته هو من يستغل المظهر الأنثوي لإغواء المؤمنين، وفي أيامنا هذه تقوم وسائل الإعلام بالدور نفسه بالضبط. لا شيء جديد، فيما عدا النطاق العالمي للإغواء.

الطريق إلى القمة

طالما أن النساء يندمجن مع مظهرهن، سيظل العلم أكثر ارتباطا بالرجال عن النساء. ليس فقط تاريخ العلم، لكن الثقافة الشائعة تبين لنا هذا أيضا. إن أهمية المعرفة والتعلم كانت دائما محل تقدير كبير في كل مكان. المعرفة قوة، المعرفة ثروة، المعرفة تعني الهيبة والامتيازات؛ وفقا للحكمة التقليدية حول العالم:

المعرفة عدوة الجهل. (إنجليزي)
المعرفة كنز يتبع مالكه. (صيني)
المعرفة أفضل من البضائع (عربي)
المعرفة كنز لا يمكن أن يُسرق. (فلبيني)
عدم المعرفة سيء، وعدم الرغبة في المعرفة أسوأ. (وولوف)

احتفظ الرجال بتلك الوصايا المتوهجة في القلب، بينما أبعدوا هذه المعرفة المرغوبة بشدة عن النساء؛ متظاهرين بحماية فضيلتهن:

329- Miles, Afterword.

مجد الرجل المعرفة، ومجد المرأة هو التخلي عن المعرفة. (برتغالي، البرازيل)
ينبغي على الرجل أن يضع المعرفة قبل الفضيلة، وعلى المرأة أن تضع الفضيلة قبل المعرفة. (ألماني)
فاضلة هي المرأة التي بلا معرفة. (صيني، تايوان)

لتعزيز الفوارق بين الجنسين، جرى استدعاء التكتيكين المألوفين الآن للقيام بالعمل. من ناحية، جرى إنكار عقول ومعرفة النساء أو السخرية منها:

المرأة الحكيمة تساوي رجلين أحمقين. (إنجليزي)
جانب النساء من البيت: الجانب الذي بلا معرفة. (بورمي)

ومن ناحية أخرى، جرى تحذير المجتمع من مخاطر الذكاء الأنثوي. حتى في أقدم المصادر المعروفة كان يُنصح الرجال بالاحتراس من عقول الإناث: «ذكاء المرأة يمكن أن يسبب كارثة.» (سنسكريتي)

وكانت الإدانة قاسية للنساء الذكيات والقادرات على الرد:

لا يريد الرجل امرأة أذكى منه. (إنجليزي)
الكلب أذكى من المرأة، فهو لا ينبح في وجه سيده. (روسي)
الدجاجة الصيَّاحة والمرأة التي تعرف اللاتينية لا تصلان أبدا إلى نهاية طيبة.

كانت الحكمة الأخيرة شائعة في جميع أنحاء أوروبا حيث كانت اللاتينية لغة التعلم لقرون عديدة. وكان ينبغي على النساء أن يبقين صامتات في حضرة الرجال. كان إظهار معرفة الواحدة كامرأة أمرا غير معتاد وغير لائق، وكان النجاح الجماهيري يُقدَّم كملمح أنثوي غير مرغوب.

ظلت الاعتراضات على النساء المتعلمات في الجامعة شديدة بشكل لا يُقهر، سواء داخل أوروبا أو خارجها، ومازالت موجودة بشكل أكبر مما نتخيل. لو لم توجد قوانين مقيدة، لأعلن الباحثون الذكور أن النساء غير قادرات على العمل الفكري: وأن حقيقة أن جماجمهن تضم عقولا أقل مما لدى عقول الرجال جعلتهن غير مناسبات للتعليم الأكاديمي.

اشتدت المناقشة حدة مع ذهاب المزيد من الفتيات إلى الجامعة. ولم يجرِ تجنب أي حجة. جادل بعض الباحثين صراحةً بأن الدراسة «غير طبيعية» بالنسبة للنساء؛ فهي تسبب العقم والضلال. والنساء المؤهلات للدراسة لا بد أن يكن «غير طبيعيات». في القرن التاسع عشر كان يشار حتى إلى إن مبايض المرأة قد تذبل بمجرد أن تتلقى تعليما أعلى. (حتى وقت قريب، كان يقال للنساء في السعودية إن مبايضهن ستنكمش بقيادة السيارات، لكن مؤخرا يبدو أن هذا الخطر جرى التغلب عليه). بالطبع جرى تحذير الفتيات كذلك من أنه بالدراسة سيفقدن فرصهن في إيجاد زوج. باختصار، كانت المرأة المتعلمة امرأة ضائعة.

ورغم أن جدل القرن التاسع عشر عن محتوى الجمجمة الأنثوية الأقل شأنا قد عفا عليه الزمان لأكثر من قرن، إلا أن بعض رجال الدين المسلمين المتشددين يتمسكون عبثا بهذا في كتاباتهم وعلى الإنترنت، مجادلين بأن الرجال فقط لديهم المؤهلات العظمى التي تنقص النساء بسبب أجزاء الجسد التي تنقص الرجال:

> «ليس هناك شخص عاقل يمكنه إنكار حقيقة أن الرجل بسبب قدراته الفطرية يتفوق على النساء في أمور شتى. فالمرأة المسكينة تمر بفترات أو مراحل في حياتها تكون فيها تقريبا عاجزة عن فعل أي شيء وعليها أن تتطلع إلى الآخرين من أجل المساعدة والعون. وهذه الفترات هي العلاقات الغرامية والحمل والنزيف بعد الولادة وإرضاع الطفل.»[330]

إن الآراء التي تبذل أقصى جهدها لإثبات أن النساء يعانين من نقص فكري تتعلق تماما بالخوف من فقد نظام راسخ. ومن أجل استبعاد النساء بطريقة فعالة، ارتبطت الرسالة الشائعة «ابتعدي، ابتعدي» مباشرة بالجسد الأنثوي كما يتضح في المثل الإثيوبي لشعب أورومو: «الأثداء التي تحتوي اللبن، لا تحتوي الذكاء.» آه، الأثداء...

أليس من المفارقة أنه بالرغم من كل الجهود المبذولة لمنع النساء من دخول قاعات الدرس الجامعية، اختارت جامعات كثيرة جدا – خاصة في أوروبا – صورة الأم المرضعة كشعار أكاديمي لها؟ منذ عام 1088، عام تأسيسها، كانت جامعة بولونيا

330- Mufti Zaferruddin Miftahi, *Modesty and Chastity in Islam* 1993: 160.

أول جامعة اختارت*Alma Mater* (الأم المرضعة) كشعار لها. وتبعتها جامعات أوروبية أخرى. حتى في مدخل جامعة هافانا الكوبية، نُقشت كلمتا *Alma Mater* بحروف ثقيلة على تمثال ضخم من الرخام الأسود لامرأة بذراعين مفتوحتين وثديين مدهشين.

أما شعار (الأم المرضعة) لجامعة ليدن فلديه صدر غير واضح ومغطى بعفة، لكن *Alma Mater Cantabrigia* (الأم المرضعة كامبريدج)، وهو شعار قديم لكامبريدج، فيقدم جسدا أنثويا مليئا بالحيوية بشعر متدفق وذراعين مفتوحتين على اتساعهما؛ وطوال قرون غذى ثدياها اللذان لا يجفا قط العالم بالمعرفة. في يدها اليسرى تمسك كأسا مقدسة وفي يدها اليمنى شمس العلوم تنشر نورها الساطع. ودونما جهد تحمل أسوار المدينة كتاج على رأسها.



الأم المرضعة كامبريدج، وعلى جانبيها شجرتا زيتون، 1600

من هذين الثديين المتفجرين بالمعرفة، فقط الطلاب الذين لا يملكون أثداء خاصة بهم هم من انتفعوا فقط لقرون – بعيدا عن بضعة استثناءات شهيرة. في إيطاليا القرن الثالث عشر، كانت بيتيسيا جوتساديني Bettisia Gozzadini استثناء مبكرا. ارتدت ملابس الرجال، وارتادت جامعة بولونيا، وتخرجت بتفوق أكبر من كل زملائها.

ضد كل التحيزات، أثبتت أن المرأة تستطيع أيضا أن تصبح محامية. وفي عام 1296 قامت حتى بتدريس القانون في جامعتها الأم، لكن هذا كان لا بد أن يحدث من وراء ستار؛ وإلا كان جمالها سيشتت انتباه طلابها الذكور.



بنت، أخيرا بنت! كاريكاتير، النصف الثاني من القرن العشرين.

فقط منذ القرن العشرين صارت الجامعة الأم الأوروبية تشارك معارفها مع البنات مثلما تفعل مع الأبناء. في أوروبا، مازال طلاب الجامعة يدعون جامعتهم بحب (ألما ماتر) ويسمون أنفسهم *alumni*، والتي تعني حرفيا «الرُضّع».

لقد تغير الكثير في القرن الماضي، لكن ماذا عن المستوى الأعلى في العلم؟ مازال هناك أساتذة ذكور أكثر بكثير من الإناث. في عام 2013 نشرت (الجمعية الفيزيائية الأمريكية) مقالا عن التباين المروع بين عدد جوائز نوبل للرجال والنساء في الفيزياء: 196 مقابل 2. وأشهر الحاصلات على نوبل في الفيزياء هي ماري كوري؛ التي مُنح لها هذا الشرف بالاشتراك مع زوجها عام 1903 عن اكتشاف ودراسة النشاط الإشعاعي. وبعد وفاة زوجها، فازت بجائزة نوبل ثانية عام 1911، هذه المرة عن أبحاثها في الكيمياء. في عام 1910 رُشحت عضوا في الأكاديمية الفرنسية للعلوم. وبعد جدال ساخن، لم يجرِ انتخاب الفائزة بجائزة نوبل لكن مرشحها المضاد الذَكر؛ وكان الفارق صوتين ولذلك كان لا بد من إجراء التصويت من جديد. وهذه المرة كان التصويت على قبول النساء. وعلى الفور صوتت الأكاديمية ضد هذا بأغلبية مكتسحة.

وحتى بعد أن حصلت ماري كوري على جائزة نوبل الثانية، ظلت الأكاديمية الفرنسية على قرارها، فقط في عام 1979 سُمح لامرأة بالانضمام إلى هذا النادي الشهير لأول مرة. في إنجلترا لم يكن الوضع أفضل كثيرا: قبل عام 1945 كانت المرأة الوحيدة في (الجمعية الملكية البريطانية) هيكلا عظميا في المجموعة التشريحية. بعد خمسين عاما من هذا الوقت، مُنحت فيزيائية ثانية جائزة نوبل في مجالها: ماريا جوبرت ماير Maria Goeppert Mayer التي ظلت طوال حياتها العملية لا تتلقى أجرا عن عملها.[331]

قبل وقت من الآن انتهى الأمر أخيرا بالأفكار المخيفة عن نقص عقول النساء أو ضعف فكرهن إلى كومة القمامة في كل مكان تقريبا وأخيرا أصبحت المزيد والمزيد من المؤسسات الأكاديمية واعية بكم فُقدت وتُفقد المواهب الأنثوية المتفوقة.

يبدأ طريق كل شخص إلى القمة بالقراءة والكتابة، والحكومات التي تشجع النساء على مستويات التعليم الأعلى تجعل بلادها أكثر رخاء. وطالما أن الرسائل الهرائية المتعلقة بالجنس عن المعرفة والعقول والمجوهرات تتردد أصداؤها، تظل الأفكار النمطية عقبة أمام النساء في الطريق إلى القمة، لكن استثناءات أكثر وأكثر تبين أن الطريق الصاعد لم يعد متعذر الاجتياز.



331- الفرع الوحيد في جائزة نوبل الذي يضم عددا أقل من النساء هو الاقتصاد، بفائزة واحدة: إلينور أوستروم Elinor Ostrom عام 2009:

Cf. https://www.scientificamerican.com/article/the- last- woman- to- win- a- physics- nobell/;https://en.wikipedia.org/wiki/List- of- female- Nobel- Laureates

12

العالم متحركا

[إذا قام] الذَكَر، وهذه بلية غالبة، إذا هاجت
لا يقاومها عقل ولا دين. فهي أقوى آلة
الشيطان على بني آدم.[332]

تحت الطبقة الرفيعة من أسفلت المجتمع المعاصر تكمن أفكار أسلافنا الراسخة والمحفوظة جيدا. وأي بحث عن وجهات نظر موروثة حول أجزاء الجسد الفريدة في النساء لن يثمر فقط معرفة عن التصورات الماضية، بل أيضا تبصرات ثمينة داخل الحاضر؛ حيث تسبب الوضع المتغير لنساء كثيرات جدا في الارتباك على جبهات عديدة. لا يمكننا تغيير التاريخ، لكن يمكننا تغيير طريقتنا في النظر إلى الماضي والحاضر.

من وجهة نظر قضيبية

من أجل فهم أفضل للتطورات التاريخية، سيكون من المناسب هنا إيلاء بعض الاهتمام إلى القضيب. طالما كان يجري تمثيل الأرض الخصبة بربات إناث أو إلهات خالقات مستقلات، كان يجري تكريم الفروج ليس فقط من أجل قواها الخالقة للحياة، لكن أيضا من أجل تأثيرها السحري الواقي في أوقات الكوارث؛ كما رأينا في

332- ابن عباس، مقتبس في كتاب نوال السعداوي: *The Hidden Face of Eve*, 1980:206f.

الفصل الرابع. يُقدَّر أن عبادة القضيب المنتصب بدأت في العصر الحجري الحديث ما قبل التاريخ (حوالي 11.000 ق.م). وفي الثقافات التي سادت فيها أمارات إجلال القضيب، لم تنتشر فقط القصص عن آلهة القضيب، بل نُصبت تماثيل له – في البيت وفي الفناء وفي المعابد وفي الشوارع. في الأساطير يتخذ القضيب غالبا حجم خرطوم الفيل، كما رأينا في حالة الديانجاوول لدى السكان الأصليين في أستراليا. ولم يكن الإله المصري آتوم فقير الموهبة أيضا. وقد قابلناه بالفعل في الفصل الثاني – الخالق الذي استمنى ووضع منيَّه في فمه وأنجب أطفاله. ثمة نحت غائر على جدار معبد كشف عنه الحفر صوَّره في وضع الاستمناء الفموي الذاتي الأكروباتي: متمددا على ظهره وقدماه فوق رأسه، وهو على وشك وضع قضيبه ذي الطول البالغ في فمه. وكان لدى الإمبراطور الصيني زو-هسين (1046-1105 ق.م) قضيب فحل لدرجة أنه كان يسير في أرجاء الحجرة حاملا امرأة عارية على قضيبه المنتصب.[333] لا يوجد أي نقص في مثل هذه القصص.

ولا يوجد نقص في الصور والتماثيل. يعبد الهندوس أحجارا على شكل القضيب، أعمدة أو نُصُب تمثل القوة الخالقة للإله شيـڤا؛ وفي مقاطعة دورست بإنجلترا، مازال سيرن آباس راقدا على تل أخضر: وهو رسم قديم بالحجر الجيري لعملاق يشهر هراوة في يده اليمنى وقضيبا منتصبا يصل إلى ضلوعه. وهو مؤثر للغاية لدرجة أن الناس اعتادوا تسلق التل كي يتزاوجوا حرفيا على قمة القضيب في العشب.[334]

في بلاد عديدة مازال يجري الاحتفال بمهرجانات القضيب. مثلا، يُحمل قضيب عملاق على أكتاف المشاركين السائرين في موكب يغلب عليه الذكور، خلال المهرجان السنوي للقضيب الفولاذي في اليابان. في مهرجان (هولي) في ولاية راجستان الهندية يُحمل قضيب عملاق أيضا تكريما للإله المحلي إيلوجي. ويتكون الحشد الحاضر المهرجان غالبا من رجال يغنون مدائح لإيلوجي كي يحفز خصوبتهم. والنساء اللاتي يردن أن يصبحن حوامل بطفل ذكر يبجلن إيلوجي أيضا. هذا الإله المكرس للجنس

333- Maggie Paley, *The Book of the Penis* 1999:41- 44.

334- http://www.mysteriousbritain.co.uk/england/dorset/featured- sites/the-cerne- abbas- giant.html.

يُصوَّر كرجل بشارب كبير وقضيب طويل على نحو ملفت.[335]

في اليونان القديمة قصص وتماثيل تؤكد الاهتمام العام الذي تمتع به القضيب. في الحياة اليومية كان يجري تمثيل القضيب جيدا في شوارع أثينا بفضل *الهرمس*، المسمى على اسم الإله هرمس: وهو قاعدة حجرية ذات رأس منحوت وخصيتين وقضيب منتصب. وكانت توجد أمام البيوت الخاصة وتضع علامات لحدود المساحات العامة والخاصة.[336] وهنا أيضا، كان الرجال يحملون قضيبا عملاقا في موكب، كما يمكن رؤية ذلك على مزهريات مرسومة.

ترى إيفا كولز Eva Keuls أن مجتمع القضيب phallocracy كمبدأ سائد فيه «يكون الجنس البشري ذكرا بالأساس وتكون الأنثى مجرد ملحق، مطلوب لسوء الحظ لغرض التناسل.»[337] وتصف سلطة القضيب بين اليونانيين القدماء كنظام ثقافي، لا يجري فيه تمثيل القضيب كعضو للاتحاد أو وسيلة للمتعة المتبادلة، لكن كسلاح:

> "رمح أو هراوة حربية، وصولجان سيادة. وفيما يتعلق بالجنس، يتخذ مجتمع القضيب أشكالا كالاغتصاب وإهمال الإرضاء الجنسي للنساء وسهولة الوصول إلى أجساد العاهرات اللاتي يجري استعبادهن حرفيا."[338]

يضم التراث اليوناني قصصا عن صراع الأبطال اليونانيين مع الأمازونات. هؤلاء النساء المحاربات – وفقا للبعض كان مجتمعهن يتكون حصريا من النساء – كن مستقلات ومولعات بالقتال. تصور الأعمال الفنية الكلاسيكية الأبطال اليونانيين وهم يجلدون ويضربون الأمازونات بالهراوات حتى الموت أو يطاردونهن.

أحيانا تصوب فتاة أمازونية رمحها مهددة الأعضاء التناسلية لرجل يوناني عارٍ، قد

335- مزيد من أمثلة المهرجانات على:
https://www.scoopwhoop.com/Places- Where- Penis- Is- Worshipped/#.5anbkposd;https://www.newsflare.com/video/189888/ entertainment- arts/devotees- take- giant- phallus- in- procession- in- india.

336- Eva C. Keuls, *The Reign of the Phallus*, 1985:385ff.

337- Ibid. 86.

338- Ibid. 2.

يكون ثيسيوس بطل أثينا، لكن هذا استثنائي إلى حد كبير. بيد أن هذه المشاهد تشير إلى تهديد بهزيمة محتملة، كما تقول إيفا، وتعكس بشكل جليّ الخوف الذكوري من التمرد الأنثوي، وكذلك من احتمال إضعاف السلطة. بالرغم من احتفاظ القضيب بالسطوة، ظل دائما ذلك «الخوف الموسوس من النساء» قائما، ولم يجلس الرجال أبدا بيسر على العرش.[339] أليس هذا هو خوف اللص من أن يقوم شخص آخر بنهب بيته ذات يوم؟

مرة بعد مرة نصادف هذا التوتر بين التسلط على النساء والخوف منهن في سياق هذا الكتاب. ومازالت هناك تقاليد سياسية وثقافية ودينية تحاول أن تحتفظ بهذه السلطة. ثمة آلاف من الأمثال تساعد على تهدئة الخوف الذكوري بمفاهيم نمطية عن الزوجة النموذجية. باختصار، ينبغي أن تكون أصغر منه حجما وعمرا، وكذلك أقل موهبة وأقل تعليما؛ ويجب أن تتطلع إليه بتواضع، وتلزم الهدوء وتنصت، ولا تعارض زوجها أبدا.[340]

مازال الرجال المتزعزعون يحبون الالتزام بهذا النموذج. وكلما شعروا بالإحباط، يتحول الخوف بسهولة إلى غضب، ويتصاعد غالبا ليصل إلى العنف اللفظي أو البدني (الفصل التاسع). لكن فقط ضع نفسك مكانهم، بتاريخهم ووضعهم. كرجل قمت باستبطان الرسائل المقلقة من شأن النساء طوال حياتك. وتظل تتلقى التحذير«بأنهن» غير موثوق بهن ولا بد من التحكم فيهن بصرامة، لأنه بغير ذلك ستندلع الفوضى. ويجعل هذا من الصعب الاقتراب من شخص من الجنس الآخر بدون تحيزات. وعلاوة على ذلك إذا اقتنعت لقرون أن هناك شخصا جاهز الصنع في نطفتك وأنك الشخص الذي تدخله إلى الرحم، فستؤمن بشكل آلي غالبا أن النساء يسهمن بالقليل أو بلا شيء في المجتمع وبلا شيء جوهري في حملهن كذلك.

التصدير الذي في بداية هذا الفصل، عبارة لصحابي جليل للنبي محمد، كثيرا ما يجري اقتباسه باستحسان. يكشف ابن عباس هنا عن خوف هائل من السلوك غير

339- السابق. 3ev. في بحثها قارنت أكثر من ثمانمائة صورة للأمازونيات في الآثار اليونانية، خاصة في أثينا. تنتمي قصص الأمازونيات إلى فئة كبيرة من القصص كانت فيها بلد ما أو العالم بأسره مسكونا فقط بالنساء.

340- انظر الفصل الرابع من كتاب (إياك والزواج من كبيرة القدمين).

المتوقع لأكثر جزء حساس في الجسد الذكوري، بينما بقية عبارته لا تقل كشفا. فهو يخاطب النساء مباشرة: «وإليه أشار عليه السلام بقوله "ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذوي الألباب منكن."»

إشارة ابن عباس هي مثال نموذجي للآليتين المألوفتين الآن اللتين تحافظان على بقاء هذه الهيراركية: التأكيد على التفوق الذكري بالتقليل من النساء – فهن ناقصات عقل ومن وجهة النظر الدينية أقل أهمية من الرجال – والتحذير القوي من السيطرة الأنثوية والضعف الذكوري في حضور «البَلِيَّة» لما يعتقد أنه انتصابات غير قابلة للتحكم. كما رأينا، هذا الخط من المنطق أقدم بكثير من الإسلام، ومازال يمارَس بحماس في كل السياقات حيث التقليل من النساء وتهميشهن مازال هو نظام الأشياء.

مفاهيم خاطئة عن الجنس

تؤثر الأساطير والدين والثقافة الشائعة على الطريقة التي بدأنا بها النظر إلى أنفسنا وإلى الجنس الآخر. إن حقيقة أن الرجل ليس مسؤولا عن التحكم في دوافعه الخاصة هو فهم خاطئ منحرف يحظى بسلطة غير مسبوقة. وكثيرا ما انتهى الأمر بالنساء بالتوافق مع هذه الرؤية أو حتى الزعم بأن الكائنات البشرية ذوات الجسد الأنثوي هي بالتعريف مسؤولة عن كل وأي دافع ذكوري، مقتنعات بأن دورهن الوحيد في الحياة هو أن يكن تابعات لنزوات القضيب الجامح.[341] أجابت طالبة مسلمة عن سؤالي عن السبب في ارتدائها الحجاب: «كلنا نعرف أن الرجال وحوش، ولذلك نحتاج إلى تغطية أنفسنا بالكامل.»

هذا المفهوم الخاطئ والموجع بعض الشيء عن جنس الرجال قد أصبح راسخا بشدة حتى أن نقص التحكم في الذات يُخلط بينه وبين «الرجولة» الحقيقية. كان على النساء أن يستسلمن لهذه الرجولة، وفقا لمنطق: «أنت تسببتِ في استثارتي، لذا عليك أن تخلصيني منها.» وأفضل علاج لاستثارة أي رجل من امرأة غريبة هي أن يندفع عائدا إلى البيت «ويفرغ المادة المهيجة المسببة لكل هذا الجيشان في المكان الصحيح الذي يخصها، حتى لا يتمكن الشيطان من النجاح في إيقاعه في الخطيئة»

341- المزيد في كتاب (المكشوف والمحجوب) الفصل السادس: الدين كتاريخ للحجب.

– وهي نصيحة منشؤها من كتابات الإمام مسلم (821-875). على اليوتيوب، يكرر الواعظون المتشددون التحذير للنساء بأن دعاءهن لن يُجاب إن لم يطعن أزواجهن عندما يعودون إلى البيت هائجين ومحتاجين إلى زوجاتهم على الفور. ولا يهم إن كانت المرأة مشغولة البال بشيء آخر أم لا في هذه اللحظة: بل يجب أن تترك خبزها يحترق في الفرن بدلا من أن تترك زوجها يحترق برغبته.[342]

هذا المنطق التقليدي العنيد مدموغ أيضا في عقول عدد لا حصر له من الرجال والنساء غير المسلمين الذين يستمرون بكل أمانة في تقرير أن الرجال لا يستطيعون تجنب الاستثارة بسبب هرمون التستوستيرون لديهم، كما جادلت كاتبة هولندية عام 2018 في مناقشة داخل المسرح القومي في أمستردام. أو مثلما كتب بروفيسور متخصص في فلسفة القانون في عمود عن قضية هارفي واينستين ومال للتعاطف مع أفكار ابن عباس، رغم أنه هو نفسه ملحد متزمت:

«يظل هذا الموقف – وحيدا مع امرأة في حجرة – إغواء لكثير من الرجال. قد تنطلق هرموناتهم، بحيث تتبع إرادتهم رغبتهم بدلا من عقلهم. وسيؤدي هذا إلى أشياء بغيضة لا رجعة فيها. لذا من الأفضل منع شيء كهذا من الحدوث. وبالتالي، من المفترض بالنساء أن يحافظن على مسافة من الرجال الأجانب – بمعنى أي رجل ليس زوجا أو أخا – وإذا كان لا مفر من محادثة ثنائية، فلتصطحب ذكرا موثوقا منه. يبدو لي أن هذا الخط الفكري لم يكن بالتأكيد مخطئا تماما.»[343]

بهذه الطريقة يعيد وضع الحل آليا في ملعب النساء. بالضبط مثلما كان الحال في زمن ابن عباس، فمن الأفضل لهن أن يتم إرشادهن! ألم يكن من الأكثر منطقية قبل الآن بالنسبة لرجل بالغ يخشى أن تلح عليه هرموناته – مثلا خلال اجتماع متابعة أطروحة مع طالبة جذابة – أن يأتي لنفسه بمشرف على التستوستيرون؟

342- Https://www.youtube.com/watch?v=d55thwza8PU;
وهناك واعظون مثل الشيخ القرضاوي الشهير ينشرون هذه الرسالة.

343- Jessica Durlacher the program *Sign of the Times*; Adreas Kinneging about Weinstein and the wellconsidered will, in *Novum*, https://novummagazine.nl/my-uploads/magazine/file/22/of2fe26adb.pdf, april 2018, p.30ev.

وتظل عواقب «التستوستيرون» قائمة على الرأي الشائع أكثر مما هي قائمة على الدليل العلمي. من الجيد أن نعرف أن خرافة التستوستيرون جرى إبطالها منذ زمن طويل، كما أثبتت كورديليا فاين Cordelia Fine في كتابها *التستوستيرون الملك* *Testosterone Rex* (2017). أو بكلمات أستاذة علم الجنس في جامعة أمستردام إلين لان Ellen Laan: «لا يوجد دليل واحد يثبت أن الرجال ذوي السلوك الجنسي غير التوافقي لديهم تستوستيرون أكثر مما لدى هؤلاء الذين يسيطرون على أنفسهم.»[344]

الواقع الباعث على السخرية هو أنه أينما تمسك الناس بالقوة القهرية الخرافية للتستوستيرون، يوجد رجال يفسرون هذه الرؤية كرخصة لفعل ما يشاؤون. ونتيجة لهذا، تكون الضحايا المحتملات دائما عرضة للخطر – ليس في الخارج فقط، بل أيضا في البيت. وفقا لتقديرات منظمة الصحة العالمية، تعاني امرأة من كل ثلاث نساء بشكل ما من العنف البدني أو الجنسي من جانب شريكها، و38 في المائة من جرائم قتل النساء يرتكبها شركاؤهن الذكور. والتقارير عن هذا موجودة بشكل ثابت في الأخبار، والإحصائيات الحديثة لافتقاد النساء للأمن البدني تواجه العالم بالعواقب الصادمة لمنطق التستوستيرون الزائف هذا في المجتمعات التي لا يُربى فيها الرجال على التحكم في النفس منذ سن مبكر.

في مقابلة شاملة تصحح البروفيسور إلين لان بضعة مفاهيم خاطئة عن السلوك الجنسي، بناء على نتائج أبحاثها الحديثة:

> «يستجيب الرجال والنساء كلاهما للمحفزات الجنسية. بالنسبة للرجال يكونون واضحين من الخارج، لكن بالنسبة للنساء يمكن قياسهن من الداخل.
>
> إن مفهوم الليبيدو القادم من "دوافع" فرويد لا بد أن يُلقى به في الماء: لأن "نظرية المرجل البخاري" تلك رأت الرجل كبرميل مليء بالشهوة التي لا بد من تفريغها في الجنس (ولا يمكنه إلا أن يستمر)، لكن التستوستيرون ليس "هرمونا رجاليا". هذه المادة تلعب دورا في الشهوة الجنسية لكل من الرجال والنساء.

344- Interview in NRC- Handelsblad, 17 November 2017. See also: Van Lunsen en Laan, *Sex! A life long education*, 2017.

فوارق السلطة بين الرجال والنساء هي السبب الرئيسي لسوء السلوك الذكوري. وتلعب فكرتان باقيتان من زمن دورًا في هذا. الفكرة الأولى هي أن الجاني ليس هو المذنب والمسؤول عن استثارته الشخصية، بل المرأة التي تستثيره جنسيا – مثلا، بارتداء تنورة قصيرة. والفكرة الثانية هي الأسطورة القائلة بأن أي رجل لديه انتصاب لا بد أن يقذف بالقطع، لأنه بغير ذلك سيصاب "باحتقان في الخصيتين". فلننه هذا باعتباره لا شيء غير كلام فارغ قام باستغلال أجيال من النساء. لا يوجد أي إلحاح فسيولوجي أيا كان لمثل هذا القذف: وأي رجل لم يمارس الجنس لفترة سيقوم ببساطة بالقذف الليلي أثناء الاحتلام. أما السلوك غير المرغوب فلا يمكن منعه إلا بالتعليم (الجنسي) الذي تكون فيه المساواة بين الرجال والنساء أمرا أساسيا.»[345]

هذا التعليم الجنسي الضروري جدا مازال في طفولته الأولى. فقط في عام 2000 – في الوثيقة النهائية لاتفاقية الأمم المتحدة للمرأة في بكين – سُجل لأول مرة أن سياسة التحرر ينبغي أيضا أن تستهدف الرجال. فالتملص من المسؤولية الكاملة عن رغبات المرء يظل علامة ضعف – من كلا الجانبين.

إن «البَليَّة الغالبة» كما قال ابن عباس تجاهلت بحكم العادة مسألة كيف تعاني النساء من الجنس الإجباري أو الإلزامي. طوال التاريخ، منذ بداية الغرور أو عدم الاهتمام الذكوريين جرى تفسير كلمة «لا» من الأنثى عادةً على أنها «نعم».

الصرحاء

بعد محاضرة ألقيتها كزائرة في نيروبي دُعيت إلى بيت طالبات. جلسنا في حلقة وشربنا الشاي. كانت إحدى الفتيات تُرضع توأما وحكت كيف كان الأب، وهو طالب زميل، لا يشعر بأدني مسؤولية حيال الطفلين. كيف يمكن هذا؟ حُكيت القصة في نُتف وأجزاء. عند نهاية الشهر كان كل الطلاب يتلقون بدلاتهم الشهرية، يشعر الجميع بالسعادة ويشتاقون جميعا إلى الخروج ليلا. يطرق الأولاد أبواب البنات ويذهبون إلى المدينة معا. وهناك كان الأولاد يدعون الفتيات على زجاجة كوكاكولا، لكن في نهاية

345- Laan, ibid., paraphrased.

الليل كان من المتوقع أن يُسدَد لهم الدين «على الطبيعة». وقد حدث هذا للطالبة أم التوأم. تساءلتُ: «لكنكن أيتها الفتيات تحصلن على بدلاتكن الخاصة، صحيح؟» انطلق سخطهن إلى السماء كصاعقة برق. بلى، بالضبط، تلك هي المشكلة. كان الأولاد يشعرون بإهانة عميقة إن أرادت الفتاة أن تدفع لنفسها. «يرون أنك عاهرة على الفور» تنهدت الأم الشابة، التي لم تعد قادرة الآن هي نفسها على إنهاء دراستها بالكلية. وعند نهاية مناقشة عاطفية على نحو متزايد عن مقدار سوء أن يُطلَق على واحدة عاهرة، أضافت: «كان لديّ في المدرسة ذات مرة معلمة حذرت الفتيات: "عالم الذكور أشبه ببركة مليئة بالتماسيح. إياكن والثقة بهم." لم نصدقها، والآن فقط أدرك كم كانت على حق.»

لحسن الحظ، يمكن للشركاء أيضا أن يتحدثوا إلى بعضهم البعض عن التوقعات المتبادلة ويفكروا بشكل نقدي في سلوكهم الشخصي. مثال على هذا اعتراف عام للمصري شريف حتاتة. قابلته في أوترخت كزوج للكاتبة نوال السعداوي في التسعينيات. طُلب مني أن أجري معها مقابلة بعد عرض مسرحي لنصها *امرأة عند نقطة الصفر*. وكان سؤالي الأول لهذه الطبيبة النفسية والكاتبة والناشطة المصرية هو: «نوال، ما هو سرك؟» وكان ردها: «أوه، شريف يمكنه أن يجيب على هذا السؤال بشكل أفضل.»

لذلك دعوته إلى الجلوس معنا على خشبة المسرح. أوضح لنا أنه عندما كان طفلا كان ذلك الابن المحبوب الذي دللته أمه كثيرا لدرجة أن حتى شبشبه كان يوضع دائما إلى جوار فراشه في الاتجاه الصحيح. وفيما بعد أصبح طبيبا وروائيا، اشتراكيا وقائد نقابة مهنية. وبمجرد أن تزوج نوال وعاشا في نفس البيت، بدأ شريف يطلب منها أن تفعل هذا أو ذاك من أجله، كما بدا منطقيا من وجهة نظره. لكن عندئذ كانت إجابتها غالبا: «آسفة، أنا مشغولة للغاية الآن» أو «كما تعرف، لديّ موعد تسليم نهائي» أو «ليس الآن يا حبيبي!» أزعجه هذا كثيرا لدرجة أنه بدأ يتساءل إن كانت تحبه حقا: «نعم» هكذا اعترف بصراحة للجمهور، «الحق أقول لكم، استغرق الأمر مني وقتا طويلا كي أدرك أن الاشتراكية تبدأ من البيت.» في نهاية حوارنا، وجه تحذيرا جادا للشابات الجالسات وسط الجمهور: «احترسن يا بنات إن وقعتن في الحب! سترغبن في القيام بكل شيء لإشباع رغبات هذا الشاب المحبوب الذي أفسدته أمه بتدليلها لا

شك؛ لكن إن بدأتم العيش معا، من فضلكن تذكرن أنه سيكون من الصعب للغاية أن تعدن إلى الوضع الطبيعي!»

إن تحدي امتيازاتك وتقاسم سلطتك بمبادرة منك ليس أمرا بديهيا أبدا. وطالما أن الأساطير والثقافة الشائعة تصران على أن النساء قد خُلقن من أجل سعادة الرجال، سيظل الجسد الأنثوي شيئا قابلا للتحكم فيه من أجلك كرجل كي تعامله بالطريقة التي تحلو لك من خلال قواعد المجتمع. وغالبا ما تتوافق النساء مع هذا، شئن أم أبين، أو في مكان ما بين الاختيارين.

ما هو وضعك الحالي كامرأة معاصرة في هذا التاريخ الطويل من السلطة والعجز؟ انتهى الأمر ذات مرة بالصحفية الهولندية جويس رودنات Joyce Roodnat إلى موقف مذل ظلت صامتة عنه لسنوات حتى جعلها جدل حركة أنا أيضا MeToo تفكر كم كان سيئا أن تمر بهذه التجربة. وعندما ظهرت تعليقات لها علاقة بالأمر على الفور، قررت أن تتكلم عن تجربتها. في عام 2017 تذكرت بالأساس ارتباكها خلال مقابلة في باريس مع كلود لانزمان Claude Lanzmann، صانع الفيلم الوثائقي المؤثر *الهولوكوست* *Shoah* (1985) عن معسكرات الموت النازية – «بطل، فنان عظيم»:

> «جرى الحوار في بيته، أجاب كل سؤال بتفصيل كبير. وبينما كان يتحدث عن أوشفيتز والطريقة التي هاجم بها جلادي المعسكر بكاميرا مخبأة، كان يتحسسني. ورغم رفضي له بأدب، تركته يفعل ما يفعله. كنت أعرف موقعي. كان هو صانع الأفلام العظيم، وكنت أنا نكرة. على أي حال، كان عليّ أن أنهي تلك المقابلة، فالرجوع بعمل غير منته كان مستحيلا. الشيق في الأمر أنه لا أنا ولا هو قلنا شيئا عن سلوكه. وعندما بدأ يصبح مخيفا بالفعل، وقفت وقلت إنه عليّ أن أرحل. أصر على أن يوصلني وفي النهاية دخلت حتى سيارته. لماذا؟ لم أستطع أن أقول. وفي النهاية تمالكت نفسي وخرجت عند إشارة مرور. كتبت المقال ولم أحك لأحد. ظللت صامتة من منطلق احترام الفن. لاحقا سمعت أني لم أكن الوحيدة التي حدث لها هذا. وهذا ساعدني.»[346]

346- Https://www.nrc.nl/nieuws/2017/10/18/metoo- oftwel- hij- ook- 13559309- al1577724.

في النهاية لا تتعلق إساءة استخدام السلطة تلك بالجنس، كما خلصت، بل بإذلال النساء وتحويلهن إلى أشياء «تفعل بها شيئا». وتستمر المفاهيم الخاطئة القديمة في بذر الحيرة ويجري تأويلها على نحو خاطئ من الجانبين.

حركة أنا أيضا وما بعدها

تنتشر حركة أنا أيضا حول العالم كموجة تسونامي هائلة من الغضب الأنثوي على المواجهات المربكة والإيذاء المهين. بدأت الحركة في عام 2017 كانفجار صغير للسخط تجاه صفاقة أيقونة السينما الأمريكية هارفي واينستين. لم تؤد مكاشفات العاملات والموظفات لديه حول سنوات عديدة من تحمل سلوكياته في صمت إلى إلقاء القبض عليه فقط، بل إلى حركة تدعو إلى وقف التحرش والإساءة الجنسيين. كانت أول النساء المتكلمات من مشاهير وأثرياء النساء الغربيات، وأول الرجال المتهمين ممثلين وأقطاب سينما أقوياء. وسرعان ما تمددت الحركة في جميع الاتجاهات كظاهرة مميزة ذات صدى عالمي. ليس فقط في عالم السينما، بل أيضا في الألعاب الرياضية والجامعات والعالم الطبي، بدأت النساء في ذكر من قاموا بالتحرش بهن والاعتداء عليهن واغتصابهن بالاسم، بتأثير كرة الثلج المدهش. هنا وهناك يسقط بعض الرجال المتهمين عن منصاتهم، بينما يخرج إلى دائرة الضوء عنف جنسي أكثر بغضا من أي وقت مضى في كافة طبقات المجتمع وأهله، مع ظهور المزيد من الفتيات الصغيرات والصغار الذين لا حول لهم ولا قوة وحتى الرُضَّع كضحايا بشكل متنام. أي شخص يبحث عن كلمة «MeToo» واسم بلد ما، سيواجَه باندلاع حريق مقلقٍ مجنون من البيانات المزعجة على شبكة الإنترنت.

ينعقد نقاش مفتوح، بردود أفعال تترواح ما بين الخيّر والنسبي، وما بين التجاهل المسيء والعدائية المحض، بينما تتحدث نساء أكثر ويشرن إلى حدودهن بوضوح أكبر من قبل. وكالعادة، بدأت حركة مضادة بسرعة مدهشة. على الأخص أطلق على النساء الشهيرات اللاتي جرؤن على انتقاد سلوك الرجال الأقوياء صفات مثل عاهرات، كاذبات، خائنات، انتهازيات. واحدة من أوائل النساء اللاتي تعرضن لرد الفعل ذاك كانت الممثلة وصانعة الأفلام الإيطالية آسيا أرجنتو Asia Argento. في عام 1997، في سن الواحدة والعشرين، اغتصبها هارفي واينستين. وعندما كانت واحدة من أوائل

من أعلنَّ قضيتهن على الملأ في أكتوبر 2017، جرى وصمها في بلدها الأم إيطاليا وتهديدها يوميا. وحدث نفس الشيء للنساء اللاتي كشفن ما كان يحدث في حفلات (*بونجا بونجا*) سيئة السمعة التي كان يقيمها سيلفيو برلسكوني. وفقا لصحفيين مهمين، كانت ردود الفعل المضادة والعنيفة تلك في إيطاليا بسبب قانون الصمت الذي تفرضه المافيا على المجتمع الإيطالي. وفقا لآسيا أرجنتو، تجري الإساءة إلى نساء حركة **أنا أيضا** اللاتي يكسرن هذا التابو على يد رجال محبطين على المواقع الإلكترونية، والذين يتكلمون بلهفة عما يودون أن يفعلوه بالنساء اللاتي يرفضن أن يغلقن أفواههن بعد ذلك، إذا وجدوهن في مكان ما وحدهن في سيارة.

لكن معلومة جديدة عن آسيا أرجنتو في جريدة نيويورك *تايمز* بتاريخ 20 أغسطس 2018 لم تؤد فقط إلى موجة جديدة من الاحتقار واللوم لها شخصيا، بل سببت صدمة أيضا داخل حركة أنا أيضا: فقد اتضح أن النساء بشر لهن خصال بشرية تشمل نقاط ضعف، باختصار: هن أكثر من مجرد ضحايا. أصبح معروفا أن آسيا، قبل سنوات قليلة، اعتدت جنسيا على ممثل شاب في السابعة عشر من عمره أجبرته في البداية على الشرب أكثر من اللازم وأسكتته لاحقا بمبلغ كبير من المال. تبين فجأة أن السلطة لا تفسد الرجال فقط، بل النساء أيضا. الفارق الوحيد هو أنه طوال التاريخ، كانت لدى النساء فرصة أقل بكثير في ممارسة سلطتهن المسيئة.

تظهر ردود الفعل المضادة لحركة أنا أيضا في كل مكان. وتحاول بعض الحكومات أن تنكر وجود إساءات جنسية داخل حدودها. في الصين كانت التعليقات الرسمية الأولى هي أن مثل هذه الأشياء لا تحدث «هنا»، لكن في الوقت نفسه كانت أصداء حركة أنا أيضا تتردد. جرى الحكم على خمس فتيات أردن أن يبدأن حملة ضد الاعتداءات الجنسية في المواصلات العامة بالسجن لبضعة أسابيع. تحاول النساء هناك وفي أماكن أخرى من آسيا أن يوضحن أن احتجاجاتهن ليست موجهة على الإطلاق إلى الحكومة، لكنها تنبع من القلق بشأن أمانهن؛ وهو الواضح تماما في بلاد ذات عجز مرعب في عدد الفتيات (انظر الفصل العاشر).

ثمة إشارات إيجابية متاحة كذلك. ففضح العنف الجنسي لا يعمل فقط علاجيا لصالح الضحايا، بل يمنح منظورا جديدا أيضا حول الإساءات الجنسية في مجتمعات

مختلفة. في نوفمبر 2017 أُعلنت القاهرة كأكثر مدينة غير آمنة في العالم بالنسبة للنساء. وبعد قليل من صدور هذا الخبر، طالب محام مصري معتد بنفسه في مناقشة تليفزيونية الرجال باغتصاب النساء مرتديات الجينز الممزق «من منطلق إحساس وطني بالواجب». جرى انتقاد رد الفعل ذاك حالا في وسائل الإعلام وإخراسه على الفور من الرجال والنساء ككل. في جنوب إفريقيا ليس فقط النساء بل الرجال أيضا يخرجون إلى الشوارع ليقفوا مدافعين عن النساء ومحتجين على العنف والتحرش الجنسي. إن الأبعاد العالمية لحركة أنا أيضا قادرة على المساهمة في مجتمعات لا تعود فيها الرجولة أخيرا مرادفا للتملك الجنسي.

في الماضي كانت النساء غالبا ما يُدفعن للاعتقاد بأن أجسادهن ليست ملكهن، بينما كان يقال للرجال إن جسد المرأة مخلوق كي يكون له مالك ذكر. وقد أدت التبعية الاقتصادية بالنساء إلى تقديم أجسادهن بقدر ما يمكنهن من طرق مغوية. ودون وجود فرصة لتطوير أنفسهن مهنيا، كان الجسد رأس مال النساء الوحيد في الحياة، وبه كان عليهن أن يبذلن أقصى ما لديهن كي يجدن شريكا موسرا – رجل قادر على إراحتهن ماديا وعليه سيبقين معتمدات طوال حياتهن. لقد جرت تغذية النساء بدور الشيء الجميل لقرون ومازال له سلطته بفضل المعلنين الذين لا يعرفون الرحمة. يجري فرض هذه الصور، بالضبط مثل القوانين الدينية الإلزامية، وتتكرر بصورة بالغة لدرجة أن هناك حاجة لنضال مستمر كي لا نستسلم.

في الحقيقة، إن الاحتجاب المرغوب للجسد في التقاليد البطريركية والتكشف الأنثوي المستفز كموضوع استهلاكي للشهوة كلاهما شكلان من العبودية الخارجية. وهما ينتقصان من كل الإنجازات الأنثوية في الفن والعلم والرياضة والمجالات الأخرى التي كانت النساء ممنوعات منها غالبا حتى القرن العشرين – كإرث باق من بدايتهن الطبيعية كمانحات حياة فريدات.

في أماكن كثيرة تحولت علاقة الذكر-الأنثى بالفعل في اتجاه المزيد من المساواة. ماذا يعني هذا التطور الحديث بالنسبة للرجال؟ لا تولي حركة أنا أيضا اهتماما لهذا السؤال، رغم أن هناك المزيد والمزيد من الرجال المحبَطين؛ حتى أنه يُطلق عليهم في الغرب «الرجال البيض الغاضبون». وهم يتمسكون بوهم وجود طريق للعودة إلى

الماضي التليد السعيد: رسالة مضللة ذات رؤية محدودة لطريق مسدود. لدى الأطباء النفسيين المزيد والمزيد من هؤلاء الرجال في حجرات انتظارهم. يلاحظ أحدهم:

«لقد سقط الرجال في الفخ. من وجهة نظر تطورية، لقد تُركوا خاويي الوفاض بتأثير متناقص على ضبط نشاطهم الجنسي، حتى لم تعد لهم أهمية بالفعل. كما يتعرضون للسخرية واللوم على كل شيء. [...] – بالفعل، نحن في مرحلة تسوية الحسابات.»[347]

إلى جانب الرجال الصامتين وذوي الصوابية السياسية المسايرين لحركة التأنيث، هناك رجال غاضبون وممرورون يتصرفون مثل الأطفال المظلومين، ورجال ينصرفون عن المجتمع؛ مصابين بفيروس الاكتئاب المنتشر لأن أحدا لم يعد يحتاجهم على الإطلاق. وفي مواقف متطرفة، يختار مثل هؤلاء الأفراد أحيانا تسوية عنيفة مع النساء قائمة على شعور بالدونية من المتعذر إصلاحه. وهذا مجرد مثال:

«"أنا بالفعل ذو مظهر جيد. أرتدي ملابس أنيقة، وأنا نظيف حليق، أستحم، مع لمسة من الكولونيا – لكن 30 مليون امرأة رفضنني" هذا ما كتبه جورج سوديني في مدونة أنشأها بينما كان يستعد لإطلاق النار الذي حدث هذا الأسبوع في صالة ألعاب بنسلفانيا والذي قتل فيه ثلاث نساء، وأصاب تسعا أخريات وبعد ذلك قتل نفسه.»[348]

إن قصص وأحلام الرجال الخائفين من النساء والتي تُحكى في جلسات العلاج النفسي تشبه إلى حد مذهل وقائع مشارا إليها في الأساطير والقصص القديمة. إن حجر الماضي الأسطوري الثقيل يرزح على ظهر الحاضر المعاصر. إن إسقاط الدوافع التدميرية على الجنس الآخر يحول النساء إلى وحوش أو ساحرات يحتفلن بشهوتهن الرهيبة على حساب خير الرجال، بينما في الواقع يحدث العكس أكثر بكثير.

347- Margreet Fogteloo, Interview with psychiatrist Frank Koerselman in *De Groene Amsterdammer*, 23 March 2017. (My translation)

348- Bob Herbert, Op- Ed Colum Women at Risk, *New York Times*, the 7th of August 2009.
Https://www.nytimes.com/2009/08/08/opinion/08herbert.html?- r=l.

بعد العمل لسنوات مع القتلة والمغتصبين، ذكر طبيب نفسي في سجن أمريكي بعد مأساة إطلاق نار أخرى أن العنف ضد النساء يأتي دائما في الغالب من شعور بعدم الأهلية يصيب بالشلل: حيث يبدو كل إيمان برجولة المرء مفقودا. أنت لا تحقق أي نجاح مع النساء وعندئذ تأتي بفعل عنف دراماتيكي سيولّد أخيرا ذلك الاهتمام الذي كنت تتوق إليه طوال تلك السنين:

«الثقافة السائدة مليئة بأبشع أشكال كراهية النساء، ومواد البورنو الآن صناعة بعدة مليارات من الدولارات – تسيطر على كثير منها الشركات الأمريكية الكبيرة. واحد من الأشياء الملفتة حول جرائم القتل الجماعي في الولايات المتحدة هو كيف نجد باستمرار أن القتلة يعانون تماما من الخزي والإذلال الجنسي، وهو ما يلقون اللوم بسببه حتما على كاهل النساء والفتيات. وكانت الاستجابة لمشاعرهم بعدم الأهلية هي أن يضعوا أياديهم على مسدس (أو مسدسات) ويبدأوا في قتل الناس بالرصاص.»[349]

كلنا نتوق إلى الأمن وإلى دور في المجتمع. نريد أن تكون هناك حاجة إلينا وأن نؤخذ على محمل الجد. كانت حركة أنا أيضا (ومازالت) حركة ضرورية جدا، لكن الإيذاء وخلق الضحايا ليس وضعا مناسبا لأي شخص كي يمكث فيه أو عليه. وأسهل شيء أن تلقي كل اللوم على الجنس الآخر.

ليس من الواضح دائما من هو المسؤول، لأن علاقات السلطة يمكن أن تتحول بخفاء. في الماضي، عملت نساء كثيرات كمماسح أرجل ذليلة للرجال الذين في مواقع السلطة، وحتى الآن مازالت نساء كثيرات يفعلن هذا. تشير حركة أنا أيضا عن حق إلى هذه الحالة من عدم المساواة في السلطة، لكنها تتغاضى عن السلطة التي لدى النساء أنفسهن في بعض المواقف. أما عن وجود هذه السلطة، فقد أثبتته الأشكال الكثيرة من الخوف التي واجهناها في الفصول السابقة: الخوف من الغرابة الغامضة لكائن مختلف وجذاب. والخوف من سلطة الولادة التي سببت اضطرابا في العلاقات الجندرية كل هذا الوقت، كما توضح التقاليد العالمية الشفاهية والمكتوبة بشكل مقنع. كما أن الحاجة المتأصلة للتقليل من شأن النساء أو لتمثيلهن كعدو مدمر تعكس أيضا

349- Ibid.

ذلك الخوف القديم.

إن الخوف والرهبة الذكوريين مازالا موجودين في كل مكان وقلما تكون النساء واعيات بسلطتهن. لا بد من التعامل مع السلطة بحرص. والطرف الذي يملك سلطة أكثر – بدنيا، جنسيا، ماليا، فكريا، وهكذا.. – عليه مسؤولية أكبر في صنع والحفاظ على علاقة إنسانية؛ وهي قاعدة ذهبية تنطبق على كل البشر.

لم يكن من السهل أبدا التغلب على المقاومة وممارسة الاستقلال، خاصةً لهؤلاء الذين استبطنوا وضعهم المنقاد. لا بد أن تتخلص النساء من دورهن التقليدي كشيء ممتع في صمت ويطالبن بحرية متجذرة في المؤهلات والمواهب، مؤهلات لا علاقة لها بمظهرهن.

كل من يكون ضحية لشهوة الآخرين لا يصل على الفور إلى شهوته هو نفسه. ليس الأمر مسألة تحقير لجنسانية الرجال، لكنه تحسين لجنسانية النساء. إن الفرضية الأكثر إنسانية هي أنه لا أحد مخول بممارسة الجنس على حساب الآخر، أو بكلمات ستيفن ساندرز Stephan Sanders: «ربما يوجد شيء اسمه الحق في الجنس، لكنه بالطبع ليس في الجنس مع شخص آخر.» لقد كان الناس دائما قادرين على تعديل نماذج الحياة الراسخة، على تحدي أنفسهم وبعضهم البعض، وعلى اتخاذ توجهات جديدة. بدلا من التعلق بمونولوجات القضيب أو مونولوجات المهبل، يمكننا استكشاف حوارات عن كيف يمكن للناس أن يكونوا أفضل سويا، مع ملاحظة نقاط ضعف أحدنا الآخر. لا ينطبق هذا فقط على الجنس، بل على تفاعلنا اليومي مع بعضنا البعض. بالمعنى الأوسع، لديّ حلم.



مينيكه شيبر

تلال الفردوس

تاريخ الجسد الأنثوي بين السلطة والعجز

ترجمة: عبدالرحيم يوسف

"لا يمكننا تغيير التاريخ، لكن يمكننا تغيير طريقتنا في النظر إلى الماضي والحاضر." هذا ما تراه البروفيسورة والكاتبة الهولندية مينيكه شيبر في كتابها الفريد "تلال الفردوس... تاريخ الجسد الأنثوي بين السلطة والعجز"، وفي سعيها ذاك تغوص بنا كعادتها داخل طبقات هذا التاريخ نفسه لنرى معا كيف تؤثر الأساطير والدين والثقافة الشائعة على الطريقة التي بدأنا بها النظر إلى أنفسنا وإلى الجنس الآخر. إن حجر الماضي الأسطوري الثقيل يرزح على ظهر الحاضر المعاصر. ونحن مازلنا واقعين في أسر تقاليد انتقلت عبر العصور، تقاليد تربطنا بأسلافنا على نحو أوثق مما قد ندرك. ولكي نصل إلى معنى من الحاضر، نحن بحاجة إلى فهم الماضي.

يلقي هذا الكتاب نظرة واسعة المدى على عالمنا المليء بالقصص والأفكار عن أجزاء الجسد التي منحتها الطبيعة للنساء فقط. ويرصد كيف أثارت الاختلافات الجنسية وهذه الأجزاء الفريدة لدى النساء مواقف مشوهة ومشاعر مختلطة تتراوح بين السلطة المطلقة والعجز المطلق، بين البهجة وانعدام الأمن وانعدام الثقة والخوف. وهذا الكتاب هو عن هذه المشاعر الملتبسة نحو أجزاء الجسد الأنثوي الحيوية والمرغوبة والمحسودة والمفترى عليها.

مينيكه شيبر ●●

كاتبة وأكاديمية وروائية هولندية. درست اللغة الفرنسية والفلسفة في جامعة أمستردام الحرة، ودرست النظرية الأدبية والأدب المقارن في جامعة أولتريخت. بدأت حياتها العملية بتدريس اللغة الفرنسية والأدب الإفريقي وكانت أطروحتها التي تقدمت بها للحصول على درجة الدكتوراه عام 1973 أول رسالة دكتوراه في هولندا عن الآداب الإفريقية. وهي مازالت تحتفظ بمنصبها كباحثة في مركز جامعة لايدن للآداب والفنون في المجتمع، لكنها متفرغة حاليا بشكل أساسي لحياتها ككاتبة. صدر لها من قبل كتابا "المكشوف والمحجوب.. من خيط بسيط إلى بدلة بثلاث قطع" 2017، و "ومن بعدنا الطوفان.. حكايات نهاية البشرية" 2018 عن دار صفصافة.

ISBN 978-977-821-142-9

9 789778 211429



